مختصر

تفسير ابن كثير

(تفسير القرآن العظيم)

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

إختصار

الشيخ محمد كريم راجح

المجلد الأول

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة السابعة 1420 هـ 1999 م

دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب: ٧٨٧٦، هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢، فاكس: ٦٠٣٣٨٤، برقياً: معرفكار بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut - Lebanon

مختصر

تفسير ابن كثير

١

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله بالهدي ودين الحق ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

أما بعد : فمنذ زمن طويل كنت أنظر في كتب التفسير فأجد فيها المطول والمختصر ، وكنت أرى أن التطويل قد لا يسمح لكل قارىء أن يقرأ تفسير القرآن ويتمه ، وأن الاختصار قد لا يستوعب كل ما رمز إليه المفسر . وكنت أرى أن تفسير القرآن الكريم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ كتاب جمع فأوعى ، ففيه الدراية والرواية ، وفيه الاستدلال بالآية على نظائرها من الآيات ، وفيه الاستشهاد بالحديث فيما يتصل بالآية ، وفيه أسباب النزول وفيه السيرة ، وفيه الرواية عن الأئمة ، وفيه تخريج الأحاديث وذكر أسانيدها ، إلى غير ذلك مما أمتع الله به الشيخ رحمه الله من القوة العلمية والبيانية ، مما آثر أن يجعله في تفسيره لتقرأه الأمة الإسلامية على توالي الأجيال .

وكان مما مَنَّ الله به أن جعل لهذا التفسير فتحاً ، فكان محبباً إلى القلوب ، قريباً من الأفكار ، عبارته سهلة ، وغرضه ظاهر ، وأهدافه

واضحة ، فهو يشرح لك المعنى من أسهل الطرق ، وبأسهل الألفاظ ، فتخال نفسك وأنت تقرؤه كأنك تقرأ قصة تستهوي فكرك وتأخذ بلبك ثم أنت حين تقرأ فيه ينقلك من الآية إلى معناها ، ومنه إلى الحديث الشريف ، ومنه إلى الأمر ، ومنه إلى الحكم ، ومنه إلى الحكمة ، وهكذا تعيش فيه مع خيرة القرون : الأول والثاني والثالث وأنت في نعيم مقيم وقد رأيت أن أختصره في جزء واحد يجمع أكثر ما فيه من المعاني ، فالشيخ رحمه الله قد يأتي للآية الواحدة بعدة شواهد ، فلا مانع من الاقتصار على بعضها وبعدة أحاديث بروايات متعددة كلها تؤدي غرضاً واحداً ، فلا مانع من الاجتزاء ببعضها . وبأكثر من أثر للمسألة الواحدة ، فقد يجوز أن يؤخذ بعضها ، ناهيك بالأسانيد التي لا مانع في أيامنا هذه من حذفها ، إذ هي محفوظة في الأصل ومن أرادها يستطيع في كل وقت أن يعود إليها . والمهم أن يقرأ الناس القرآن وتفسيره ، وأن يدخلوا إلى ذلك من أقرب الطرق وأخصرها غير أنني حين حاولت الاختصار رأيت الكتاب بحراً لا ساحل له فغلبني ما فيه من الجواهر فكان في جزءين .

واسأل الله أن ينفع بهما ، وأن يجزل المثوبة للشيخ الذي هو الأصل وصاحب الفضل وللمختصِر ، وللقارىء وأن يجعل ذلك كله زلفى لديه .

وكل ما أرجوه من الله أن لا أكون قد أسأت للكتاب ، فالكتاب قمة ولا شك ، وأرجو أن يكون هذا المختصَر فيه من الكفاية للقارىء ما يغنيه عن أن يقلب طرفه في تفاسير كثيرة .

والفضل من الله الكبير أن الإقبال على القرآن بكل علومه وتفاسيره وأحكامه هواية الناشئة من ذكور وإناث وذلك يعود إلى أن الشباب تعلموا ، والعلم يهدي إلى الرشاد ولم يجدوا الرشاد والطمأنينة إلا في كتاب الله عز وجل ، فهرعوا إليه وانكبوا عليه ينهلون منه ومن علومه وتفاسيره ، وذلك ولا

شك يبشر بخير ، ونسأل الله أن يمن بالهداية وأن يعود بالمسلمين إلى مهيع دينهم ، ومعين عقيدتهم ، وصافي شراب تشريعهم ، وأن يعملوا بما علموا ، إنه سميع قريب .

هذا وقد حرصت على عبارة الشيخ كل الحرص ، والتزمت ألفاظه كل الالتزام ، حتى لا نخرج في هذا المختصر عن نور عبارة الأصل ، ولا عن غاية مراميها وأبعادها ، فالشيخ رحمه الله ذو نور في القلب وإشعاع في الفكر ، وعبارته متأثرة بنور قلبه وضياء فكره ، فكان لا بد من التزامها كما هي ، وما كان للجوهر أن يبدَّل ولا للذهب أن يغيَّر ومهما جيء بمثله فإنه لا مثل له .

وأرجو من القارىء إذا قرأ فاستفاد أن يشملني بدعوته فذاك هو الذخر الذي أرجوه يوم الدين .

كما أنني أتقدم بالشكر الجزيل إلى أصحاب دار المعرفة للطباعة والنشر في لبنان على ما أبدوه من عناية فائقة في سبيل نشر هذا المختصر ، وأسأله جلت قدرته أن يكتب لهم هذا الجهد في صحائف أعمالهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

مشق في ٢٩/ ٨ / ١٤٠٣
١/ ٦ / ١٩٨٣

محمد كريم بن سعيد راجح

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

جمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ، ليست بمتحتمة يأثم تاركها . ومعناها الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر .

تفسير سُورَة الفَاتِحَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النحل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة ، دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية ، على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً .

و« الله » علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات . « الرحمن الرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، و« رحمن » أشد مبالغة من رحيم .

(٢) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد .
« والرب » هو المالك المتصرف ، ولا يستعمل لغير الله ، بل بالإضافة ، تقول : رب الدار وأما « الرب » فلا يقال إلا لله عز وجل .

و« العالمين » جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجل ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات في السمٰوات وفي البر والبحر .

(٣) ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

إنما وصف نفسه بـ« الرحمن الرحيم » بعد قوله : « رب العالمين » ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ، فالرب فيه ترهيب ، والرحمٰن الرحيم ترغيب .

(٤) ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا . ويوم الدين يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر إلا من عفا عنه .

(٥) ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة ، والدينُ كله يرجع إلى هذين المعنيين . والعبادة في اللغة من الذلة ، يقال : طريق معبد ، وبعير معبد أي مذلل ، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف .

(٦) ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته ، وحاجة إخوانه المؤمنين ، لأنه أنجح للحاجة ، وأنجح للإجابة ، فهنا تقدم الثناء ، وأعقبه السؤال . والصراط المستقيم : كتاب الله ، أو الإسلام .

(٧) ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، وهو مفسر لـ « الصراط المستقيم » والمغضوب عليهم : هم اليهود ، والضالون : هم النصارى .

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : « آمين » ومعناه : اللهم استجب .

تفسير سُورَةُ البَقَرَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » .

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

هي ما استأثر الله بعلمه ، أو هي أسماء السور ، أو من أسماء الله تعالى ، أو ذكرت بياناً لاعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه

الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها . ومن زعم أنها دالة على معرفة المُدَد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له . وطار في غير مطاره .

(٢) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، نوراً للذين يتقون الشرك بالله ، ويعملون بطاعته . ومن قال : إن المراد بـ « ذلك الكتاب » الإشارة إلى التوراة والانجيل فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وتكلف ما لا علم له به . والريب : الشك ، وقد يستعمل في التهمة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله تعالى ، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه ، والإرشاد إليه .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال ، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وأنه يزيد وينقص . وأما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار وما ذكر في القرآن . وإقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها والمحافظة على مواقيتها ووضوئها . وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . والمراد من النفقة هنا زكاة المال ، أو تشمل النفقة الواجبة على الأهل وغيرهم .

(٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

أي يصدقون بما جئت به من الله ، وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاؤوا به من ربهم ، وبالآخرة هم يوقنون ، أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا .

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذي رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ، ومن قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة هم على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ، وهم المنجون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم

وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

إن الذين غطوا الحق وستروه ـ وقد كتب الله عليهم ذلك ـ سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . « لا يؤمنون » جملة مؤكدة ، ويحتمل أن تكون خبراً .

(٧) ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه ، فختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم . وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ، ولا يفقهون ، ولا يعقلون.
والوقف التام على قوله سبحانه : ﴿ وعلى سمعهم ﴾ وقوله : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ جملة تامة ، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة ـ وهي الغطاء ـ يكون على البصر .

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(٩) ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يعني المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، يقولون ذلك قولاً ، ليس وراءه شيء آخر ، فهم بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ . والنفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر . وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق .

(١٠) ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾

في قلوبهم شك ونفاق ، فزادهم الله شكاً ونفاقاً . وأشهر المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ⑪
﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ⑫

وإذا قيل لهم : لا تعصوا في الأرض قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون ، وكان فسادهم معصية الله لأن من عصى الله في الأرض ، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمونه أنه إصلاح وهو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ⑬

وإذا قيل للمنافقين آمنوا كإيمان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ، فأكد سبحانه وحصر السفاهة فيهم ، ولكن من تمام جهلهم أنهم لا يعلمونه بإيمانهم في الضلالة والجهل . وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي ، القليل المعرفة بمواضيع المصالح والمضار .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ⑭
﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ⑮

وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ، ونفاقاً ومصانعة وتقية ، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم ، وإذا خلصوا إلى رؤسائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين قالوا إنا على مثل ما أنتم عليه ، إنما نستهزىء بالقوم ونلعب بهم ، فالله مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فإن الله لا يكون منه المكر ولا الهزء ، والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم والعمه : الضلال ، فهم في كفرهم الذي غمرهم ذله ، وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ⑯

أولئك الذين أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما

كانوا راشدين ، إذ خرجوا من الهدىٰ إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

(١٧) ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(١٨) ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

شبههم الله في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق أعمىٰ لو كان ضياءً لما أبصر ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدىٰ ، واستحبابهم الغي على الرشد . وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع . وقوله تعالىٰ : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم ، وهو النور . وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان .

(١٩) ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

(٢٠) ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالىٰ لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرىٰ ، فقلوبهم في حال ترددهم وكفرهم كمطر نزل من السماء في حال ظلمات ، وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، ﴿وبرق﴾، وهو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، وهم يحذرون الموت من الصواعق ، ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً ، لأن الله محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ، والبرق يكاد يخطف أبصارهم لشدته وقوته في نفسه ، وضعف بصائرهم ، وعدم ثباتها للإيمان ، وهم يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين ، والله على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير .

(٢١) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(٢٢) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ، والسماء بناء محفوظاً كالسقف ، وأنزل لهم من السحاب ماء ، فأخرج لهم من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ، ولا يشرك به غيره .

(٢٣) ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

(٢٤) ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ قائلاً : ﴿ وإن كنتم في ريب . . . ﴾ أي فإن زعمتم أن القرآن من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك ، وقد تحداهم في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوتهم له ، وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار . . . ﴾ و﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد في المستقبل ، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه معجزة أخرىٰ لأنه يبين أن القرآن لا يعارض أبد الآبدين ، ودهر الداهرين . و﴿ الوقود ﴾ ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب . و﴿ الحجارة ﴾ : هي هنا حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت . ﴿ أعدت ﴾ الحجارة ، أو النار .

(٢٥) ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال

عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن بالمثاني على أصح أقوال العلماء ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال السعداء ، ثم الأشقياء ، أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله ، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه ، فلهذا قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا . . ﴾ فوصف الجنة بأنه تجري الأنهار من تحت أشجارها وغرفها ، وأن ثمارها تشبه ثمار الدنيا أو يشبه بعضها بعضاً في الشكل وتختلف في الطعم والمرأىٰ ، وأنهم لهم فيها أزواج مطهرة من القذر والأذىٰ ، ومن الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد ، ومن المأثم ، وأنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فهم في نعيم سرمدي أبدي على الدوام ، وهذا هو تمام السعادة ، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم ، إنه جواد كريم بر رحيم .

(٢٦) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(٢٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله هذه الآية ، فالبعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا أخذهم الله عند ذلك . فالله سبحانه لا يستنكف ، ولا يخشى أن يضرب مثلاً بأي شيء كان : صغيراً كان أو كبيراً . و﴿ ما ﴾ ههنا للتقليل . ﴿ فما فوقها ﴾ في الصغر والحقارة ، أو في الكبر . ﴿ يضل به كثيراً ﴾ من المنافقين . ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ من المؤمنين . ﴿ إلا الفاسقين ﴾ هم أهل النفاق والكفر . والفاسق هو الخارج عن الطاعة ، تقول العرب : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، والفاسق يشمل الكافر والعاصي ، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش .

والعهد : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به . وقوله تعالى : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقرابات ،

وقيل : المراد أعم من ذلك ، فكل ما أمر الله بوصله وفعله ، فقطعوه وتركوه .
و ﴿ الخاسرون ﴾ هم الناقصون أنفسهم حظوظهم-بمعصيتهم الله-من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته .

(٢٨) ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف تجحدون وجود الله أو تعبدون غيره معه وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، ثم يبعثكم يوم القيامة ؟ .

(٢٩) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الاستواء هنا مضمن معنى القصد والإقبال . ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي علمه محيط بجميع ما خلق .

(٣٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا إخبار من الله بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم .
﴿ خليفة ﴾ قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل . ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ليس هذا السؤال على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، فهم يقولون : يا ربنا ، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ، ولا يصدر منا شيء من الفساد في الأرض وسفك الدماء ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهاد ، والأولياء والأبرار ، والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله عليهم .

(٣١) ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له . فعلمه اسم كل شيء ، وجعل يسمي كل شيء باسمه ، وعرضت عليه أمة أمة . . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه . كان الذي أبدوه هو قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم : « لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم » .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ، امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم . وهل إبليس من الملائكة أو من الجن ؟ رأيان ، لكل أدلته . وهل كان هذا السجود سجود تحية وسلام وإكرام لآدم ، أم كان السجود لله ، وآدم قبلة فيه ، رأيان ، والأول أولىٰ .

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿٣٦﴾ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

أباح الله الجنة لآدم يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً . وقد اختلف في الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها ، هل هي الكرمة أو الحنطة ، أو النخلة ، أو التينة ، والصواب أنها شجرة بعينها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، إذ لا دليل من القرآن ولا من السنة على تعيينها . ﴿ مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي قرار وأرزاق وآجال إلى وقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة .

﴿٣٧﴾ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قيل : إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وقيل : غير ذلك . ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ إنه يتوب على من تاب إليه وأناب .

(٣٨) ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

الهدى : الأنبياء والرسل ، والبينات والبيان ، أو هو محمد ﷺ ، أو القرآن ، وهذان القولان صحيحان ، والأول أعم . ﴿ فمن تبع هداي ﴾ فمن أقبل على ما أُنزلت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا .

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أي مخلدون فيها ، لا محيد لهم عنها ولا محيص . وفي الحديث : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة »

(٤٠) ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

يقول الله آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام . ومهيجاً لهم بذكر أبيهم اسرائيل ، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم . واسرائيل : هو يعقوب . ونعمة الله التي أنعم بها عليهم أن فجر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون ، وجعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب . وعهدُ الله الذي يجب عليهم الوفاء به تصديق النبي محمد ﷺ واتباعه فيما جاء به ، والعهد الذي أخذ سبحانه على نفسه أن يفي به هو وضع ما كان عليهم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقهم بذنوبهم ، أو هو رضاه عنهم ، وإدخالهم الجنة . ﴿ فارهبون ﴾ فاخشون .

(٤١) ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول الله : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، لأنهم يجدون محمداً مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . ﴿ ولا تكونوا أول كافر به﴾ أول فريق كافر به ، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، والدنيا بحذافيرها ثمن قليل .

(٤٢) ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

نهاهم سبحانه عن الشيئين معاً : تلبيس الحق بالباطل ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به ، قال قتادة : ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله .

(٤٣) ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

أمر أهل الكتاب أن يصلوا ، وأن يؤتوا الزكاة إلى النبي ﷺ ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ، ويقول : كونوا معهم ومنهم . والزكاة فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة .

(٤٤) ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ـ وأنتم تأمرون الناس بالبر ، وهو جماع الخير ـ أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنتبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم .

(٤٥) ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ، والصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله ، وقيل : الصبر الصوم ، وفي الحديث : « الصوم نصف الصبر » ، والصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر . وعن حذيفة « كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى » . ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ وإن الصلاة لثقيلة ﴿ إلا على الخاشعين ﴾ الخائفين ، أو الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده .

(٤٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

هذا من تمام الكلام الذي قبله ، أي أن الصلاة لثقيلة إلا على الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأن أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله .

(٤٧) ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكرهم الله تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ وتفضيلهم هو بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالماً .

(٤٨) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة ، فإنه لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال سبحانه : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ولا يقبل فيه شفاعة من الكافرين ، كما قال سبحانه ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ولا يؤخذ من نفس فيه فداء ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ولا أحد يغضب للكافرين فينصرهم ، وينقذهم من عذاب الله ، كما قال تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ .

(٤٩) ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

﴿يسومونكم﴾ : يولونكم ، أو يديمون عذابكم . ﴿وفرعون﴾ علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم ، والبلاء هنا النعمة ، قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

(٥٠) ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

بعد أن خلصناكم من آل فرعون ، وخرجتم مع موسى خرج فرعون في طلبكم ، ففرقنا

بكم البحر وخلصناكم منهم ، وحجزنا بينكم وبينهم ، وأغرقناهم ، وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم ، وأبلغ في إهانة عدوكم .

(٥١) ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

(٥٢) ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(٥٣) ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي فيكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، ونعمتي عليكم إذ آتيت موسى التوراة ، والفرقان ، وهو ما يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلالة ، لعلكم تهتدون ، وكان ذلك بعد خروجهم من البحر .

(٥٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل . ﴿ إلى بارئكم ﴾ إلى خالقكم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وتوبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل ، فغفر الله للقاتل والمقتول .

(٥٥) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم، ولأمثالكم. ﴿جهرة﴾: علانية. عن الربيع: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا. ، أو الصاعقة: ضجة من السماء ، أو نار . ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ صُعِق بعضهم ، وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء ، وصُعق هؤلاء ، ثم بعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم بعد أن بكى موسى ، ودعا الله وقال: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟ ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ وقيل : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون

العجل : فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا ، فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ، قال : فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم من بعد موتهم ، فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا : لا ، فقال : أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أننا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب الله ، قالوا : لا ، فبعث الله ملائكة ، ففتتت الجبل فوقهم .

(٥٧) ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر الله ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم بما أسبغ عليهم من النعم . ﴿ الغمام ﴾ جمع غمامة سمي بذلك لأنه يغم السماء ، أي يواريها ويسترها ، وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس . والظاهر أن ﴿ المن ﴾ كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد . وقيل : كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا . ﴿ والسلوى ﴾ طائر يشبه السماني . ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان . ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات .

(٥٨) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(٥٩) ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم .

وأصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، وقيل : هي أريحاء . ﴿ سجداً ﴾ أي ركعاً . ﴿ حطة ﴾ مغفرة ، استغفروا . فدخلوا يزحفون على أستاههم ، فبدلوا وقالوا : حبة في شعرة . ﴿ رجزاً ﴾ عن ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب .

(٦٠) ﴿ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عيناً ، لكل سبط من أسباطكم عين ، قد عرفوها ، فكلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ، ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . ﴿ الحجر ﴾ هو حجر بعينه كان يحمله موسى ، فتكون اللام للعهد ، وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال : وهذا أظهر في المعجزة ، وأبين في القدرة ، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ، ثم يضربه فييبس .

(٦١) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً ، واذكروا ضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم ، قال الحسن البصري : فبطروا ذلك ، فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وثوم . ﴿ على طعام واحد ﴾ إنما سمي واحداً وهم يأكلون المن والسلوى ، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم ، فهو مأكل واحد . ﴿ وفومها ﴾ هوالثوم ، أو هو الحنطة . ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً ، أي لا يزالون مستذلين ، من

وجدهم استذلهم ، وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون . ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ وجعلوا متصرفين متحملين غضب الله . والعصيان : فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه ، والمأمور به .

(٦٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

لما بين الله تعالى حال من خالف أوامره ، وارتكب زواجره ، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه . واليهود من الهوادة وهي المودة ، أو التهود ، وهي التوبة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ، فكأنهم سموا بذلك لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض . ﴿ والنصارى ﴾ سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم أنصاراً أيضاً كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة : نصرانة. ﴿ والصابئين ﴾ هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ، ليس لهم دين ، أو هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ، أو هم يعبدون الملائكة . ولما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب على الناس جميعاً تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

(٦٣) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول الله تعالى مذكرا بني إسرائيل ماأخذه عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله ، وأخبر أنه لما أخذ الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ، ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال . ﴿ الطور ﴾ هو الجبل ، كما فسره به في الأعراف : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي خذوا التوراة واعملوا بما فيها . وقوله تعالى ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به .

(٦٤) ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي بتوبته عليكم ، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

٦٥ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد علمتم ﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناس في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء ، وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم .

٦٦ ﴿ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى : فجعلنا العقوبة التي حلت بهذه القرية وأهلها عبرة لما حولها من القرىٰ ليعتبر من في زمانهم ، ولتكون موعظة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة . وفي الحديث : (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) .

٦٧ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

يقول الله تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها ؟ وإحياء المقتول ، ونصه على من قتله منهم .

٦٨ ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو ذبحوا أي بقرة لوقعت الموقع عنهم ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . ﴿ ما هي ﴾ أي ما هذه البقرة ، وما هي صفتها ؟ ﴿ لا فارض ولا بكر ﴾ أي لا كبيرة

هرمة ، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل . ﴿ عوان بين ذلك ﴾ يقول : نصف بين الكبيرة والصغيرة ، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر ، وأحسن ما تكون .

(٦٩) ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴾

﴿ فاقع لونها ﴾ قيل : تكاد تسوّد من صفرتها ، وقيل : صافية اللون ، وقيل : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تعجب الناظرين .

(٧٠) ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أي تشابه البقر علينا لكثرته ، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا . وفي الحديث : (لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿ إن شاء الله لمهتدون ﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا) .

(٧١) ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

أي إنها ليست مذللة بالحراثة ، ولا معدة للسقي في الساقية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها .

(٧٢) ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ فادارأتم فيها ﴾ قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال آخرون : بل أنتم قتلتموه . ﴿ ما كنتم تكتمون ﴾ ما كنتم تغيبون .

(٧٣) ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ببعضها ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، ولم يجىء من طريق صحيح عن معصوم بيان هذا البعض فنحن نبهمه كما أبهمه الله ، ولو كان في تعيينه لنا فائدة ، تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى ، ولكنه أبهمه .

(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ

مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله وإحيائه الموتى ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال سبحانه : ﴿ تسبح له السموٰات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وخلاصة قصة القتيل والبقرة أنه كان رجل من بني إسرائيل عقيماً ، لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم حمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي ؛ علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله نبيكم ، فأتوا موسى فذكروا له ذلك ، فأمروا أن يذبحوا بقرة ، ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها . فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدها ذهباً ، فذبحوها فضربوه ببعضها ، فقام فقالوا : من قتلك ، فقال : هذا ـ لابن أخيه ـ ، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً .

﴿٧٥﴾ ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفتطعمون ﴾ أيها المؤمنون أن ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ، وتأولوا كلام الله على تأويله من بعد ما فهموه على الجلية ، ومع ذلك يخالفونه على بصيرة ، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

﴿٧٦﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا ﴾ : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم ، وأنتم تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه أخذله الميثاق عليكم باتباعه ، وأنه النبي الذي كنتم تنتظرون ، وتجدون في كتابكم .

٧٧ ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ ، وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

٧٨ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

يقول تعالى : ومن أهل الكتاب من لا يحسنون الكتابة ، فلا يدرون من التوراة إلا ظنوناً ليست في كتاب الله ، أو إلا أماني يتمنونها ، فهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً .

﴿ أميون ﴾ جمع أمي ، وهو من لا يحسن الكتابة .

٧٩ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

هؤلاء صنف آخر من اليهود ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فقد حرفوا التوراة وزادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ، ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة . والويل : جبل من النار .

٨٠ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبار عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بأنه إن وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكنه لم يكن عهد ، واليهود يتقولون على الله الكذب والافتراء . ﴿ إلا أياماً معدودة ﴾ إلا أربعين ليلة ، وهي مدة عبادتهم العجل .

﴿٨١﴾ ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿٨٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالىٰ : ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار . والذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة . وفي الحديث : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » .

﴿٨٣﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يُذكر تباركَ وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله ، وأعرضوا قصداً وعمداً ، وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقهم ، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالىٰ أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالىٰ : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي « قال بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال : يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أباك » ثم أدناك ، ثم أدناك » ﴿ واليتامى ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء ﴿ والمساكين ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ أي كلموهم طيباً ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، ثم أكد الأمر بعبادته والاحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج ، وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحروب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ، ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، والميثاق الذي أخذ الله عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به .

﴿٨٥﴾ ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون في حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم . وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفائها ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم ، وحرم علينا قتالهم ، قالوا فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى . فقال تعالى :

﴿٨٦﴾ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

أولئك الذين استحبوا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة ، فلا يُفَتَّر عنهم العذاب ساعة واحدة وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ، ولا يجيرهم منه أحد .

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ، وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها ، وخالفوا أوامرها وبدلوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات - وهي المعجزات - من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿ ولأُحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقاً يكذبونه ، وفريقاً يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم ، وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم ، فكذبوهم ، وربما قتلوا بعضهم . وإنما قال سبحانه : ﴿ وفريقاً تقتلون ﴾ ولم يقل : وفريقاً قتلتم ، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً ، لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر ، وقد قال عليه السلام في مرض موته : « ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان انقطاع أبهري » .

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قلوبنا غلف ﴾ أي في أكنة ، فلا تفقه ولا تعي ، أو قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك . ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ فقليل من يؤمن منهم ، أو فقليل إيمانهم . وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : قلما رأيت مثل هذا قط » وقال الكسائي : تقول العرب : « من زنى بأرض قلما تنبت » أي لا تنبت شيئاً .

(٨٩) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى : ولما جاء اليهود كتاب من عند الله ـ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ـ مصدق للتوراة التي معهم ، وكانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش كفروا به . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن مرور ، وداود بن مسلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ، ونحن أهل الشرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . ﴿ على الكافرين ﴾ هم اليهود .

(٩٠) ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يقول : بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته . وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ ولا حسد أعظم من هذا ، فاستوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . قال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن . ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد . ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالاهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . وفي الحديث عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم ، يقال له : « بولس » تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

(٩١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ

وصدقوه واتبعوه ، قالوا : يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والانجيل ، ولا نقر إلا بذلك ، ويكفرون بما بعده وهو الحق مصدقاً لما معهم ، وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق مصدقاً لما معهم من التوراة والانجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك ، فإن كنتم صادقين يا معشر يهود في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها ، وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ، قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله ، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي .

﴿ * وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ ٩٢

ولقد جاءكم موسى بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، ثم اتخذتم العجل معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل ، كما قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدا له خوار ﴾ ولقد كنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله . والآيات البينات : هي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وتظليلهم بالغمام ، والمن والسلوى ، والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها . ﴿ من بعده ﴾ من بعد ما ذهب إلى الطور .

٩٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه ، وأشربوا حب العجل حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وفي الحديث : « حبك الشيء يعمي ويصم» قل : بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ ، وهذا أكبر ذنوبكم ، وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل ، وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله .

(٩٤) ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أي أُدعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ .

(٩٥) ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولو تمنوه يوم قال لهم ما بقي على الأرض يهودي إلا مات ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » .

(٩٦) ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

ولتجدنهم أحرص الناس على طول العمر لمايعلمون من مآلهم السيء ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة ، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم ، فلو استطاع أحدهم أن يعيش في الدنيا ألف عام لفعل حتى يبعد عنه عذاب الله ، ولكن عذاب الله واقع به ، ولن ينجيه من العذاب أن يعيش أمداً طويلاً . والمشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، واليهودي لو عرف ما له في الآخرة من الخزي ما ضيع ما عنده من العلم .

(٩٧) ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم . وتفسير الآية أن من عادىٰ جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين ، الذي نزل بالذكر الحكيم ، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ، وفي الحديث « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه . وقوله تعالى ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب

المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوبهم ، وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين .

(٩٨) ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول الله تعالىٰ : من عاداني وملائكتي ورسلي وجبريل وميكائيل ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ وفي الحديث « من عادى ولياً لله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة » . وفي الحديث الآخر « إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث في الحرب » وفي الحديث الصحيح « من كنت خصمه خصمته » . ورسل الله تشمل رسله من الملائكة والبشر ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ .

(٩٩) ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هي ما طواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، وكان من فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق ما جاء به محمد ﷺ لأنه يخبرهم بما في أيديهم على وجهه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك قالوا له حسداً وغياً : ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية مبينة فنتبعك ، وذلك ولا شك خروج عن دواعي الفطرة الصحيحة ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ .

(١٠٠) ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ نبذه فريق منهم ﴾ أي نقضه . فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم بالتمسك بها ، والقيام بحقها .

(١٠١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ أي تركوها فإنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله وسحروه ، فأطلع الله نبيه على ذلك وشفاه منه .

﴿١٠٢﴾ ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين في ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان ، اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين ، وما هم بضارين به من أحد إلا بقضاء الله ، فمن شاء الله سلطهم عليه ، ومن لم يشأ لم يسلطهم عليه ، ويتعلمون ما يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره ، ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله في الآخرة من نصيب ، ولبئس البديل ما استبدلوا من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ لو كان لهم علم بما وعظوا به .

﴿١٠٣﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

ولو أنهم آمنوا بالله ورسله ، واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ، ورضوا به ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ .

تنبيه : تفصيل قصة هاروت وماروت راجع إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالىٰ ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(١٠٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص ـ عليهم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا يقولوا : راعنا ، ويورون بالرعونة . والغرض أن الله تعالىٰ نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً .

(١٠٥) ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

يبين الله تعالىٰ شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبه تعالىٰ على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ حيث يقول : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

(١٠٦) ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن نحول الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون منها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرىٰ إلى غيرها ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ، ونقل عبارة إلى غيرها ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل ، وعكسه ، والنسخ لا إلى بدل .

(١٠٧) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، يسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالنسخ لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره ، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا ، وفي هذا المقام رد عظيم ، وبيان بليغ لكفر اليهود ، وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً .

﴿١٠٨﴾ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها ، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً ، ومن يشتر الكفر بالإيمان فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال ، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر . في الصحيحين « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » وفي صحيح مسلم « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» وفي الصحيحين « كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم

وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو ، أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح .

(١١٠) ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ويحثهم تعالىٰ علىٰ الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن الله لهم النصر في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فهم مهما فعلوا من خير أو شر سراً وعلانية فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلها ، وهذا الكلام ، وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا في طاعته ، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، وليحذروا معصيته .

(١١١) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ فأكذبهم الله تعالىٰ بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنة ، ويرد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال ﴿ تلك أمانيهم ﴾ أي أمانيّ تمنوها على الله بغير حق ﴿ قل هاتوا ﴾ حجتكم على ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدعونه .

(١١٢) ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي من أخلص دينه لله ، واتبع فيه الرسول ﷺ فإن الله ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور ، وآمنهم مما يخافون من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه . وللعمل المتقبل شرطان : أحدهما أن يكون خالصاً

لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول عليه الصلاة والسلام ، المبعوث إليهم ، وإلى الناس كافة ، وفيهم وفي أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ وقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ وقال : ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ﴾ وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤ ون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ وكما قال في هذه الآية : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ .

﴿١١٣﴾ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

بين الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاندهم وتعاديهم ، وأن كل طائفة تكفر الأخرى وهم يعلمون أن كلاً من شريعة التوراة والانجيل كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ، ومقابلة الفاسد للفاسد ، والذين لا يعلمون من اليهود والنصارى قالوا مثل قولهم ، والذين لا يعلمون من العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، فالله يجمع بينهم يوم المعاد ، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

﴿١١٤﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قيل : هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وقيل : هم المشركون وهو الظاهر فقد حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم ﴿ وسعى في

خرابها﴾ إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة. أقول: ولا مانع من أن تبقى الآية على عمومها فتشمل من فعل ذلك إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده. ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. والجزاءُ من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله، وكذلك الذين خربوا بيت المقدس فإنهم بعد الإسلام صاروا يدخلون بيت المقدس خائفين بأداء الجزية.

(١١٥) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم، ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه، فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ فأنزل الله ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ وقال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره، وفي حال المسابقة، وشدة الخوف، عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية.

(١١٦) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

(١١٧) ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية والتي تليها على الرد على النصارىٰ عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم، وفي قولهم: إن لله ولداً، فقال تعالىٰ: ﴿سبحانه﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بل له ما في السموٰات والأرض﴾ أي ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموٰات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك

له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالىٰ : ﴿ بديع السموٰات والأرض . . . ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق .
﴿ قانتون ﴾ مصلون ، ومطيعون .

١١٨ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله ، فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يكلمنا الله ﴾ يخاطبنا بنبوتك .
﴿ قال الذين من قبلهم ﴾ هم اليهود والنصارى . والذين طلبوا من رسول الله ﷺ ذلك هم كفار العرب ، لقوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

١١٩ ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ بشيراً ﴾ بالجنة . ﴿ ونذيراً ﴾ من النار . ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي لا نسألك عن كفر من كفر بك .

١٢٠ ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وليست اليهود يا محمد ولا النصارىٰ براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، وقل لهم : إن هدى الله الذي بعثني به هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ، ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم . . . ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك ، فإن الخطاب للرسول والأمر لأمته .

١٢١ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

هم اليهود والنصارى ، أو هم أصحاب رسول الله ﷺ ، قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده ، إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله . ﴿ ومن يكفر به . . ﴾ في الصحيح « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ! يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا من دخل النار » .

﴿١٢٢﴾ ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة «الآية ٤٧،٤٨» وكررت ها هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته ونعته واسمه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولايحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته . صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

﴿١٢٤﴾ ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿ فأتمهن ﴾ أي قام بهن كلهن ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ وقيل في تعيين « الكلمات » التي ابتلي بها إبراهيم إنها المناسك ، وقيل : إنها قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، وقيل : الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في « براءة » ﴿ التائبون العابدون . . ﴾ إلى آخر الآية ، وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ وعشر آيات في الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن فكتبت له براءة . وابتلاه بذبح ولده وبالنار ، وبالكوكب والشمس والقمر فوجده صابراً . ﴿ قال ومن ذريتي . . ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك ،

وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم .

(١٢٥) ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

يذكر الله تعالى شرف البيت ، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه ﴿ مثابة للناس ﴾ أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح ، وتحن إليه ، ولا تقضي فيه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ ويصفه تعالىٰ بأنه جعله أمناً ، من دخله أمن ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . ومقام إبراهيم هو الحرم كله ، أو هو الحج كله ، أو هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم ، ويناوله إسماعيل الحجارة ، وفي الحديث « لما طاف النبي ﷺ قال له عمر : هذا مقام أبينا ؟ قال : نعم ، قال : أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقد أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت من الأذى والنجس ومن الأوثان والرفث وقول الزور والرجس ﴿ والعاكفين ﴾ المقيمين فيه .

(١٢٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

عن أبي هريرة قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : « اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ، ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد صح فيعطيه ذلك الثمر . ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً . . . ﴾ ومن كفر فأرزقه رزقاً قليلاً أيضاً ، ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير ، فالله سبحانه ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(١٢٧) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ القواعد ﴾ جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس . يقول تعالىٰ : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا . . ﴾ .

(١٢٨) ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

فهما في عمل صالح ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما ، إذ يشفقان أن لا يتقبل منهما ، كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلص في قوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أنْ لا يتقبل منهم . في الحديث « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحِجْر » ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أخرجها لنا ، وعلمناها ، قال مجاهد : فأتاه جبريل ، فأتى به البيت ، فقال : ارفع القواعد فرفع القواعد ، وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا ، قال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به إلى المروة فقال : وهذا من شعائر الله ، ثم انطلق به نحو منى » . فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال : كبر وارمه فكبر ورماه ، ثم انطلق إبليس فقام عند الحجرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه فكبر ورماه ، فذهب الخبيث إبليس ، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام ، فقال : هذا المشعر الحرام ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات ، قال : قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال : نعم .

(١٢٩) ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أي من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن . وفي الحديث « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجبل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى لي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين »

﴿ الكتاب ﴾ القرآن . ﴿ والحكمة ﴾ يعني السنة . ﴿ ويزكيهم ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص . ﴿ العزيز ﴾ هو الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء . ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

(١٣٠) ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يقول تبارك وتعالىٰ رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم إمام الحنفاء ، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالىٰ فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾ ﴿ سفه نفسه ﴾ ظلمها بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأي سفه أعظم من هذا ؟ .

(١٣١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً .

(١٣٢) ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي وصى بهذه الملة ، وهي الإسلام لله ، أوصى بهذه الكلمة ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها ، فقد حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ وقوله ﴿ يا بني إن الله اصطفى . . ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه .

(١٣٣) ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

يقول الله تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة

وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له . وإسماعيل لم يكن أباه ، بل كان عمه ، فهو من باب التغليب قال النحاس : والعرب تسمي العم أباً . ﴿ إلَهاً واحداً ﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره . ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم ، واختلفت مناهجهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الانبياء أولاد علات ، ديننا واحد » .

﴿١٣٤﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قد خلت ﴾ قد مضت . ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي أن السالفين الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم . وفي الحديث : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

﴿١٣٥﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارىٰ مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي مستقيماً خالصاً .

﴿١٣٦﴾ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ ﴿ الأسباط ﴾ حفدة يعقوب : ذراري أبنائه الاثني عشر ، أو الأسباط قبائل بني إسرائيل . عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » .

١٣٧ ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالىٰ : فإن آمنوا ، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وإن تولوا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أي فسينصرك الله عليهم ويظفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ .

١٣٨ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

﴿ صبغة الله ﴾ فطرة الله ، أي الزموا ذلك ، وعليكموه ، وقد ورد في حديث عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال : « إن بني إسرائيل قالوا : يا رسول الله ، هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله ، فناداه ربه ، يا موسى ، سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل : نعم ، أنا أصبغ الألوان : الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي » وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .

١٣٩ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي أتناظروننا في توحيد الله والاخلاص له والانقياد واتباع أوامره ، وترك زواجره ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لاخلاص الآلهية له وحده ، لا شريك له ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم ، ومما تعبدون ، وأنتم برآء منا كما قال في الآية الأخرى ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي في العبادة والتوجه إليه .

١٤٠ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

ثم أنكر تعالىٰ عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على

ملتهم : إما اليهودية وإما النصرانية فقال : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ يعني بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارىٰ كما قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرؤ ون في كتاب الله الذي أتاهم : إن الدين الإسلام ، وإن محمداً رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك وقوله تعالى ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي إن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه .

(١٤١) ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قد خلت ﴾ قد مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم . ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وليس يغني عنكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله ، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بخاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

(١٤٢) ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ السفهاء ﴾ قيل : المراد بهم هنا مشركو العرب ، وقيل : أحبار يهود ، وقيل : المنافقون ، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، والله أعلم . في الحديث : « صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كماهم قبل البيت ، وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم إن الله بالناس لرؤ وف رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب . . ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، أي الشأن كله في امتثال

أوامره فحيثما توجهنا فالطاعة في امتثال أوامره ، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده .

(١٤٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

الوسط : العدل . ﴿ لتكونوا شهداء . . . ﴾ في الحديث « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون: نعم ، فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاء نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا » .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي . . ﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أي يرتد عن دينه ، ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ ، أي هذه الفعلة ، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء ، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا .
وقوله تعالىٰ : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي ثواب صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك .

(١٤٤) ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

عن ابن عباس ، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ـ وكان أكثر أهلها اليهود ـ فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود

فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله هذه الآية : ﴿شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة . وأحد قولي الشافعي أن الغرض إصابة عين الكعبة ، والقول الآخر وعليه الأكثرون أن المراد المواجهة ، وفي الحديث « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ، وفي الحديث أيضاً « البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي». وقوله ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب . . . ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم الله تعالى بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

(١٤٥) ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر الله تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقوله ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته ، واتباع مرضاته وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطباً للرسول ، والمراد به الأمة ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد . . ﴾ .

(١٤٦) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أن علماء اليهود من أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل بصحة الشيء بهذا ، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والاتقان العلمي ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم

من صفة النبي ﷺ ﴿ وهم يعلمون ﴾ .

(١٤٧) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ، ولا شك فقال : ﴿ الحق من ربك . . ﴾ .

(١٤٨) ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول : لكل قبيلة من أهل الأديان قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ وقال ههنا : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(١٤٩) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(١٥٠) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

هذا أمر ثان وثالث من الله تعالىٰ باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام ، وقيل : بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان . وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق ، فأجابه أولاً إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها ، وفي الأمر الثاني ذكر أنه الحق من الله ، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه ، وذكر في الأمر

الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة ، وأعجبهم استقبال الرسول إليها . وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ أي أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس . ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعني مشركي قريش . ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه .﴿ولأتم نعمتي عليكم ﴾ فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها . ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم حيث هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

(١٥١) ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾

يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة ، وهي السنة . ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه ، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره كما جاء في الآية التالية .

(١٥٢) ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

يقول : كما فعلت فاذكروني ، وفي الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » . ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير .

(١٥٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ « كان إذا حز به أمر صلى » والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم ، والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود ، وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب . قال علي بن الحسين زين العابدين : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون إلى أين يا بني آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة ، فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله ، حتى توفانا الله ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

١٥٤ ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم « أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا ، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جل وعلا : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

١٥٥ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده ، أي يختبرهم ويمتحنهم ، فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ﴿ ونقص من الأموال ﴾ أي ذهاب بعضها . ﴿ والأنفس ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب . ﴿ والثمرات ﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها ، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ، . ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ . وقد حكى بعض المفسرين أن

المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، وبالأنفس الأمراض ، وبالثمرات الأولاد ، وفي هذا نظر ، والله أعلم .

(١٥٦) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾

أي تسلوا يقول لهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله ، يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة .

(١٥٧) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾

﴿ عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ أي ثناء من الله عليهم . ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « نعم العدلان ، ونعمت العلاوة » فالعدلان صلوات من ربهم ، ورحمة ، والعلاوة هدايتهم ، والعلاوة هي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم ، وزيدوا أيضاً .

(١٥٨) ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

عن عروة عن عائشة قال : قالت : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة . . ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا رسول الله عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله هذه الآية .

(١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدي النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله .
﴿ اللاعنون ﴾ الملائكة والمؤمنون .

(١٦٠) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه . لا خلاف في جواز لعن الكفار ، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندري بم يختم الله له . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف .

(١٦١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

أخبر الله تعالىٰ عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنه ﴿ عليه لعنة الله والملائكة . والناس أجمعين ﴾ .

(١٦٢) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ، ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم ، فنعوذ بالله من ذلك . قال أبو العالية وقتادة : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون .

(١٦٣) ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالىٰ عن تفرده بالالٓهية ، وأنه لا شريك له ، ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لا إلٓه إلا هو ، وأنه الرحمٰن الرحيم .

(١٦٤) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ذكر سبحانه الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السمٰوات والأرض وما فيهما ، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال : ﴿ إن في خلق السمٰوات

والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها ، وكواكبها السيارة ، والثوابت ، ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ ، هذا يجيء ثم يذهب ، ويخلفه الآخر ، ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . . ﴾ . ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزق ، لا يخفى عليه شيء من ذلك . ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب ، وهي الشامية أو تارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبوراً ، وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة . ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى .

١٦٥ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾

يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إلٰه إلا هو ، ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شريك معه . ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولحبهم له وتمام معرفتهم به لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتكلون عليه ، ويلجأوون في جميع أمورهم إليه . ﴿ ولو يرى الذين ظلموا . . ﴾ هذا توعد من الله للمشركين به الظالمين لأنفسهم .

١٦٦ ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾

تبرأت منهم الملائكة والجن الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم ، في دار الدنيا ، ﴿ ورأوا

العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله ، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ومصرفاً ، أو ﴿ الأسباب ﴾ هي المودة .

١٦٧ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

أي لو أن لنا عودة إلى دار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم ، بل نوحد الله وحده بالعبادة ، وهم كاذبون في هذا ، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . ﴿ حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ .

١٦٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إلّه إلا هو ، وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله ﴿ طيباً ﴾ أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ، ولا للعقول ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة لهم في جاهليتهم . وقوله تعالى ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تنفير عنه ، وتحذير منه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ وكما قال تعالىٰ ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وكل معصية لله فهي من خطوات الشيطان .

١٦٩ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر ، وكل مبتدع أيضاً .

١٧٠ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ،

واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك : ﴿ بل نتبع ما ألفينا ﴾ أي وجدنا ﴿ عليه آباءنا ﴾ أي من عبادة الأصنام والأنداد ، قال تعالىٰ منكراً عليهم : ﴿ أولو كان آباؤهم ﴾ الذين يقتدون بهم ، ويقتفون أثرهم ﴿ لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية .

(١٧١) ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها ، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ، ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط وقوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه . ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه كما قال تعالىٰ : ﴿ والذين كفروا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ .

(١٧٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده. والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث « أيها الناس، إن الله لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك.

(١٧٣) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تزكية، وسواء كانت مختنقة أو

موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ وقوله ﷺ في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وقوله: «أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، وحرم عليهم ما أهل به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ أي في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فلا إثم عليه﴾ أي في أكل ذلك ﴿إن الله غفور رحيم﴾ غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذا أحل له الحرام في الاضطرار. يقول عباد بن شرحبيل العنزي: أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذا كان جائعا، ولا ساعيا، ولا علمته إذا كان جاهلا» فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر به بوسق من طعام، أو نصف وسق.

(١٧٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، و هو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق النزر اليسير فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة. ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة (ولا يكلمهم الله...﴾ أي لا يثني عليهم ولايحاجهم، بل يعذبهم عذابا اليما.

(١٧٥) ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾

أي اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه،

والبشارة به من كتب الأنبياء، واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به، وكتمان صفاته في كتبهم (والعذاب بالمغفرة﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب . ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار .

(١٧٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

أي انما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله أنزل على رسوله محمد وكل الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق، وابطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول خاتم النبيين .

(١٧٧) ﴿ * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة، فعن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الايمان ؟ فتلا عليه هذه الآية، قال: ثم سأله أيضا فتلاها عليه، ثم سأله فقال: « إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك» .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى، والايمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه .

﴿ولكن البر من آمن. . .﴾ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الاسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الايمان بالله وأن لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله. ﴿ والكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن. ﴿ وآتى المال على حبه﴾ أي

أخرجه وهو محب له راغب فيه، وفي الحديث «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر» ﴿ذوي القربى﴾ وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطي من الصدقات كما ثبت في الحديث «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وببرك وعطائك». ﴿واليتامى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وفي الحديث: «لا يتم بعد حلم» ﴿والمساكين﴾ هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفي الحديث «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه» ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المحتاج الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرا في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف. ﴿والسائلين﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد، وفي الحديث «للسائل حق ولو جاء على فرس» ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابهم. ﴿وأقام الصلاة﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. ﴿وآتى الزكاة﴾ يحتمل زكاة النفس وتخليصها من الاخلاق الدنيئة كقوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ويحتمل زكاة المال. ﴿في البأساء﴾ في حال الفقر. ﴿والضراء﴾ في حال المرض والاسقام ﴿وحين البأس﴾ في حال القتال والتقاء الاعداء. ﴿صدقوا﴾ في ايمانهم، لأنهم حققوا الايمان القلبي بالأقوال والأفعال. ﴿هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

(١٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

يقول تعالى: ﴿كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون﴾: حرُّكم بحرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا أو تعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله. ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد. ﴿فاتباع

بالمعروف﴾ فعلى الطالب اتباع بالمعروف. ﴿ وأداء اليه بإحسان﴾ ويؤدي المطلوب بإحسان .

(١٧٩) ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وفي الكتب المتقدمة: « القتل أنقى للقتل » فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿ يا أولي الألباب لعلكم تعقلون﴾ يقول: يا أولي العقول والافهام والنهي لعلكم تنزجرون وتتركوا محارم الله ومآثمه. والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

(١٨٠) ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآية على الامر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبا على اصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضةمن الله، يأخذها أهلوها حتما من غير وصية، ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث « إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». ﴿إن ترك خيرا﴾ أي مالا. ﴿ بالمعروف﴾ أي بالرفق والاحسان، والمراد أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعدا قال: يا رسول الله، إن لي مالا، ولا يرثني إلا ابنة لي، فأوصي بثلثي مالي؟ قال: « لا » قال فالشطر ؟ قال: « لا » قال: فالثلث ؟ قال: « الثلث والثلث كثير، إنك إن تترك ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» .

(١٨١) ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الاثم بالذين بدلوا. ﴿ إن الله سميع عليم﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم .

(١٨٢) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ جنفاً ﴾ الجنف الخطأ، وقد يكون الخطأ من غير عمد، بل بقوة الشفقة من غير تبصر، وقد يكون عمدا ففيه الاثم، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، وفي الحديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى جاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ الآية .

١٨٣ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول الله تعالى مخاطبا للمؤمنين من هذه الأمة، وآمرا لهم بالصيام، وهو الامساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الاخلاط الرديئة والاخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض اكثر مما فعل أولئك .

١٨٤ ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين سبحانه مقدار الصوم، و أنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات، قال الحسن البصري: والله لقد كتب الصيام عل كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا، وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر. وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصياح فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الاطعام إن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الاطعام .

١٨٥ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ثم أنزل الله عز وجل: ﴿ شهر رمضان الذي . . ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الاطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام.

يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور بأنه اختاره من بينهن لانزال القرآن العظيم، فقد نزل جملة واحدة الى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ثم نزل مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ ﴿ هدى للناس. . ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه. ﴿ وبينات﴾ أي ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها. ﴿ يريد الله بكم اليسر. . . ﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم. ﴿ ولتكملوا العدة﴾ وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم. ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم. ﴿ ولعلكم تشكرون﴾ إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال أعرابي: يا رسول الله ﷺ، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، أي إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت. عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياًإلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب الى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الحديث: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم، يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» وفي الحديث «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي».

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى

ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾

هذه رخصة من الله للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الاسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا الجماع. ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا. قال الشاعر :

إذا ما الضجيع ثنى جيدها ... تداعت فكانت عليه لباسا

﴿ تختانون أنفسكم﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء. ﴿ باشروهن﴾ يعني جامعوهن. ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يعني الولد. ﴿ وكلوا واشربوا حتى . .﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿ من الفجر﴾. وفي اباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور، لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، وفي الحديث «تسحروا فإن في السحور بركة» ﴿ ولا تباشروهن وأنتم . .﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجدولا في غيره. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، فقد ثبت أنه ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده ﴿ لعلهم يتقون﴾ أي يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون.

﴿١٨٨﴾ ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

نزلت في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، ويخاصم الى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم، آكل للحرام . وفي الحديث « إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له،

فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها» فدلت هذه الآية، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره. وقوله تعالى: ﴿وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم.

(١٨٩) ﴿* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

سأل الناس رسول الله عن الأهلة فنزلت هذه الآية يعلمون بها حل دينهم، وعدة نسائهم ووقت حجهم، وجعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وفي الحديث «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين يوماً». وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها..﴾ كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، وكانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه، وكانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان إذا خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك. وكان أقوام في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فنزلت ﴿وليس البر بأن..﴾ وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي اتقوا الله وافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

قال بعضهم: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزل ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، فنسختها، وفي هذا نظر، لأن قوله ﴿الذين يقاتلونكم﴾ إنما هو تهيج

وإغراء بالاعداء الذين همتهم قتال الاسلام وأهله، أي كما يقاتلوكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾. وقوله تعالى ﴿ ولا تعتدوا . . ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل فيه ارتكاب المناهي من المثلة والفلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة. وفي الحديث « اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع .

١٩١ ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

أي لتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً. . وقوله: ﴿ والفتنة أشد من القتل﴾ يقول: الشرك أشد من القتل . وقوله : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أي إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه ، فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل .

١٩٢ ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه .

١٩٣ ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ فتنة ﴾ أي شرك . وقوله : ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان . وقوله : ﴿ فإن انتهوا . . ﴾ فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين . عن نافع عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا ، وأنت ابن عمر ، وصاحب النبي ﷺ . فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ، قالا : ألم يقل الله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ ؟ فقال : قاتلنا

حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين لله ! وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، وحتى يكون الدين لغير الله .

١٩٤ ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم فنزلت هذه الآية ، فلم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى ، ولهذا لما بلغه وهو مخيم في الحديبية أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك ، وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، فكان ما كان . وقوله ﴿ واتقوا الله . . ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

١٩٥ ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

قال أبو عمران : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ، ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة في الاقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذي والنسائي . ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ، ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالاحسان ، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ .

١٩٦ ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

لما ذكر الله أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ، ولهذا قال بعده : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ، ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم : سواء قيل : بوجوب العمرة أو باستحبابها ، كما هما قولان للعلماء ، وقيل : إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، وقيل : أن تفرد كل واحد منهما من الآخر ، وأن تعتمر في غير أشهر الحج . ﴿ فإن أحصرتم ﴾ فإن حيل بينكم وبين الوصول إلى البيت وهل يختص الإحصار بالعدو ، أو هو أعم من أن يكون بعدوٍ أو مرض ، أو ضلال ، وهو التوهان عن الطريق ، أو نحو ذلك . قولان في ذلك . ﴿فما استيسر من الهدى ﴾ من الإبل والبقر والغنم . ﴿ حتى يبلغ الهدي محله ﴾ هذا في حال الأمن ، فإنه لا يحلق حتى يصل إلى الحرم ، أما في حال الإحصار فيحلق حيث أحصر ، لأن النبي وأصحابه لما أحصروا عام الحديبية حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم . ﴿فمن كان منكم مريضاً . . . . ﴾ يقول كعب بن عجرة : حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال : « ما كنت أرى الجهد يبلغ منك هذا ، أما تجد شاة » قلت : لا ، قال : « صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك » فنزلت فيّ خاصة ، وهي لكم عامة . ﴿ فإذا أمنتم . . ﴾ أي فإذا تمكنتم فيه من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولاً ، فلما فرغ منها أمر بالحج فليذبح ما قدر عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر . ﴿ فمن لم يجد فصيام . . ﴾ أي في أيام المناسك ، والأفضل قبل يوم عرفة في العشرة ، وسبعة إذا رجع إلى رحله ، أو إلى وطنه . ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ قيل : تأكيد مثل ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله : ﴿ ذلك لمن لم يكن . . ﴾ هم أهل الحزم أو هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت ، أو

هم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ، لأن من كان كذلك كان حاضراً لا مسافراً .

﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم ونهاكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أي لمن خالف أمره ، وارتكب ما عنه زجر .

﴿١٩٧﴾ ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

القول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به ، وهل يعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه ، وفي الحديث « لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج » ، وهو حجة للشافعي رحمه الله . ﴿ أشهر معلومات ﴾ شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أي أوجب بإحرامه حجاً ، وفيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضي فيه . ﴿ فلا رفث ﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، كما قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ ، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذلك التكلم به بحضرة النساء . ﴿ ولا فسوق ﴾ هو ما أصيب من معاصي الله صيداً أو غيره ، أو هو السباب ، وقد يتمسك لهذا بما ثبت في الصحيح : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه ، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح ، أو أن المراد بالجدال المخاصمة ، وفي الحديث « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً حثهم على فعل الجميل ، وأخبرهم أنه عالم به ، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة .

﴿ وتزودوا ﴾ كان ناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحجّ ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها .

﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ يقول : واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ، ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام .

﴿١٩٨﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ

ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت ، أي في موسم الحج . وعرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج، وفي الحديث: «الحج عرفات ـ ثلاثاً ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ، وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه » ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر . ﴿ فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ هي جمع الصلاتين جميعاً ، والمشعر الحرام : المزدلفة كلها ، وفي الحديث « كل عرفات موقف ، وارفعوا عن عرفات ، وكل مزدلفة موقف ، وارفعوا عن بطن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح» والوقوف بمزدلفة واجب، وهو أحد قولي الشافعي ، يجبر بدم ، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر . ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والارشاد إلى مشاعر الحج . ﴿ من قبله ﴾ من قبل هذا الهدى ، وقبل القرآن والرسول .

(١٩٩) ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

عن عائشة كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها . ﴿ واستغفروا الله . . ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً .

(٢٠٠) ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها . ﴿ كذكركم آباءكم ﴾ اختلفوا في معناه فقيل: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء المناسك، وقيل: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل فيهم: كان أبي يطعم ، ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله هذه الآية ، والمقصود منه الحث على كثرة ذكر الله عز وجل . ﴿ من خلاق ﴾ أي من نصيب ولا حظ ، وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن كان كذلك ، فقد كان قوم من

الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً .

(٢٠١) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار مرحبة ، وزوجة حسنة ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل إلى غير ذلك ، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام .

(٢٠٢) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفيجزي ذلك ؟ فقال : أنت من الذين قال الله ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا .. ﴾ .

(٢٠٣) ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

الأيام المعدودات أيام التشريق ، أربعة أيام ، يوم النحر وثلاثة بعده ، والأيام المعلومات أيام العشر . والمراد التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر الله أكبر ، وفي الحديث « يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام ، وهي أيام أكل وشرب » . ويتعلق بقوله ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ ذكر الله على الأضاحي . ومذهب الشافعي وهو الراجح أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ، ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات ، والمطلق في سائر الأحوال .

(٢٠٤) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾

نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، وأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك ، وقيل : نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين

قتلوا بالرجيع ، وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين ، ومدح خبيب وأصحابه ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ ، وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم . وفي بعض الكتب « أن عباداً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترؤن بالدنيا بالدين ، قال تعالى : عليَّ تجترئون ، وبي تغترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران » .

﴿ ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالىٰ ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ . الألد في اللغة الأعوج ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ أي عوجاً ، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ، ولا يستقيم معه ، بل يفتري ويفجر ، كما في الصحيحين « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وفي الحديث أيضاً « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » .

(٢٠٥) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾

أي هو أعوج المقال ، سيء الفعال ، فذلك قوله ، وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعي هنا هو القصد كقوله تعالىٰ ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار » فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض ، وإهلاك الحرث ، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل ، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ، ولا من يصدر منه ذلك .

(٢٠٦) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله ، قيل له : اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبىٰ وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام . ﴿ فحسبه جهنم .. ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك .

(٢٠٧) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة، نزلت في صهيب الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله فتخلص منهم

وأعطاهم ماله ، فتلقاه: عمر بن الخطاب وجماعة إلى أطراف الحرة ، فقالوا : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية . والأكثرون حملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله .

(٢٠٨) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

يقول الله تعالى آمراً المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . ﴿ في السلم ﴾ يعني الإسلام ، أو الطاعة ، أو الموادعة ، أو بجميع الأعمال ووجوه البر ، والمعنى ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ، ولا تدعوا منها شيئاً ، أو ادخلوا في الإسلام كلكم . ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ اعملوا بالطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ، فهو ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ولهذا قال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ قال مطرف : « أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان » .

(٢٠٩) ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أي فإن عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز في انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

(٢١٠) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولهذا قال : ﴿ وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كما قال تعالى ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ وفي الحديث : « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ، ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي » .

(٢١١) ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بينة ، أي حجة قاطعة

بصدقه فيما جاءهم به ، كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المن والسلوىٰ وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق علي يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

٢١٢ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم ، وسخروا من الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد ، والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ، ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ وفي الحديث الصحيح « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

٢١٣ ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . ﴿ من بعدما جاءتهم البينات ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض . ﴿فهدى الله الذين

آمنوا . . ﴾ في الحديث « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ـ الجمعة ـ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فقداً لليهود ، وبعد غد للنصارىٰ » . ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم ، وبما هداهم له . وفي الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي ، يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السمٰوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » وفي الدعاء المأثور « اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً » .

﴿٢١٤﴾ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا ، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ، أصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب ، ﴿ وزلزلوا ﴾ أي خوفوا من الأعداء زلزالاً شديداً ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعوا الله لنا ؟ فقال : « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه ، لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه » ثم قال : « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون » .

وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقد حصل من هذا شيء عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب ، كما قال تعالى : ﴿ إذ جاؤ وكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ . ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي سنتهم .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢١٥)

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع ، وقال السدي : نسختها الزكاة ، وفيه نظر . ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ فبين الله لهم أن ينفقوا في هذه الوجوه ، كما جاء في الحديث « أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك » . وتلا ميمون هذه الآية ، ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر طبلاً ولا مزماراً ، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء ، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢١٦)

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد ، غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه قعد ، ولهذا ثبت في الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية » . وقال عليه السلام يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » . ﴿ وهو كره لكم ﴾ أي شديد عليكم ، ومشقة ، وهو كذلك ، فإنه إما أن يقتل ، أو يجرح مع مشقة السفر ، ومجالدة الأعداء . ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً . . ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر ، والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم . ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً . . ﴾ وهذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له ، وانقادوا لأمره ، لعلكم ترشدون .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ (٢١٧)

ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿

بعث رسول الله ﷺ رهطاً عليهم عبدالله بن جحش ، وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : « لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان ، وبقي بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ، أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام . . . ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أكبر عند الله ﴾ من قتل من قتلتم منهم . ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل . ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم . . ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين .

٢١٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

كانوا رضي الله عنهم يطمعون أن تكون لهم غزوة يعطون فيها أجر المجاهدين فأنزل الله هذه الآية فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

٢١٩ ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية التي في البقرة ، فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون . . ﴾ فكان منادي رسول الله إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت

الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرأت عليه ، فلما بلغ ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قال عمر : انتهينا . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كل ما خامر العقل فهو خمر ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدنيوية من حيث أن فيها نفع البدن ، وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيذ بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة التي فيها ، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يفحشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ولهذا كانت الآية ممهدة لتحريم الخمر على الثبات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة . ﴿ قل العفو ﴾ يعني الفضل ، أو ما ينضل عن أهلك . عن أبي هريرة قال : قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر، قال: « أنفقه على أهلك » ، قال : عندي آخر ، قال : « أنفقه على ولدك » قال : عندي آخر ، قال فأنت أبصر . وفي الحديث : « خير الصدقة ما كان على ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » . ﴿ كذلك يبين الله . . ﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعيده لعلكم تتفكرون .

٢٢٠ ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قرأ الحسن هذه الآية من البقرة ﴿ لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ فقال : هي والله لمن تفكر فيها ، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ، ثم دار فناء ، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء . ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل . . ﴾ لما نزلت ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى . . ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم » قالت عائشة : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخلط طعامي بطعامه ، وشرابه بشرابي » . فقوله : ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أي على حدة . ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم ،

وشرابكم بشرابهم فلابأس عليكم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، ولهذا قال : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي يعلم من قصده الإفساد ، أو الإصلاح . وقوله ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم . . ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ، ولكنه وسع عليكم ، وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر ، أو مجاناً .

(٢٢١) ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مراداً فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ﴾ وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية . ﴿ ولأمة مؤمنة خير . . ﴾ نزلت في عبدالله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء ، فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله فأخبره خبرهما ، فقال لـه « ما هي ؟ » قال : تصوم وتصلي ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال : « يا أبا عبدالله هذه مؤمنة » فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمته ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، ويُنكحوهم رغبة في أحسابهم . وفي الحديث « لا تنكحوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تنكحوهن على أموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، وانكحوهن على الدين ، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل » . وفي الحديث : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة - ﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه .

(٢٢٢) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ـ أي لم يجتمعوا بها في بيت واحد ـ فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية ، ثم قال : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، فقالا يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما» . وللعلماء قولان فيما يحل للرجل من زوجته الحائض ، فقول له منها كل شيء إلا الوطء ، وقول له منها ما فوق الازار . ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن ﴾ فيه ندب إلى غشيانهن بعد الاغتسال ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ يعني في الفرج ، ولا تعدوه إلى غيره ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى ، وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر . ﴿ التوابين ﴾ من الذنب وإن تكرر غشيانه . ﴿ المتطهرين ﴾ أي المنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من اتيان الحائض ، أو غير المأتي .

(٢٢٣) ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال ابن عباس : الحرث موضع الولد . ﴿ أنى شئتم ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في في صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث ، عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت . وفي الحديث « حرثك ، ائت حرثك أنى شئت » وفي حديث آخر : « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج » والأحاديث كثيرة في النهي عن تجاوز موضع الحرث منها « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ويقول : ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به ، والناكح يده ، وناكح البهيمة ، وناكح المرأة في دبرها ، وجامع بين المرأة وابنتها ، والزاني بحليلة جاره ، ومؤذي جاره حتى يلعنه » ومنها « نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحيي من الحق » ومنها « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » ، ومنها « ملعون من أتى امرأته في دبرها » ومنها « استحيوا من الله حق الحياء ، لا تأتوا النساء في أدبارهن » ومنها « من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر » وسأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها ، فقال : سفلت سفل الله بك ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . وقوله : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أي من فعل

الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، وفي الحديث « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً » .

(٢٢٤) ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، كقوله تعالى ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ فالاستمرار على اليمين إثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ، وفي الحديث « ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذي هو خير ، فإن تركها كفارتها » .

(٢٢٥) ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد . وفي الحديث « اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله ، وبلى والله » .

(٢٢٦) ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

الايلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر ، أو أكثر منها ، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر ، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة ، فإن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق ، فيجبره الحاكم على هذا لئلا يضر بها .

(٢٢٧) ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد أربعة أشهر . وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة .

(٢٢٨) ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله سبحانه للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ثم تتزوج إن شاءت . والمراد بالأقراء الأطهار ، أو الحيض ، فلا تنقضي المدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة . ﴿ ما خلق الله في أرحامهن ﴾ من حبل ، أو حيض . في قوله ﴿ إن كن يؤمن . . ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق ، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك . ﴿ وبعولتهن أحق . . ﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير ، وهذا في الرجعيات فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن ، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن .

وقوله : ﴿ولهن مثل الذي . . ﴾ أي ولهن ما على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف . ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أي في الفضيلة في الخَلْق والخُلُق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة . ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه ، وخالف أمره ، حكيم في أمره وشرعه وقدره .

(٢٢٩) ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فإذا طلق الرجل زوجته واحدة أو اثنتين فهو مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين

أن يردها إليه ناوياً الاصلاح بها ، والاحسان إليها ، وبين أن يتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منه ، ويطلق سراحها محسناً إليها ، لا يظلمها من حقها شيئاً ، ولا يضاربها . وقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن . . ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس فقد قال فعالى ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ، ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فإن رسول الله ﷺ قال : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وقالت طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذٍ قبول الفدية ، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرىٰ وهذا قول جميع أصحابه قاطبة . كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وكان رجلاً دميماً ، فقالت يا رسول الله ، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم ، فردت عليه حديقته ، قال : ففرق بينهما رسول الله ﷺ . وقد اختلف العلماء في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها ، فذهب الجمهور إلى ذلك لعموم قوله تعالى ﴿ فلا جناح عليهما في ما افتدت به ﴾ وقوله ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها . . ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها ، وفي الحديث « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم محارم فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

٢٣٠ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

أي إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو تزوجت ، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت : إن رفاعة طلقني البتة ، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني ،

وإنما عنده مثل الهدية ، وأخذت هدية من جلبابها ، فما زاد رسول الله عن التبسم ، فقال رسول الله ﷺ « كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ، لا حتى تذوقي عُسيلته ، ويذوق عُسيلتك » . والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزوج ، فقد قال رسول الله « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له »

(٢٣١) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فأما أن يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله باللتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح . ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ كان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال : ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى . ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوجتك ابنتي ، ثم يقول : كنت لاعباً ، ويقول : قد أعتقت ، ويقول : كنت لاعباً ، فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعتاق والنكاح » . ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم . ﴿والحكمة﴾ أي السنة . ﴿يعظكم به﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم . ﴿واتقوا الله ﴾ أي فيما تأتون وتذرون . ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي فلا يخفي عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك .

(٢٣٢) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم

بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها ، وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها ، عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع بن لكع، أكرمتك بها، وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليها أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله هذه الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي ، وفي الحديث « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها » وقوله ﴿ ذلك يوعظ به . . ﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ويتعظ به ويفعل له ﴿ من كان منكم ﴾ أيها الناس ﴿ يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي يؤمن بشرع الله ، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة ، وما فيها من الجزاء . ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى وأطهر لقلوبكم . ﴿ والله يعلم ﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه . ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا تذرون .

(٢٣٣) ﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان ، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك . ولهذا قال : ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ وذهب أكثر الأئمة

إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون حولين ، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرِّم ، وفي الحديث « لا يحرِّم من الرضاع إلا ما كان في الحولين » . وقوله ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره . وقوله ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، ولهذا قال ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ وقوله ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ قيل في عدم الضرار لقريبه، وقيل : عليه مثل على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور . وقوله ﴿ فإن أراد ا فصالاً عن تراض . . ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما في ذلك ، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر . وقوله ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا . . ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد ، إما لعذر منها ، أو لعذر له فلا جناح عليهما في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف . وقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

٢٣٤ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن ، وغير المدخول بهن بالاجماع ، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وهذا الحديث أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً في ذلك ، فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ لها صداق مثلها ، لا وكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى

به في بروع بنت واشق ، ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً ، ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ وقوله ﴿ فإذا بلغن أجلهن . . ﴾ يستفاد من هذا وجوب الاحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ، وفي الحديث « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » والاحداد عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، وليس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك ، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً ، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً ، وهل يجب في عدة البائن ؟ فيه قولان . ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي انقضت عدتهن . ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي على أوليائها . ﴿ فيما فعلن ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن أن يتزين ويتصنعن ، ويتعرضن للتزويج ، فذلك المعروف ، أو هو النكاح الحلال الطيب .

٢٣٥ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا جناح عليكم ﴾ أن تعرِّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح كأن يقول : إني أريد التزوج وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة ، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة ، يجوز التعريض لها . وقوله ﴿ أو أكننتم في أنفسكم ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، ولهذا قال ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ أي في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ أي لا تقل لها إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ، أو هو أن يتزوجها في العدة سراً ، فإذا حلت أظهر ذلك . ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ كقوله لوليها : لا تسبقني بها ، أي لا تزوجها حتى تعلمني . ﴿ ولا تعزموا عقدة . . ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة ، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز العقد في مدة العدة ، فلو تزوجها في العدة ودخل بها ، فإنه يفرق بينهما . ﴿ واعلموا أن الله يعلم . . ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ، ولم يقنطهم من عائدته فقال : ﴿ واعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿٢٣٦﴾ ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان في هذا انكسار لقلبها ، ولهذا أمر الله بامتاعها ، وهو تعويضهاعمافاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، وعن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ، ودون ذلك الورِق ، ودون ذلك الكسوة . وهل تجب المتـعة لكل مطلقة لعموم ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أو أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ أو أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ؟ على أقوال ـ ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ، ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقاً .

﴿٢٣٧﴾ ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولىٰ ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الرجل قبل الدخول ، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها ، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم . وتشطير المهر والحالة هذه مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ، ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق ، إلا أنه عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، وإن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون ، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال في رجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ، ثم يطلقها ليس لها إلا نصف الصداق ، لهذه الآية ، قال الشافعي : بهذا أقول ، وهو ظاهر الكتاب . وقوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها

عليه شيء . وقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده . . ﴾ هو الزوج لما روي عن النبي ﷺ : « ولي عقدة النكاح الزوج » وهو الجديد من مذهب الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وقيل : هو أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه ، وهو مذهب مالك ، وقول الشافعي في القديم . وقوله ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ خوطب به الرجال والنساء ، فأقربهما للتقوى الذي يعفو ، فالفضل ها هنا أن تعفو المرأة عن شطرها ، أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي الإحسان ، يعني لا تهملوه ، بل استعملوه بينكم ، وفي الحديث « ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعض المؤمن على ما في يديه ، وينسى الفضل » ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم ، وسيجزي كل عامل بعمله .

٢٣٨ ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها ، وفي الحديث عن ابن مسعود « سألت رسول الله ﷺ ، أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » . قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ، ولو استزدته لزادني . والصلاة الوسطى ، هي الفجر ، أو الظهر ، أو العصر ، أو المغرب ، أو العشاء ، أو الصلوات الخمس أقوال ، أقواها فيما يبدو العصر . ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام بين يديه لمنافاته إياه « إن في الصلاة لشغلاً » .

٢٣٩ ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾

لما أمر الله عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها ، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال ، والتحام الحرب ، فقال : ﴿ فإن خفتم . . ﴾ أي فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها . ﴿ فإذا أمنتم . . ﴾ أي أقيموا الصلاة كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها . ﴿ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

٢٤٠ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة فنسختها آية المواريث ، وكان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله فنسختها الآية الأخرى ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها .

(٢٤١) ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وقد استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها .

(٢٤٢) ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه ، وفسره ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه . ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمون وتتدبرون .

(٢٤٣) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، قالوا : نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا ، قال الله لهم : ﴿ موتوا ﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء ، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا. .﴾ وكان في إحيائهم دليل قاطع وعبرة على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة. ولهذا قال ﴿إن الله لذو فضل على الناس ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدافعة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد . ومن هذا القبيل الحديث الصحيح « إذا كان ـ الوباء ـ بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

(٢٤٤) ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

كما أن الحذر لا يغني من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ، ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

(٢٤٥) ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

يحث تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله ، وقد كرر الله هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع . ولما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه ، وعيالها ، فجاء أبوالدحداح فناداها ، يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضه ربي عز وجل. وقوله ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويوسعه على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

(٢٤٦) ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

هذا النبي هو شمويل فقد كان بنو إسرائيل من بعد موسى على طريق الاستقامة مدة من الزمن ، ثم أحدثوا الأحداث ، وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ـ ولم يكن أحد يقابلهم إلا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك هو موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى

الكليم فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوى الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت ، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم فوهبها الله غلاماً فسمته شمويل ، أو شمعون فشب ذاك الغلام ونشأ في بني إسرائيل ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك قد باد فيهم أيضاً ، فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل . . ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد ، قال تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال . . ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤٧)

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم طالوت ، وكان رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك ، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء ، وقيل : دباغاً ، وهذا اعتراض على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ، ثم قد أجابهم نبيهم قائلاً : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ أي اختاره من بينكم ، والله أعلم به منكم ، يقول : لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك . ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها ،أي أتم علماً ، وقامة منكم ، ومن ها هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، ثم قال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ لعلمه وحكمته ورأفته

بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي هو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

٢٤٨ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ فيه وقار ورحمة ، وما تعرفون من آيات الله فستكون إليه . وقوله ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هرُون ﴾ يعني عصا موسى وهرون ، وثياب موسى وثياب هرُون ، ورضاض الألواح . وقوله ﴿ تحمله الملائكة ﴾ جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، فآمنوا بنبوة شمعون ، وأطاعوا طالوت . وقوله ﴿ إن في ذلك لآية لكم ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بالله واليوم الآخر .

٢٤٩ ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، فقال : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر ﴾ أي مختبركم بنهر ، وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿ ومن لم يطعمه . . . ﴾ أي فلا بأس عليه ، قال تعالى : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يرو . قال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً ، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، وتبقى معه أربعة آلاف ، لكن روي عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه

النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فلما جاوزه هو . . ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ،ليس عن كثرة عدد ، ولا عُدد ، ولهذا قالوا : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . . ﴾ .

(٢٥٠) ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

أي لما واجه حزب الايمان ـ وهم قليل من أصحاب طالوت ـ لعدوهم جالوت ـ وهم عدد كثير ـ ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك . ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

(٢٥١) ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم . ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده ، رماه فأصابه فقتله ، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى به ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ الذي كان بيد طالوت . ﴿ والحكمة ﴾ أي النبوة بعد شمويل. ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله له من العلم الذي اختصه به. ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله . . ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود لهلكوا . وفي حديث إسناده ضعيف الإسناد عن ابن عمر « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر ﴿ ولولا دفع الله الناس . . ﴾ وفي حديث غريب ضعيف أيضاً عن جابر « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده ، وأهل دويرته ، ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم » وقد ورد عن ثوبان رفع الحديث قال : « لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون ، وبهم تمطرون ، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله » . وورد حديث آخر عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ :« الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم ترزقون،وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون » قال قتادة : إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم .

(٢٥٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل . ﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لمن المرسلين ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

(٢٥٣) ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال سبحانه ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾ ﴿ منهم من كلم الله ﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ ، وكذلك آدم عليه السلام كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه . ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ كما ثبت في حديث الاسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي ، فقال : أي خبيث ، وعلى محمد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ فاشتكى على المسلم فقال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أو جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء » وفي رواية « لا تفضلوا بين الأنبياء » فالجواب من وجوه : أحدها أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، وفي هذا نظر . الثاني أن هذا قاله من قبل الهضم والتواضع ، الثالث أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر ، الرابع لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية ، الخامس ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله عز وجل ، وعليكم الانقياد والتسليم له والايمان به . ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد

الله ورسوله إليهم . وروح القدس جبريل عليه السلام ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل . . ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره .

٢٥٤ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

يأمر الله تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ، ومليكهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال لو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً ، ولا تنفعه خلة أحد ، يعني صداقته ، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ ﴿ولا شفاعة﴾،أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين . وقوله : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ مبتدأ محصور في خبره ، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً . وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

٢٥٥ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله ، عن أُبَيٍّ ، هو ابن كعب أن النبي ﷺ سأله « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي قال : « ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » . وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ، فقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق . ﴿ الحي القيوم ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره . ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، فلا تغلبهُ سنة، وهو الوسْ والنعاس ﴿ولا نوم﴾، وهو

أقوى من السنة . وفي الصحيح عن أبي موسى قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور ، أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . ﴿ له ما في السمٰوات وما في الأرض ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه . ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة « آتي تحت العرش فأخر ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تسمع واشفع تشفع قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » . وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها . ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه . ﴿ وسع كرسيه السمٰوات والأرض ﴾ عن ابن عباس قال : علمه . ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السمٰوات والأرض ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

٢٥٦ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً . ﴿ فمن يكفر بالطاغوت . . ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد ثبت في

أمره ، واستقام على الطريقة المثلىٰ والصراط المستقيم . وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، فهي في نفسها ، محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوي شديد . والعروة الوثقى : الإيمان ، أو الإسلام .

(٢٥٧) ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يخبر الله تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل النير ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، يزين لم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك . ووحد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة . ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

(٢٥٨) ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل ، نمرود بن كنعان . قال مجاهد : وملك الدنيا : مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران نمرود وبختنصر . والله أعلم . ﴿ ألم تر ﴾ أي بقلبك يا محمد . ﴿ إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي في وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إلَه غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ ما علمت لكم من إلَه غيري ﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته في الملك وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، قال النمرود : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ ادعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ،

وأوهم أنه هو الذي يحيي ويميت إذ قال : إني أوتىٰ بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فرد إبراهيم هذه المكابرة بقوله : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس . . ﴾ أي إذا كنت تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلٰهاً كما ادعيْت تحيي وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما عُلم عجزه وانقطاعه ، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

٢٥٩ ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

اختلفوا في هذا المار من هو؟ فقيل : هو عزير ، وهذا القول هو المشهور ، وقيل : هو أرميا بن حلقيا ، وقيل : هو اسم الخضر عليه السلام ، وقيل : حزقيل . وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها . ﴿ وهي خاوية ﴾ أي ليس فيها أحد ، من قولهم : خوت الدار تخوي خوياً . وقوله : ﴿ على عروشها ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال ﴿ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود لما كانت عليه . قال تعالى : ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ وعمرت البلدة بعد سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه ، كيف يحيي بدنه ، فلما استقل سوياً ﴿ قال ﴾ الله له أي بواسطة الملك ﴿ كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ﴾ وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ﴿ قال بل لبثت . . ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شيء ، لا العصير استمال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب نقص ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ أي كيف يحييه الله عز

وجل وأنت تنظر ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ أي نحييها ، ﴿ ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك .

(٢٦٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه لما قال لنمرود ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى . . ﴾ وقوله : ﴿ فصرهن إليك ﴾ أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً ، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ، ونتف ريشهن ، ومزقهن ، وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاء ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رؤوسهن بيده ، ثم أمره الله أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ، ولهذا قال : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، وما شاء كان بلا مانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . قال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك ؟ فقال عبدالله بن عمرو : قول الله : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . ﴾ فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف . . ﴾ فرضي من إبراهيم قوله : ﴿بلى﴾ قال : فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان . وفي الحديث : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ والمعنى إذا لم أشك أنا في قدرة الله على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك : على سبيل التواضع ، والهضم من النفس .

(٢٦١) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله ، وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » . ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله . ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير ، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ، ومن لا يستحق ، سبحانه وبحمده .

(٢٦٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يمدح سبحانه وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه ، فلا يمنون به على أحد ، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل . وقوله ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان . ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال الإحسان . ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال القيامة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

(٢٦٣) ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾

﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم . ﴿ ومغفرة ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي . ﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف ، ألم تسمع قول الله : ﴿ قول معروف ومغفرة . . ﴾ . ﴿ والله غني ﴾ عن خلقه . ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم . وفي الحديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

(٢٦٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ، والمعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليشكر بين الناس ، أو يقال : إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، وجزيل ثوابه ، ولهذا قال : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ضرب الله تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه فقال : ﴿ فمثله كمثل صفوان ﴾ وهو جمع صفوانة ، فمنهم من يقول : الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً ، وهو الصفا ، وهو الصخر الأملس . ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد . ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يقدرون على شيء . . ﴾ .

(٢٦٥) ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . وقوله : ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ أي كمثل بستان بربوة ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض . وقوله : ﴿ أصابها وابل ﴾ وهو المطر الشديد . ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرتها . ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان . ﴿ فإن لم يصبها وابل فطلٌّ ﴾ هو الرذاذ ، وهو اللين من المطر ، أي هذه جنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً ، لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمنين لا يبور أبداً ، بل يتقبله الله ،

ويكثره ، وينميه ، كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

٢٦٦ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ فأصابها إعصار ﴾ هو الريح الشديد . ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها ، وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ؟. عن ابن عباس قال : ضرب الله مثلاً حسناً ، وكل أمثاله حسن قال : ﴿ أيود أحدكم . . . ﴾ يقول : ضيعة في شيبته ﴿ وأصابه الكبر ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه ، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون عليه ، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده ، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبر سنه وضعف ذريته . روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني ، وانقضاء عمري » . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون له وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

٢٦٧ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

يأمر الله عباده بالصدقة من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها ، من الذهب والفضة ، والثمار والزروع ، قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه ، وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . ولهذا قال : ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث . ﴿ منه تنفقون ولستم بآخذيه . . ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتقاضوا فيه ، فإن الله أغنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهون ، أو معناه لا تعدلوا عن المال الحلال ، وتقصدوا إلى

الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . وفي الحديث « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غشه وظلمه » ولا يكسب عبد مالاً من حرام ، فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » . والآية نزلت في الأنصار ، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها ـ بساتينها ـ البسر ، فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الخشف فيدخله في أقفار البسر يظن أن ذلك جائز ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ وقوله : ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها ، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير ، كقوله : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء ، كريم جواد ، وسيجزيه بها ، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، من يقرض غير عديم ولا ظلوم ؟ وهو الحميد ، أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

٢٦٨ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

في الحديث « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ هذه الآية . وقوله : ﴿ يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله . ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الاملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق . ﴿ والله يعدكم مغفرة منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء . ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر .

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ الحكمة ﴾ القرآن والسنة والتفسير والعلم والفقه وخشية الله ، فإن خشية الله رأس كل حكمة ورأس الحكمة مخافة الله . وفي الحديث « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكة في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » .

٢٧٠ ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

يخبر الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ، ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته ، بل خالف أمره ، وكذب خبره ، وعبد معه غيره . ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

٢٧١ ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله : ﴿ فهو خير لكم ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية . وفي الحديث « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » . ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وسيجزيكم عليه .

٢٧٢ ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ وقوله ﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة . وقوله ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ يعني إذاً أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، أي إن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ، البر ، أو فاجر ، أو مستحق ،

أو غيره ؟ وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية ﴿ وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم . . ﴾ والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة : « قال : قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يـد زانية ، فأصبح الناس يتحدثون : تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن الزنا ، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته » .

٢٧٣ ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله ، وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردون على أنفسهم ما يغنيهم . ﴿ ضرباً في الأرض ﴾ يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش ، والضرب في الأرض هو السفر . وقوله ﴿ يحسبهم الجاهل . . ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم ، وفي الحديث : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » . وقوله ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أي بما ظهر لذوي الألباب من صفاتهم . ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي لا يلحون في المسألة ، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة . وقوله ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه .

٢٧٤ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء وجهه في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك وفي الحديث « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه

الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك » . وقوله ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق في الطاعات .

٢٧٥ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر الله الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا . . . ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً . وقوله ﴿ ذلك بأنهم قالوا . . ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . ﴿ فمن جاءه موعظة . . ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة . ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهيَ الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ، ولهذا قال : ﴿ فأولئك أصحاب النار . . ﴾ وفي الحديث « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه » .

٢٧٦ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا ، أي يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله ، فلا ينتفع به ، بل يعدمه في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . وفي الحديث : « إن الربا وإن كثر ، فإن عاقبته تصير إلى قل » . وقوله : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ أي ينميها ويكثرها ، وفي الحديث « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه ، حتى يكون مثل الجبل » وقوله ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ أي لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل .

٢٧٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يقول تعالى : مادحاً للمؤمنين بربهم ، والمطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا . . . ﴾ .

٢٧٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يأمر الله عباده المؤمنين بتقواه ، وينهاهم عما يقربهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه ، فيقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون . ﴿ وذروا مابقي من الربا ﴾أي اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع ، وتحريم الربا وغير ذلك . كان بين بني عمرو بن عمير من ثقيف ، وبني المغيرة من بني مخزوم ربا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم ، فتشاوروا ، وقالت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ، فكتب رسول الله ﷺ إليه ، بهذه الآية والتي بعدها : ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . . ﴾ .

٢٧٩ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا ، فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الانذار . عن ابن عباس قال : « يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ، ثم قرأ ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب . . ﴾ وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : « فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع ، وإلا ضرب عنقه » . وقوله ﴿ لا تظلمون ﴾ أي بأخذ الزيادة . ﴿ ولا تُظلمون ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً ، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ، لا نقص منه .

٢٨٠ ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿ وإن كان ذو عسرة . . ﴾ لا كما قال أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين، إما أن تقضي وإما أن

تربي . ثم يندب تعالى إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وأن تصدقوا خير لكم . . ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية ، وتضعوه عن المدين . وفي الحديث : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر ، أو ليضع عنه » وعن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل ، فقال : ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال له الرجل : ما عملت مثقال ذرة من خير ، فقال ثلاثاً ، وقال في الثالثة : إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا ، فكنت أبايع الناس ، فكنت أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر ، فقال تبارك وتعالى : « نحن أولى بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي ، فغفر له »

(٢٨١) ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون . . ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن كله ، يقولون : إن النبي عاش بعدها تسع ليال ، وبدىء يوم السبت ، ومات يوم الاثنين ﷺ .

(٢٨٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذه الآية أطول آية في القرآن العظيم . وقد أرشد الله فيها عباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد

فيها . عن ابن عباس قال : « قدم النبي ﷺ المدينة ، وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » وقوله ﴿ فاكتبوه ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ . قال ابن جريج : من أدان فليكتب ، ومن ابتاع فليشهد ، قال كعب ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له ؟ قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب ، فلما حل ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه فلم يستجب له ، لأنه قد عصى ربه » وقيل : كانت كتابة الدين واجبة ثم نسخ ذلك بقوله ﴿ فإن أمن بعضكم . . ﴾ والدليل على ذلك أيضاً ما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بشهداء أشهدهم ، قال : كفى بالله شهيداً ، قال : ائتني بكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني استلفت فلاناً ألف دينار ، فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ،وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً ، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار ، وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت به ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بألفك راشداً » وهذا إسناد صحيح ، وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم . ﴿ بالعدل ﴾ بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . وقوله : ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة . وفي الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع

لأخرق » وفيه « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقوله : ﴿ وليملل الذي . . ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك . ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا يكتم منه شيئاً . ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه . ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي صغيراً أو مجنوناً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾إما لغي أو جهل بموضع صواب ذلك وخطأه ﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ .﴿واستشهدوا شهيدين . . ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة . ﴿ فإن لم يكونا رجلين ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال ، وما يقصد به المال . ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود . ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة ، ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية ﴿ ولا يأب الشهداء إذا مادعوا﴾للأداء ﴿ ولا تسأموا أن . . ﴾ هذا من تمام الإرشاد ، وهو الأمر بكتابة الحق ، صغيراً كان أو كبيراً . ﴿ ذلكم أقسط . . ﴾ أي أعدل وأثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة ﴿ وأدنى أن لا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه ، فيفصل بينكم بلا ريبة . وقوله ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة . . ﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر ، يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها . ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ أي أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فأشهدوا على حقكم . ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ قيل : معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد ، فيكتب هذا خلاف ما يملي ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع ، أو يكتمها بالكلية . وقيل : معناه لا يضر بهما ، فيأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارهما . ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به ، ، و فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه . ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه ، واتبعوا أمره واتركوا زجره . ﴿ ويعلمكم الله ﴾ هو كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها ، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

٢٨٣ ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ على سفر ﴾ أي مسافرين ، وتداينتم إلى أجل مسمى . ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ يكتب لكم ، أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة ، أو قلماً ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق ، وقد استدل به الشافعي والجمهور على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض . واستدل به آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، واستدل آخرون على أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسْقاً من شعير رهناً قوتاً لأهله . وقوله : ﴿ فإن أمن بعضكم . . ﴾ قال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا ، أو لا تشهدوا . وقوله ﴿ وليتق الله ربه ﴾ يعني المؤتمن . وفي الحديث « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » وقوله ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها ، عن ابن عباس : « شهادة الزور من أكبر الكبائر » وقوله : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ هو كقوله ﴿ ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ .

٢٨٤ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقال : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة وخافوا منها ومن محاسبة الله على جليل الأعمال وحقيرها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم جثوا على الركب ، وقالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما أقر بها القوم ، وذلت بها ألسنتهم أنزل في أثرها : ﴿ آمن الرسول . . . ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . ﴾ .

(٢٨٥) ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ آمن الرسول . . ﴾ قال النبي ﷺ : « حق له أن يؤمن » والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه ، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، المرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين . ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه . ﴿ غفرانك ربنا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف . قال جبريل : إن الله أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل .

(٢٨٦) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن
نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم . وقوله ﴿ لها ما كسبت ﴾ أي من خير . ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ أي من شر ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف . ﴿ ربنا لا تؤاخذنا . . ﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان ، أو فعلنا حراماً ، كذلك ، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي . ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً . . ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح ، وفي الحديث « بعثت بالحنيفية السمحة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، ولا تبتلنا بما لا قبل لنا به . ﴿ واعف عنا ﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا . ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على مساوينا ، وأعمالنا

القبيحة . ﴿ وارحمنا ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ، ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده ، فلا يفضحه به بينهم ، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره . ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت ولينا وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة . وفي الحديث : « كان إذا ختم البقرة قال : آمين » .

تفسير سُورَة آل عِمْران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

قد تقدم الكلام عن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته .

(٢) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾

وتقدم الكلام على قوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ في تفسير آية الكرسي .

(٣) ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، بشرت به في قديم الزمان ، وهو يصدق لأنه طابق ما أخبرت به ، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه . ﴿ وأنزل التوراة ﴾ أي على موسى بن عمران . ﴿ والإنجيل ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام .

(٤) ﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا القرآن . ﴿ هدى للناس ﴾ أي في زمانها . ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات ، والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات . ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ جحدوا بها وأنكروها ، وردوها بالباطل . ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ والله عزيز ﴾ أي منيع الجناب ، عظيم السلطان . ﴿ ذو انتقام ﴾ أي ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض ، لا يخفى عليه شيء .

(٦) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ هوالذي يصوركم . . ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد . ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو الذي خلق ، وهو المستحق للإلهية ، وحده لاشريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض ، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوره في الرحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ، عليهم لعائن الله ، وقد تقلب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلى حال ، كما قال تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ .

(٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، أي بينات واضحات الدلالات ، لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر ، فيها اشتباه في الدلالات على كثير من الناس ، أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه . ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد .

﴿ زيغ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل . ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم . ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الاضلال لاتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ قيل : الوقف على الجلالة ، أي وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون آمنا به . وقيل : الوقف على ﴿ الراسخون في العلم ﴾ أي والراسخون في العلم يعلمون تأويله، ويقولون: آمنا به. ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة . سئل رسول الله ﷺ عن الراسخين في العلم فقال : « من برت عيناه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم » .

(٨) ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

أي لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم . ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً . ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ في الحديث كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ثم قرأ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا . . . ﴾ .

(٩) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلاً بعمله ، وما كان عليه من خير وشر .

(١٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، كما قال تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب

الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه . ﴿ وقود النار ﴾ أي حطبها الذي تجربه ، وتوقد به ، كقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : « هل بلغت ؟ » يقولها ثلاثاً ، فقام عمر بن الخطاب ، وكان أواهاً فقال : اللهم ، نعم ، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر . فقال النبي ﷺ : « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرؤ ون القرآن ، فيقرؤ ونه ويعلمونه فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير » . قالوا : يا رسول الله ، فمن أولئك ؟ قال : « أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار » .

(١١) ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

كصنيع آل فرعون . والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كنهْر ونهَر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لا يزال هذا دأبي ودأبك . والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد . بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤ وا به من آيات الله وحججه . ﴿ والله شديد العقاب ﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد ، ولا يفوته شيء ، بل هو الفعال لما يريد ، الذي قد غلب كل شيء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(١٢) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد للكافرين : ستغلبون أي في الدنيا ، وتحشرون أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . لما أصاب رسول الله ﷺ من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع وقال : « يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً » فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك هذه الآية والتي بعدها .

(١٣) ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ

وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿

﴿ آية ﴾ أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ، ومعل أمره . ﴿ في فئتين ﴾ أي طائفتين . ﴿ التقتا ﴾ للقتال . ﴿ وأخرى كافرة ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر . ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم ، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم . أو يري الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفيهم في العدد ، ومع هذا نصرهم الله عليهم . ﴿ إن في ذلك . . ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده والمؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

﴿١٤﴾ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾

يخبر تعالى عما زيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ ، من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، وفي الحديث «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » فأما إذاكان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه ، وفي الحديث : « الدنيامتاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله » وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير أمة ﷺ فهذا محسود ممدوح ، وفي الحديث « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وحب المال كذلك تارة يكون للفخر ، والخيلاء والتكبر على الضعفاء والجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً . والقنطار هو المال الجزيل . وقد سئل النبي ﷺ عن قول الله تعالى ﴿ والقناطير المقنطرة ﴾ قال : « القنطار ألفا أوقية » . وحب الخيل على ثلاثة أقسام : فتارة من أجل الغزو عليها في سبيل الله ، فهؤلاء يثابون ، وتارة للفخر على أهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر ، وتارة للتعفف والنسل ، دون نسيان حق الله في رقابها فهذه ولصاحبها ستر. و ﴿المسوَّمة﴾: الراعية والمطهمة الحسان. ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم . ﴿ والحرث ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة . ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة . ﴿ حسن المآب ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

(١٥) ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

أي قل : يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً . ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس ، وغير ذلك مما يعتري النساء ﴿ ورضوان من الله ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ ورضوانٌ من الله أكبر ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم. ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء .

(١٦) ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمناً ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك . ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بإيماننا بك ، وبما شرعته لنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك .

(١٧) ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

﴿ الصابرين ﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات . ﴿ والصادقين ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة . ﴿ والقانتين ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿ والمنفقين ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقربات ، وسد الخلافات ، ومواساة ذوي الحاجات . ﴿والمستغفرين بالأسحار ﴾ وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر . وفي الحديث « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟.

(١٨) ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴾

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين وَأَعْـدَلَهُمْ وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو . . ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وهو الغني عما سواه ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته ، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿ قائماً بالقسط ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل ، كما قال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ﴿ وما اختلف الذين أوتوا . . . ﴾ أي يعني بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق . ﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ أي من يجحد بما أنزل الله في كتابه ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

(٢٠) ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ فإن حاجوك ﴾ جادلوك في التوحيد . ﴿ فقل أسلمت . . ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده ، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له . ﴿ ومن اتبعن ﴾ أي على ديني يقول كمقالتي كما قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله من الكتابيين من المليين والأميين من المشركين فقال : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي والله عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهوالذي يهدي من يشاء ،

ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الآيات على عموم بعثته صلوات الله عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به.إلا كان من أهل النار » رواه مسلم . وفي الحديث أيضاً « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وقال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » وروىٰ الإمام أحمد عن أنس أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : « يا فلان قل : « لا إلّه إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أخرجه لي من النار » رواه البخاري في الصحيح .

(٢١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(٢٢) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

هذا ذم من الله لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل ، استكباراً عليهم وعناداً لهم ، وتعاظماً على الحق ، واستنكافاً عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ، وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » . عن عبيدة بن الجراح قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله ﷺ (إن الذين يكفرون بآيات ويقتلون النبيين . . . ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل » . ﴿ بعذاب أليم ﴾ أي موجع مهين .

(٢٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم الذَيْنِ بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا غاية ما يكون من ذلهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد . ثم قال تعالى :

(٢٤) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ ذلك بأنهم قالوا لن . . ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً . ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم ، واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً . قال تعالى مهدداً لهم :

(٢٥) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه . . ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه .

(٢٦) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ اللهم مالك الملك ﴾ أي لله الملك كله . ﴿ تؤتي الملك من . . ﴾ أي أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ، لأن الله تعالى حوَّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ، ولا رسولاً من الرسل في

العلم بالله وشريعته ، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية ، وكشف له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار . ولهذا قال : ﴿ قل اللهم مالك الملك . . ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك ، الفعال لما تريد ، وتعطي النبوة من تريد ، فلك الحكمة البالغة ، والحجة التامة في ذلك . .

٢٧ ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ، ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً ، وخريفاً وشتاء . وقوله : ﴿ وتخرج الحي . . ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرىٰ من جميع الأشياء . ﴿ وترزق من نشاء . . ﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ، ولا يقدر على إحصائه ، وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة .

٢٨ ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء ، يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك . . ﴾ أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برىء من الله ، كما قال تعالى : ﴿ لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ وقال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وقال : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ وقوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، وفي الحديث « إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم » وقال تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ وقوله ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله

(٢٩) ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما في الأرض والسماوات، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والجبال . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، وما يبغضه منهم فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ولا يهمل ، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا :

(٣٠) ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۛ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ يوم تجد كل نفس . . ﴾ يعني يوم القيامة يحصر للعبد جميع أعماله من خير وشر ، كما قال ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، وود لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول الشيطان الذي كان مقروناً به في الدنيا ، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يخوفكم عقابه ، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ، ويقنطوا من لطفه ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه ، وقال غيره : أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ، ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

(٣١) ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ولهذا قال : ﴿ إن كنتم تحبون الله . . ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو

محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . وفي الحديث : « وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله » . ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم . . ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته . ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام :

(٣٢) ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ، ويتقرب إليه حتى يتابع النبي الأمي خاتم الرسل ، ورسول الله إلى جميع الثقلين : الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء ، بل المرسلون ، بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته ، واتباع شريعته .

(٣٣) ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(٣٤) ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام : خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لماله في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحاً عليه السلام : وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وانتقم له لما دعا على قومه فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به . واصطفى آل إبراهيم : ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ. ﴿وآل عمران ﴾ والمراد بعمران هذا والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام ، فعيسىٰ من ذرية إبراهيم عليهما السلام .

(٣٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها : أذكر أم أنثى ؟

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصا ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة ، وفي الحديث : « ولد لي الليلة ولد ، سميته باسم أبي إبراهيم » وفي الحديث « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها . . ﴾ .

(٣٧) ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً ، أي جعلها شكلاً مليحاً ، ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين ، فلهذا قال : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ وما ذلك إلا لأنها كانت يتيمة . وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علماً نافعاً وعملاً صالحاً ، ولأنه كان زوج خالتها ، وقيل : زوج أختها كما ورد في الصحيح « فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا لخالة » . ﴿ كلما دخل عليها . . ﴾ وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء . وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿ أنى لك هذا ﴾ أي من أين لك هذا ؟ .

(٣٨) ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

كما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد ، وإن كان شيخاً كبيراً ، قد وهن منه العظم ، واشتعل رأسه شيباً ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً وقال : ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك . ﴿ ذرية طيبة ﴾ أي ولداً صالحاً .

(٣٩) ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

أي خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته ، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى ابن مريم . ﴿ وسيداً ﴾ في العلم والعبادة ، أو السيد الحليم التقي ، أو السيد هو الفقيه العالم ، أو هو السيد في خلقه ودينه ، أو هو الذي لا يغلبه الغضب ، أو هو الشريف ، أو هو الكريم على الله عز وجل . ﴿ وحصوراً ﴾ هو الذي لا يأتي النساء ، أو هو الذي لا يولد له ، أو لا ماء له ، وفي حديث : « ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال : وإنما ذكره مثل هدبة الثوب ، وأشار بأنملته . وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : « اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان﴿ حصوراً ﴾ ليس كما قال بعضهم : إنه كان هيوباً ، أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها » وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل : ليست له شهوة في النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنماالفضل في كونها موجودة ، ثم يمنعها ، إما بمجاهدة كعيسى ، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا ، وهي درجة نبينا عليه الصلاة والسلام الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن ، وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : « حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ، ليس لأنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهن وإيلادهن ، بل يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ كأنه قال : ولداً له ذرية ونسل وعقب .

(٤٠) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

﴿ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي قال الملك : هكذا أمر الله العظيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه أمر .

(٤١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

﴿ آية ﴾ أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني . ﴿ إلا رمزاً ﴾ أي إشارة ، فلا تستطيع النطق مع أنه سوي صحيح ، كما في قوله : ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ . ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : ﴿ واذكر ربك كثيراً . . . ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اختارها لكثرة عبادتها ، وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . وفي الحديث « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده ، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط » . وفي الحديث « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

(٤٣) ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

القنوت : هو الطاعة في خشوع ، وفي الحديث « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أي كوني منهم .

(٤٤) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

﴿ نوحيه إليك ﴾ نقصه عليك . ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة ما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم : أيهم يكفلها ؟، وذلك لرغبتهم في الأجر .

(٤٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير ، ﴿ بكلمة منه ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون . ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا ، يعرفه المؤمنون بذلك . وسمي المسيح : قال بعض السلف : لكثرة سياحته ، وقيل : لأنه كان مسيح القدمين ، لاأخمص لهما ، وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالىٰ . ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه ، حيث لا أب له . ﴿ وجيهاً في الدنيا . . . ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب ، وغير ذلك مما منحه الله به ، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٤٦) ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ ويكلم الناس . . ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حالة صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه . ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله . له علم صحيح وعمل صحيح . وفي الحديث : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر » .

(٤٧) ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

تقول : كيف يوجد هذا الولد مني ، وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغياً حاشا لله ، فقال لها الملك عن الله عز وجل : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ، أي هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء . وقال هنا : ﴿ يخلق ﴾ وفي قصة زكريا ﴿ يفعل ﴾ لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إذا قضى أمراً . . . ﴾ أي فلا يتأخر شيئاً ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة ، كقوله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة ، لا مثنوية فيها ، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر .

(٤٨) ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السّلام : إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة . والتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام

وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا .

(٤٩) ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

كان يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله . ﴿ الأكمه ﴾ قيل : إنه الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلًا ، وقيل : بالعكس ، وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش ، وقيل : هو الذي يولد أعمىٰ ، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوى في التحدي . ﴿ والأبرص ﴾ معروف . ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار إنقادوا للإسلام .وصاروا من عباد الله الأبرار ، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو رهين في قبره إلى يوم التناد ، وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء ، وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً . ﴿ وأنبئكم بما تأكلون . . ﴾ أي أخبركم بماأكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له في بيته غداً . ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في ذلك كله . ﴿ لآية لكم ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به .

(٥٠) ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ ومصدقاً لما بين من التوراة ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً . ﴿ ولأحل لكم . . ﴾ فيه دلالة على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم

ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، فكشف لهم عن المغطى ، كما قال : ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله .

(٥١) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه .

(٥٢) ﴿ * فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال. ﴿من أنصاري إلى الله﴾ من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : « من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » حتى وجد الأنصار فآووه ، ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ، ومنعوه من الأسود والأحمر ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله . . ﴾ الحواريون : قيل : كانوا قصارين ، وقيل : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل : صيادين ، والصحيح أن الحواريَّ الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي ﷺ : « لكل نبي حواري ، وحواري الزبير » .

(٥٣) ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ مع الشاهدين ﴾ مع أمة محمد ﷺ .

(٥٤) ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه

إلى غير ذلك مما تقلده في رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زانية ، حتى استثاروا غضب الملك ، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله من بينهم ، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجى نبيه ، ورفعه من بين أظهرهم ، وتركهم في ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله . . ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أي إني رافعك ومتوفيك ، يعني بعد ذلك ، وقيل : توفاه ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه ، قال ابن جرير : توفيه هو رفعه ، أو المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا » قال الحسين : قال رسول الله ﷺ لليهود : « إن عيسى لم يمت ، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » وقوله تعالى ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي برفعي إياك إلى السماء. ﴿ وجاعل الذين اتبعوك . . ﴾ وهكذا وقع ، فقبل بعثة النبي ﷺ كان النصارى قاهرين لليهود ، لأنهم كانوا أقرب إلى الحق منهم ، إذ غيروا وبدلوا أيضاً ، فكانوا جميعاً كفاراً ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ونسخ به الشرائع قبله ، وأقام به الحق جعل دينه ظاهراً على كل دين ، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واجتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر ، وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .

﴿٥٦﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات .

﴿٥٨﴾ ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده ، وكيفية أمره هو مما قاله تعالى ، وأوحاه إليك ، ونزله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك ، كما قال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ .

﴿٥٩﴾ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

يقول جل وعلا ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ في قدرة الله من حيث خلقه من غير أب ﴿ كمثل آدم ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً ، وأظهر فساداً ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم ، لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ .

﴿٦٠﴾ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا يحيد عنه ، ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿٦١﴾ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ

﴿ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ ثم نبتهل ﴾ أي نلتعن . ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ أي منا ومنكم . قال البخاري : حدثنا عباس . . . عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال : « لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين » فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ . فقال : « قم أبا عبيدة بن الجراح » فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هذا أمين هذه الأمة » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

٦٢ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد .

٦٣ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد ، والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء ، سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نقمته .

٦٤ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

هذا خطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ﴿ إلى كلمة ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما هنا . ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثناً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون ﴾ وقوله ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ ولا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله . ﴿ فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف

وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم . وهذه الآية الكريمة جاءت في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ وكتاب رسول الله إلى هرقل بعد صلح الحديبية وقبل الفتح ، وقد ذكر محمد بن إسحق وغير واحد من أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمد بن إسحق والزهري ؟ والجواب أنه يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين .

﴿٦٥﴾ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم ، فقد اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون . . ﴾ أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً ، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسىٰ ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال : ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

﴿٦٦﴾ ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

هذا إنكار على من يحاجُّ فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجُّوا في إبراهيم بلا علم فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ، ولهذا قال : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

﴿٦٧﴾ ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

﴿ حنيفاً مسلماً ﴾ أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان .

﴿٦٨﴾ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي ، يعني محمد ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . وفي الحديث : « إن لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم .. ﴾ وقوله ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ أي وليّ جميع المؤمنين برسله .

﴿٦٩﴾ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ، وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم .

﴿٧٠﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون صدقها ، وتتحققون حقها .

﴿٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ ، وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه .

﴿٧٢﴾ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، ولهذا قالوا : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ

عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ، ويحتجوا به عليكم . قال تعالى : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات ، والدلائل القاطعات ، والحجج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به . ﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة ، وتركب الحجة في الدنيا والآخرة . ﴿ قل إن الفضل . . . ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرف الله ، وهو المعطي المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم ، والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة ، والحكمة البالغة .

(٧٤) ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء ، وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

(٧٥) ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر الله تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ أي من المال ﴿ يؤده إليك ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي المطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى

أن لا يؤديه إليك . قال مالك بن دينار : إنما سمي الدينار لأنه دَيْن ونار ، أي من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتني بالشهداء أشهدهم فقال : كفى بالله شهيداً ، قال ائتني بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، وسألني كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بك وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بألف دينار راشداً . هكذا رواه البخاري في موضع معلقاً بصيغة الجزم، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده . وقوله ﴿ذلك بأنهم . . ﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا . قال تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوا بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها ، وإنما هم قوم بهت . سأل رجل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم . عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » .

(٧٦) ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله ، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ .

(٧٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها . ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ أي برحمة منه لهم ، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة . ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار، وفي الحديث عن أبي ذر : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا ، قال : وأعاده رسول الله ثلاث مرات ، قال : « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان » .

(٧٨) ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا ، وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ يحرفونه .

(٧٩) ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريقة الأولى والأحرى ، وقد كان أهل الكتاب يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد قال عدي بن حاتم : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، قال : « بلىٰ ، إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . وقوله ﴿ ولكن كونوا ربانيين . . ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس : « كونوا ربانيين » ، أي حكماء علماء حلماء ، فقهاء ، أهل عبادة وأهل تقوى . وحق على من تعلَّم القرآن أن يكون فقيهاً . ﴿ تعلمون ﴾ أي تعلمونه للناس . ﴿ تدرسون ﴾ أي تحفظون ألفاظه .

(٨٠) ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب . ﴿ أيأمركم بالكفر . . ﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده ، لا شريك له .

(٨١) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته . ﴿ إصري ﴾ أي ثقل ما حملتم من عهدي ، أي ميثاقي الشديد المؤكد .

(٨٢) ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق قال علي بن أبي طالب : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنَن به ولينصرَنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنُن به ولينصرُنه . وفي الحديث : « لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » .

٨٣ ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً ، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع . ﴿ وإليه يرجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلًا بعمله .

٨٤ ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ وما أنزل علينا ﴾ يعني القرآن . ﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴾ أي من الصحف والوحي . ﴿ والأسباط ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر . ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل . ﴿ والنبيون من ربهم ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة . ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ يعني بل نؤمن بهم جميعهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

٨٥ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه . ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

٨٦ ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل من قربة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً .. إلى قوله : فإن الله غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم . ومعنى الآية أن هؤلاء قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

(٨٧) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه .

(٨٨) ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة . ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ، ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

(٨٩) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه .

(٩٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

يقول الله متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ، كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ ولهذا قال هنا : ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي . عن ابن عباس أن قوماً أسلموا ، ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ، ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية .

(٩١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة ، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جدعان ، وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه . في الحديث : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ! قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك » أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد . ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .

٩٢ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

﴿ لن تنالوا البر ﴾ الجنة . كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحب ماله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وإن أحبّ أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح ، وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه » .

٩٣ ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبي قال : « سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف

ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه ، فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله ، لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا : اللهم نعم ، فقال : « اللهم اشهد عليهم» وقال : « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد عليهم» قال : « وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » قال : « وإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيّاً قط إلا وهو وليه » قالوا نعم : فعند ذلك نفارقك ، ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه .

﴿٩٤﴾ ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

﴿٩٥﴾ ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

أي قل يا محمد : صدق الله فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ، فاتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية .

﴿٩٦﴾ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿ للذي ببكة ﴾ يعني الكعبة . عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصا » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » . وسميت بكة لأنها تبك أعناق الظلمة

والجبابرة . ﴿ فيه آيات بينات ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم وأن الله عظمه وشرفه . ﴿ مقام إبراهيم ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ، ويناوله ولده إسماعيل . ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ . يعني حرم مكة ، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في الجاهلية . ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور ، والاستطاعة الزاد والراحلة ﴿ ومن كفر فإن الله غني . . ﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر ، والله غني عنه . عن عمر بن الخطاب يقول : « من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً » .

(٩٧) ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(٩٨) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾

(٩٩) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة : أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين ، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ .

(١٠٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى : ﴿ ود

كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ .

(١٠١) ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يعني أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل عليكم ليلاً ونهاراً ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة ، قال : « وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن ، قال : « وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ » قالوا : فأي الناس أعجب إيماناً ؟ قال : « قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها» . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد ، وحصول المراد .

(١٠٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

في الحديث ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى» وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وقيل: ليست منسوخة ، و﴿ حق تقاته ﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وروي عن أنس أنه قال : لا يتقي اللهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقوله ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك . وفي الحديث « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

(١٠٣) ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ بحبل الله ﴾ بعهد الله ، أو بالقرآن ، وفي الحديث « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ﴾ وقوله ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة ، وفي الحديث « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ . وقوله ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم . . ﴾ وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه قد كان بينهم حروب في الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى ، وكما قال تعالى ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

(١٠٤) ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، وفي الحديث « قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ قال : « الخير اتباع القرآن وسنتي » والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » وفي رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . وفي الحديث « والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » .

(١٠٥) ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبدالله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » والله يا معشر العرب ، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لَغَيْرُكم من الناس أحرى أن لا يقوم به .

﴿١٠٦﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس . وقال الحسن البصري : هم المنافقون . ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر .

﴿١٠٧﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً .

﴿١٠٨﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور ، لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه . ولهذا قال :

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملك له ، وعبيد له . ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

(١١٠) ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴾

والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس . ولهذا قال : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ وفي الحديث قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال : « خير الناس أقراهم وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » . وقيل : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة ، كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . ولما مدح الله هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله ، وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

(١١١) ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

هكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وكذلك من قبلهم من يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى في الشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم .

(١١٢) ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يؤمنون . ﴿ إلا بحبل من الله ﴾ أي بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام الملة . ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي أمان منهم لهم ، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ، ولو امرأة ، وكذا عَبْدٌ على أحد قولي العلماء . ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾

أي أُلزموا ، فالتزموا بغضب من الله وهم يتسحقونه . ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً . ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون . . ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة . ﴿ ذلك بما عصوا . . ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله ـ وقيضوا لذلك . أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله ، فعياذاً بالله من ذلك ، والله عز وجل المستعان . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بغلهم في آخر النهار .

(١١٣) ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

أي لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ وفي الحديث عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أما إنه ليس من أهل الكتاب أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » قال فنزلت هذه الآيات ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ والمشهور أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ، ولهذا قال ﴿ ليسوا سواء ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم . ولهذا قال : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة . ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أي يقيمون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم .

(١١٤) ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا :

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لا يضيع عند الله ما عملوا من خير ، بل يجزيهم

به أوفر الجزاء . ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً . ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ، ولا عذابه إذا أراده بهم . ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(١١٧) ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ فيها صر ﴾ أي برد شديد ، أو برد وجليد ، أو نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ، ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يحرق الشيء بالنار . ﴿ فأهلكته ﴾ أي فأحرقته ، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه ، أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه ، فكذلك الكفار ، يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

(١١٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالىٰ ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على أسرارهم ، وما يضمرونه لأعدائهم . والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً ، أي يسعون في مخالفتهم ، وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أي من غيركم من أهل الأديان . وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على خاصة أمره . وفي الحديث الذي رواه البخاري والنسائي وغيرهما « ما بعث

الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانة : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ، فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من غير المؤمنين . ففي هذا الأثر مع الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بدت البغضاء من . . ﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل . ولهذا قال تعالى ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ .

(١١٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون من الايمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً . ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة ، أو تؤمنون بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . والأنامل : أطراف الأصابع ، أو الأصابع . وهذا شأن المنافقين ، يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه على أشد الغيظ والحنق . ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها .

(١٢٠) ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب ، أو أديل عليهم الأعداء لما لله في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد فرح المنافقون بذلك ، قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا . . ﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، باستعمال الصبر والتقوى ، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

١٢١ ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد ، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين فقال تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك . . ﴾ المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور ، وعن الحسن البصري : المراد بذلك يوم الأحزاب ، وهو غريب لا يعول عليه ، وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . ﴿ تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي منزلهم منازلهم : وتجعلهم ميمنة وميسرة ، وحيث أمرتهم . ﴿ والله سمع عليم ﴾ أي سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .

١٢٢ ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

قال عمر : سمعت جابر بن عبدالله يقول : فينا نزلت ﴿ إذ همت طائفتان . . ﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة ، وما يسرني أنها لم تنزل ، لقوله تعالى : ﴿ والله وليهما ﴾ .

١٢٣ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ببدر ﴾ أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة ، وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ، ودفع فيه الشرك ، وخرب محله وحزبه ، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذٍ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم فارسان ، وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة ، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذٍ بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض ، والعدة الكاملة والخيول المسومة ، والحلي الزائد ، فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه

وتنزيله ، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيلته ، وأخزى الشيطان وجيله . وبدر : محلة بين مكة والمدينة ، تعرف ببئرها ، منسوبة إلى رجل حفرها ، يقال له : بدر بن النارين . أو هي بئر لرجل يسمى بدراً . ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي تقومون بطاعته .

(١٢٤) ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد : هل كان يوم بدر ، أو يوم أحد على قولين . والظاهر أن ذلك كان يوم بدر ، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر ، والله أعلم .

(١٢٥) ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

﴿ من فورهم هذا ﴾ أي من وجههم هذا ﴿ مسومين ﴾ أي معلمين بالسيما ، وكان سيما الملائكة يوم بدر الصدف الأبيض ، وسيماهم أيضاً في نواصي خيولهم ، أو مسومين بسيما القتال ، أو بالعمائم .

(١٢٦) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم ، وتطييباً لقلوبكم وتطميناً ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والاحكام .

(١٢٧) ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾

أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير . ﴿ فينقلبوا ﴾ فيرجعوا . ﴿ خائبين ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا .

(١٢٨) ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي ، إلا ما أمرتك به فيهم ، والأمر كله إليّ . ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ مما هم فيه من الكفر ، فيهديهم بعد الضلالة . ﴿ أو يعذبهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم . ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك . كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين ، يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

١٢٩ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي الجميع ملك الله ، وأهلها عبيد بين يديه ﴿ يغفر لمن يشاء . . ﴾ أي هو المتصرف ، فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، والله غفور رحيم .

١٣٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تعاطي الربا ، وأكله أضعافاً مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة ، وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة ، ثم توعدهم بالنار ، وحذرهم منها ، فقال سبحانه وتعالىٰ :

١٣١ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

١٣٢ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

١٣٣ ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . . ﴾ أي أعدت الجنة للمتقين كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل : إن معنى قوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ أي فما ظنك بالظهائر . وقيل : بل عرضها كطولها . وفي الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وسقفها عرش الرحمٰن » وفي مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات

والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ : « سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار » ؟

(١٣٤) ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال ، كما قال ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله ، والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر . ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ أي إذا قاربهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم . وفي الحديث « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن اعتذر إلى الله قبل عذره » وهذا حديث غريب ، وفي إسناده نظر . وفي الحديث « ليس الشديد بالصُّرَعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وفي الحديث « ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله » .

(١٣٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . عن أبي هريرة قلنا : يا رسول الله ، إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا ، وشممنا النساء والأولاد ، فقال : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم . . . » وفي الحديث « عليكم بلا إلّه إلا الله والاستغفار ، فكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إلّه إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » . ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ أي لا يغفرها أحد إلا الله . وقد أتي النبي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ : « عرف الحق لأهله » . ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا . . ﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية

ويصروا عليها غير مقلين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه . وفي الحديث « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » .

١٣٦ ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشروبات . ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها . ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ يمدح تعالى الجنة .

١٣٧ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ فسيروا في الأرض . . ﴾ .

١٣٨ ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ هذا بيان للناس ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم ، وهدى قلوبكم ، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم .

١٣٩ ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى . ﴿ ولا تحزنوا . . ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون .

١٤٠ ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ إن يمسسكم قرح . . ﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح . ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة ، لما لنا في ذلك من الحكمة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس في مثل هذا : لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء . ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يقتلون في سبيله ، ويبذلون مهجهم في مرضاته .

(١٤١) ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب ،وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم .

(١٤٢) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

(١٤٣) ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم ، فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ولهذا قال تعالى ﴿ فقد رأيتموه ﴾ يعني الموت ، شاهدتموه وقت حد الأسنة ، واشتباك الرماح ، وصفوف الرجال للقتال . والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس ، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

(١٤٤) ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً ، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وجوزوا عليه ذلك ، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه . ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي رجعتم القهقرى . ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حياً وميتاً .

(١٤٥) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

أي لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له . ولهذا قال : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ كقوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه . ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا . . ﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ، وما قسم له في الدنيا . ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

(١٤٦) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وكأين من نبي قاتل

معه ربيون كثير ﴾ ربيون : جموع كثيرة أو علماء كثر ، أو علماء صبر ، أي أبرار أتقياء ، فما ارتدوا عن نصرتهم ، ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا به .

١٤٧ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ وما كان قولهم إلا أن . . ﴾ أي لم يكن لهم هجير إلا ذلك ، أي لم يكن له دأب وعادة إلا ذلك .

١٤٨ ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا .

١٤٩ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾

يحذر الله عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا . . . ﴾ .

١٥٠ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾

ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى : ﴿ بل الله مولاكم . . ﴾ .

١٥١ ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال . فقال : ﴿ سنلقي في قلوب الذين . . ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت

لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

١٥٢ ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ أي أول النهار . ﴿ إذ تحسونهم ﴾ أي تقتلونهم . ﴿ بإذنه ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم . ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ الفشل: الجبن . ﴿ وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾ كما وقع للرماة . ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ وهو الظفر بهم . ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة . ﴿ ومنكم يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ أي ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم . ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم . أو ﴿ عفا عنكم ﴾ لم يستأصلكم .

١٥٣ ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم . ﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب . ﴿ والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . ﴿ فأثابكم غمّاً بغم ﴾ أي فجزاكم غماً على غم . الغم الأول بسبب الهزيمة ، والغم الثاني حين قيل : قتل محمد ﷺ ، كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة . ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم . ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من الجراح والقتل .

١٥٤ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ

يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم ، وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم . والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال سبحانه : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ وعن ابن مسعود : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . وعن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه . ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين ، والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ،وينجز له مأموله . ولهذا قال : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف . ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ . فهؤلاء المشركون اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال . ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ قال تعالى ﴿ قل إن الأمر كله لله . . . ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . ﴿ قل لو كنتم في . . ﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل ، وحكم حتم لا محيد عنه ، ولا مناص منه . ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال . ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يختلج في الصدر من السرائر والضمائر .

١٥٥ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ أي

عما كان منهم من الفرار . ﴿ إن الله غفور حليم ﴾ أي يغفر الذنب ، ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

(١٥٦) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ أي عن إخوانهم. ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها. ﴿أو كانوا غزى﴾ أي كانوا في الغزو ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي في البلد . ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ، ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره . ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء .

(١٥٧) ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

تضمن هذا أن القتل في سبيل الله ، والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا ، وجمع حطامها الفاني .

(١٥٨) ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه به بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر فقال : ﴿ ولئن متم أو قتلتم . . ﴾ .

(١٥٩) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم ، أو فبرحمة من الله لنت لهم . و﴿ ما ﴾ صلة ، والعرب تصل بالمعرفة كقوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ وبالنكرة كقوله ﴿ عما قليل﴾ وهكذا هنا قال ﴿ فبما رحمة . . ﴾ أي برحمة من الله . قال الحسن البصري : هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ﴿ ولوكنت فظاً ﴾ الفظ الغليظ ، والمراد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿ غليظ القلب ﴾ أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، ألان جانبك لهم تألفاً لقلوبهم . قال عبدالله بن عمرو إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح . وفي الحديث « إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » حديث غريب. ولهذا قال تعالى : ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ولذلك كان رسول الله يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطيبياً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد في أن يعقد في المدينة ، أو يخرج إلى العدو ، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذٍ فأبى ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة فترك ذلك ، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجيء لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال ، وقال في قصة الإفك : « أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أنبوا أهلي ورموهم ، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء » وهل كانت الاستشارة واجبة عليه أم هي من باب الندب » تطيبياً لقلوبهم ؟ قولان وقد قال النبي لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » وفي الحديث : « المستشار مؤتمن » ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله .

(١٦٠) ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

(١٦١) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ ما ينبغي لنبي أن يخون ، نزلت في قطيفة حرا ، فقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأكثروا في ذلك فنزلت . وهذا تنزيه له ﷺ من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة ، وغير ذلك . أو الغلول أن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً ، أو بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغ أمته . ﴿ ثم توفى كل نفس . . ﴾ ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقد استعمل ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله ﷺ عل المنبر ، فقال : « وما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ، والذي نفس محمد بيده ، لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال : « اللهم هل بلغت » ثلاثاً .

(١٦٢) ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به ، فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير .

(١٦٣) ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يعني أهل الخير وأهل الشر درجات فهم متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ، ودركاتهم في النار . كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ ولهذا قال سبحانه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، ولا يظلمهم خيراً ، ولا يزيدهم شراً ، بل يجازي كل عامل بعمله .

(١٦٤) ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ أي من جنسكم . ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن . ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، لتزكوا نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم ، وجاهليتهم . ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول . ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي جهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد .

١٦٥ ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم . ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً ، وأسروا سبعين أسيراً . ﴿ قلتم أنى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة . ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه .

١٦٦ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك . ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا .

١٦٧ ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾

يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ،

فاتبعهم رجال من المؤمنين ، يحرضونهم على الاتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أو ادفعوا ﴾ يعني كثروا سواد المسلمين ، أو ادفعوا بالدعاء ، أو رابطوا . فتعللوا قائلين : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ أي لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم ، ولكن لا تلقون قتالاً . ﴿ هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان . ثم قال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤ وامن بلادبعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ .

(١٦٨) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال تعالى : ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم . . ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه .

(١٦٩) ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ولما أصيب إخوانكم يوم أحد جعلَ الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله . . ﴾ .

(١٧٠) ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . نسأل الله الجنة .

(١٧١) ﴿ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي سُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود ، وجزيل الثواب . قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم .

(١٧٢) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة ، وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ، ويريهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبدالله رضي الله عنه فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والأثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ . وقيل : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد .

(١٧٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا بذلك ، بل توكلوا على الله واستعاذوا به . ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ عن ابن عباس قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا

لكم فاخشوهم .. قضى النبي ﷺ بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ : « ردوا علي الرجل » فقال : « ما قلت » ؟ قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل » فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » .

(١٧٤) ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾

أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ مما أضر لهم عدوهم . ﴿ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ النعمة : أنهم سلموا ، والفضل أن عيراً مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه .

(١٧٥) ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

أي يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة ﴿ فلا تخافوهم .. ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي ، فإني كافيكم وناصركم عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ وكما قال ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ وقال ﴿ أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

(١٧٦) ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا يحزنك الذين .. ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك . ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ... ﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(١٧٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي

استبدلوا هذا بهذا ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ .

(١٧٨) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

هذه الآية كقوله ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكقوله ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وكقوله ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

(١٧٩) ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ وهتك به ستار المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد ، وخيانتهم لله ورسوله ﷺ . ﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد . ، والمراد حتى يخرج المؤمن من الكافر . ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ كقوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله ، واتبعوه فيما شرع لكم . ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ .

(١٨٠) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه ، بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في

دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ . وفي البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزميته - يعني بشدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية . وفي الحديث « ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلحظ حتى يطوقه » . وقوله تعالى : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي بنياتكم وضمائركم .

(١٨١) ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، أَفْتَقَرَ ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ وقوله : ﴿سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

(١٨٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ ذلك بما قدمت . . ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً .

(١٨٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا . . . ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة . ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي

أنكم تتبعون الحق ، وتنقادون للرسل .

﴿١٨٤﴾ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل . . ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤ وا به من البينات ، وهي الحجج والبراهين القاطعة . ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء ، كالصحف المنزلة على المرسلين . ﴿ والكتاب المنير ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿١٨٥﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون . وكذلك الملائكة ، وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخراً كما كان أولاً . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها ، من صلب آدم ، وانتهت البرية أقام الله القيامة ، وجازى الخلائق بأعمالها : جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ، ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ إن في الله عزاء عن كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام . وقوله: ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ أي من جنب النار ، ونجا منها ، وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز . وفي الحديث « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤ وا إن شئتم ﴿ فمن زحزح عن النار . . ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية ، قليلة زائلة ، كما قال

تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾ وفي الحديث : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه » . قال قتادة : هي متاع متروكة ، أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ، ولا قوة إلا بالله .

﴿١٨٦﴾ ﴿ * لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . . . ﴾ أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ ولتسمعن من الذين . . ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلماً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو يفرج الله . فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا . . ﴾ كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى يأذن الله فيهم .

﴿١٨٧﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك ، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم . فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً .

﴿١٨٨﴾ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يعني بذلك المرائين المتكبرين بما لم يعطوا ، وفي الحديث : « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة » وفيه « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » .

(١٨٩) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

(١٩٠) ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم ، والروائح والخواص . ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم . ولهذا قال تعالى : ﴿ لآيات لأولي الألباب ﴾ أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقيقتها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

(١٩١) ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ثم وصف الله تعالى أولي الألباب فقال : ﴿ الذين يذكرون الله .. ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم . ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . قال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . وعن الحسن البصري : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما

عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ سبحانك ﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً . ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا عذاب النار بحولك وقوتك ، وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

(١٩٢) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

﴿ فقد أخزيته ﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع . ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم .

(١٩٣) ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ منادياً ينادي للإيمان ﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أي يقول : آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي استرها ﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أي ألحقنا بالصالحين .

(١٩٤) ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

﴿ على رسلك ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك ، وقيل : على ألسنة رسلك ، وهذا أظهر . ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أي على رؤوس الخلائق . ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . وفي الحديث « العار والتخزية تبلغ بابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله عز وجل ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار » . حديث غريب . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل في تهجده » .

(١٩٥) ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ أي فأجابهم ربهم . قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله ﴿ فاستجاب لهم ربهم . . . ﴾ ومعنى الآية أن المؤمنين من ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك ﴿ إني لا أضيع . . . ﴾ بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى . ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء . ﴿ فالذين هاجروا ﴾ أي تركوا دار الشرك ، وأتوا إلى دار الإيمان ، وفارقوا الأحباب والاخوان والخلان والجيران . ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ﴿ وقاتلوا وقُتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه . ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً . ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً .

(١٩٦) ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾

يقول تعالى : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصيحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً ، وجميع ما هم فيه .

(١٩٧) ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ . وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده :

(١٩٨) ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم . . ﴾ عن النبي ﷺ قال : « إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذا لولدك عليك حق » رواه ابن مردويه عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً . عن أبي الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ ويقول : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ .

(١٩٩) ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أي مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب ، وصفوتهم ، سواء كانوا هوداً أو نصارىٰ . وقد قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤ ون بالحسنة السيئة ﴾ وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: « إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه . وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس قال : لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ : « استغفروا لأخيكم » فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن . . ﴾ وقوله : ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجاناً . ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يعني سريع الاحصاء .

(٢٠٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ،

فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم . وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات . وفي الحديث : « ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا ،ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » . ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

تفسير سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها ، فأعجبته ، فأنس إليها ، وأنست إليه . وفي الحديث الصحيح « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » وعن ابن عباس : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل ، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض ، فاحبسوا نساءكم . وقوله : ﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ أي وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه ﴿ الذي تساءلون به ﴾ أي كما يقال : أسألك بالله والرحم . وقال الضحاك : واتقوا الله الذي تعاقدون ، وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن بروها وصلوها. ﴿إن الله كان على كل شيء رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم. وفي الحديث الصحيح : « أعبدالله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف

بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم .

(٢) ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ أي إثماً كبيراً . أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبي ﷺ : « إن طلاق أم سليم لحوب » فكف ، والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم ، وخطأ كبير ، فاجتنبوه .

(٣) ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾

أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه . عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ قالت : يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن على سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن - ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي انكحوا ما شئتم سواهن ، إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثاً ، وإن شاء أربعاً . قال الشافعي : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلا ما حكي عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم : بلا حصر . ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن

يستحب . ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ قال بعضهم : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أي فقراً . والصحيح قول الجمهور : ﴿ أن لا تعدلوا ﴾ أن لا تجوروا ، يقال : عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار .

(٤) ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾

﴿ نحلة ﴾ فريضة . والنحلة في كلام العرب الواجب ، يقول : لا تنكحها إلا بشيء واجب لها . وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب ، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق . ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً ، وأن يكون طيب النفس بذلك ، كما يمنح المنيحة ، ويعطي النحلة طيباً ، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك ، فإن طابت هي لديه بعد تسميته ، أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً ، ولهذا قال : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء . . . ﴾ .

(٥) ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها ، ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ عن ابن عباس يقول : لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤونتهم ورزقهم . ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ يعني في البر والصلة . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب ، وتحسين الأخلاق .

(٦) ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا

تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ أي اختبروهم . ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ يعني الحلم . ﴿ فإن آنستم منهم رشداً . . ﴾ يعني صلاحاً في دينهم ، وحفظاً لأموالهم ، قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه . ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً . . ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية . ﴿ إسرافاً وبداراً ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم . ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف . . ﴾ قال الفقهاء : له أن يأكل من أكل الآخرين أجره مثله ، أو قدر حاجته . ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالتي هي أحسن . ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم ، وإيناسكم الرشد منهم ، فحينئذٍ سلموا إليهم أموالهم ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم ، وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه . ثم قال : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم لأموالهم ، هل هي كاملة موفورة ، أو منقوصة منجوسة . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تلين مال يتيم » .

(٧) ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله هذه الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم .

(٨) ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث . ﴿ واليتامي والمساكين ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام ، وقيل :

يستحب ، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين .

(٩) ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

هذا في الرجل يحضره الموت فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ، ويرده للصواب فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيقة . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال : يا رسول الله ؛ إني ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : فالشطر ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » . قال الفقهاء : إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث ، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص عن الثلث . وقيل المراد في الآية : فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً . أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر . وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ولما نزلت ﴿ إن الذين يأكلون أموال . . ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ .

(١١) ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ

بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة ، والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . وفي الحديث « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » . وفي الحديث « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم ، وهو ينسى ، وهو أول شيء ينزع من أمتي » . وقد جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال قال : فقال : يقضي الله في ذلك ، فنزلت آية المواريث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك » فقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله . . ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى . وقوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين . .﴾ فالثلاثة فما فوق لهن الثلثان، والثنتان كذلك لهما الثلثان قياساً على الأختين ، والواحدة لها النصف . وقوله : ﴿ ولأبويه . . ﴾ فللأم الثلث إن لم يكن أولاد ولا عدد من الأخوة ، وإن كان للميت أولاد أو عدد من الأخوة فلها السدس ، وتأخذ ثلث الباقي مع زوج وأب ، أو زوجة وأب . وميراث الأب السدس . مع الابن ، والسدس فرضاً والباقي تعصيباً مع البنات أو بنات الابن ، والتعصيب فقط إن لم يكن أولاد للميت . والدين مقدم على الوصية بالإجماع ، وقدمت الوصية في الآية للاهتمام بها لأنها تبرع . وقوله : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم . . ﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث . ﴿ فريضة من الله ﴾ أي فرضه الله وقضاه والله عليم حكيم فيضع الأشياء في محالها وحسب الاستحقاق .

(١٢) ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ

وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن من غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال : ﴿ ولهن الربع .. ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان والثلاث والأبع ، يشتركن فيه . وقوله : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة .. ﴾ الكلالة مشتقة من الاكليل ، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه والمراد هنا من يرثه من حواشيه ، لا أصوله ولا فروعه . وقد روي عن الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة من لا ولد له ولا والد ، فلما ولي عمر قال : إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه . وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد . ولكن روي أن الكلالة من لا ولد له ، والصحيح الأول . ﴿ وله أخ أو أخت ﴾ أي من أم ، كما هو في قراءة بعض السلف ، منهم سعد بن أبي وقاص . وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه : أحدها أنهم يرثون مع من أولوا به ، وهي الأم . والثاني أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، والثالث أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن ، والرابع أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم . ﴿ غير مضار ﴾ أي لتكن وصيته على العدل ، لا على الاضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة ، أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . وفي الحديث « الاضرار في الوصية من الكبائر » . وقد اختلف العلماء في الإقرار للوارث على قولين ، أحدهما لا يصح لأنه مظنة التهمة ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار .

١٣ ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه هي حدود الله فلا تعتدوها ، ولا تجاوزوها . ولهذا قال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ أي فيها ، فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يدخله جنات . . . ﴾ .

(١٤) ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ ومن يعص الله ورسوله . . ﴾ أي لكونه غيَّر ما حكم الله به . وضاد الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وفي الحديث : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته ، فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تلك حدود الله . . إلى قوله عذاب مهين ﴾ .

(١٥) ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾

كان الحكم في ابتداء الاسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت . ولهذا قال : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة ﴾ يعني الزنا . والسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . فكان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم . وهو أمر متفق عليه . وفي الحديث : « خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ، ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ، ثم نفي سنة » . وقد ذهب الإمام أحمد إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدل على أن الرجم ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم . والله أعلم .

(١٦) ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما ، أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان

الحكم كذلك ، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم . ﴿ فإن تابا وأصلحا ﴾ أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه ، وصلحت أعمالهما وحسنت . ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . ﴿ إن الله كان تواباً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها » أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

(١٧) ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يقول سبحانه وتعالى : إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك قبض روحه قبل الغرغرة . عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره . ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ قال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال السدي : ما دام في صحته ، أو ما لم يغرغر وفي الحديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وأما متى وقع الاياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصيم فلا توبة مقبولة حينئذ ، ولات حين مناص ، ولهذا قال :

(١٨) ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وليست التوبة للذين . . ﴾ وهذا كقول الله : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ وقوله سبحانه ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية، ولو بملء الأرض ذهباً. وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: « تخرج النفس وهي مشركة » ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

(١٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿

نزلت في كبيشة بنت معن ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية . ﴿ ولا تعضلوهن . . ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضرار . ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالفها . وقيل : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان ، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله : الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك ، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ وفي الحديث « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني ، فقال : « هذه بتلك » ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة في شعار واحد ، يضع على كتفيه الرداء وينام بالإزار ، وكان إذا صلى العشاء دخل منزله يسمر مع أهله قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك . ﷺ وقد قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ﴿ فإن كرهتموهن . . ﴾ أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة وفي الحديث « لا يغرنَّ مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر » .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿ ٢٠

أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأته ، ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق

الأولى شيئاً ، ولو كان قنطاراً من المال . وفي هذه الآية دليل على جواز الإصداق بالمال الجزيل ، وقد كان عمر رضي الله عنه نهى عن كثرة الاصداق ثم رجع عن ذلك . قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء ، وإن كانت بنت ذي القصة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة من صفة النساء طويلة ، في أنفها فطس : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : إن الله قال : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

(٢١) ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة ، وقد أفضيت إليها ، وأفضت إليك . ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ المراد بذلك العقد . ، وقيل : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

(٢٢) ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

يحرم الله زوجات الآباء تكرمة لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ،وهذا أمر مجمع عليه . ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة ، قال : وقد قال ﷺ « ولدت من نكاح ، لا من سفاح » قال : فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك ، أي كانوا يعدونه نكاحاً . وهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع . ﴿ ومقتاً ﴾ أي بغضاً ، أي هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ، ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ، ويصير ماله فيئاً لبيت مال المسلمين كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، « بعث رسول الله إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله » .

(٢٣) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع ، والمحارم بالمصاهرة . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وبناتكم ﴾ ، فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد ، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها ، لأنها ليست بنتاً شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية . والله أعلم . وقوله : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . وفي الحديث « إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة » . وفي لفظ مسلم « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » واختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية ، وهذا قول مالك . وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ، لحديث مسلم « لا تحرم المصة ولا المصتان » وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات . ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . ﴿ وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أم لم يدخل بها ، وأما الربيبة ، وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها . والجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن في حجره ، قالوا : وهذا الخطاب خرَّج مُخرج الغالب فلا مفهوم له ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم . يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية . ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ يعني في النكاح .

٢٤ ﴿ * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات ، وهن المتزوجات إلا ما ملكت أيمانكم ، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي ، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن . ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم ، فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال . ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي . ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك . وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الاسلام ثم نسخ بعد ذلك . ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه ، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ، ولا عليها في ذلك .

٢٥ ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ طولاً ﴾ سعة وقدرة . ﴿ المحصنات المؤمنات ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات . ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون . ﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها . وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ فدل على أن السيد ولي أمته ، لا تزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده لا يتزوج إلا بإذنه . ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أي وادفعوا مهورهن بالمعروف أي عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات . وقوله ﴿ محصنات ﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه . ﴿ غير مسافحات ﴾ هن الزواني المعلنات اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بفاحشة ﴿ ولا متخذات أخدان﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به . نهى الله عن ذلك ، يعني تزويجها ما دامت كذلك . وقوله تعالى: ﴿ فإذا أحصن فإن أتين

بفاحشة . . ﴾ والمراد بالاحصان هنا الاسلام ، أو زواجهن . ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم ﴾ أي إنما يباح الاماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك ، وكان زواجه من أمة مؤمنة أدى إليها مهرها .

(٢٦) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يخبر الله تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وما حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها . ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها . ﴿ ويتوب عليكم ﴾ أي من الاثم والمحارم . ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله .

(٢٧) ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات . . ﴾ أي يريد أتباع الشيطان من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيما .

(٢٨) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم ، ولهذا أباح الاماء بشروط . ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، وضعف عزمه وهمته . وقيل : في أمر النساء ، فيذهب عقله عندهن .

(٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير مشروعة ، كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا . ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول ، لأنه يدل على التراضي نصاً ، بخلاف

المعاطاة، فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد منه، وخالف الجمهور في ذلك: مالك؛ وأبو حنيفة وأحمد ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً ، ومنهم من قال : يصح في المحقرات . ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بينكم بالباطل . ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وفي الحديث « كان رجل ممن كان قبلكم ، وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله عز وجل : (عبدي بادرني بنفسه ، حرمت عليه الجنة) ولذلك قال تعالى :

(٣٠) ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه ، أي عالماً بتحريمه ، متجاسراً على انتهاكه ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عامل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

(٣١) ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

أي إذا اجتنبتم كبائر الإثم التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة . ولهذا قال : ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وفي الحديث : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقد روى ابن كثير أحاديث ذكرت كبائر غير هذه السبع ، فمنها الانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام ، وإلحاد في المسجد الحرام ، والذي يستسخر ، وبكاء الوالدين من العقوق ، وقول الزور ، وشهادة الزور ، وقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، وأن تزاني حليلة جارك ، وسأله عن الخمر فقال : هي أكبر الكبائر ، وأم الفواحش ، من شرب الخمر ترك الصلاة ، ووقع على أمه وخالته وعمته ، واليمين الغموس ، ومن الكبائر أن يشتم الرجل والديه ، قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه ، ومن أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم ، والسبتان بالسبة ، ومن جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » ، ومن الكبائر اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله ، وهذا أكبر

الكبائر ، وسوء الظن بالله ، والسرقة ، والاضرار في الوصية من الكبائر ، والغلول ، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً .

(٣٢) ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

قالت أم سلمة : يا رسول الله ، يغزو الرجل ، ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فأنزل الله هذه الآية . وقوله : ﴿ للرجال نصيب . . ﴾ أي كل له جزاء عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ أي ولكن سلوني من فضلي أعظكم ، فإني كريم وهاب . وفي الحديث : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج » . ﴿ إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها ، وبمن يستحق الفقر فيفقره ، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه .

(٣٣) ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

﴿ موالي ﴾ ورثة . ﴿ والذين عقدت . . ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم . فلما نزلت ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ نسخت ثم قال ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له . وكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : ترثني وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ : « كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة . ولا عقد ولا حلف في الإسلام » فنسختها هذه الآية ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ .

(٣٤) ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

أي الرجل قيم على المرأة ، أي وهو رئيسها وكبيرها ، والحاكم عليها ، ومؤدبها إذا

اعوجت . وقوله : ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي من المهور والنفقات والعكف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ . ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لأزواجهن . ﴿ حافظات للغيب ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله وقوله ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي المحفوظ من حفظ الله ، وفي الحديث « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها قيل لها « ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت » . ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ أي والنساء اللاتي تخافون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والافضال وقد قال رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » وفي الحديث الصحيح : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » وهجرها في المضاجع : هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره ، ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها ، وفي الحديث : قيل : يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا علينا؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » . ﴿ واضربوهن ﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح . وفي الحديث : « واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . « ضرباً غير مبرح » هو أن لا يكسر فيها عضواً ، ولا يؤثر فيها شيناً . ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها . ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن الله العلي الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ ﴿٣٥﴾

قال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظر في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ، وتشوف الشارع إلى التوفيق ولهذا قال : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ ولم يذكر التفريق .

٣٦ ﴿ * وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

يأمر الله تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال : أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود ، ثم عطف على الاحسان إليهما الاحسان إلى القربات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة » . ﴿ واليتامى ﴾ لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم . ﴿ والمساكين ﴾ وهم المحاويج الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم . ﴿ والجار ذي القربى) الذي بينك وبينه قرابة . ﴿ والجار الجنب ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة ، أو هو الرفيق في السفر . وفي الحديث « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ﴿ وابن السبيل ﴾ هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر . ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ هذا وصية بالارقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في أيدي الناس . ﴿ مختالاً ﴾ أي مختالاً في نفسه معجباً متكبراً . ﴿ فخوراً ﴾ على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وعند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

٣٧ ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

في الحديث : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ،

وأمرهم بالفجور ففجروا » . ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ فالبخيل جحود لنعم الله ، ولا تظهر عليه ، ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله . ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله ، وفي الحديث « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه » .

(٣٨) ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

﴿ رئاء الناس ﴾ أي يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله .

(٣٩) ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص؟ ﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ أي هو عالم بنياتهم الصالحة والفاسدة وعالم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه وبمن يستحق الخذلان والطرد فيخذله ويطرده . أعاذنا الله من ذلك .

(٤٠) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل يوفيها له ، ويضاعفها له ، إن كانت حسنة كما قال سبحانه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وكما قال : ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ﴾ وفي الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل ، وفيه : « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقول أبو سعيد : اقرؤ وا إن شئتم : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . . ﴾ وقوله : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ في الحديث : « إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألفي حسنة ، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب بالحسنة يوم القيامة ، ولا يخرج من النار أبداً ، وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال : يا

رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعته بشيء ؟ قال : « نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل الحديث : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ، ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة . ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة . نسأل الله رضاه والجنة .

(٤١) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه ، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين والشهداء ﴾ وفي البخاري عن عبدالله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ عليّ » فقلت : يا رسول الله ، آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ « قال : نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا . . ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان .

(٤٢) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾

أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ كقوله ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ وقوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتمون منه حديثاً .

(٤٣) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب ، إلا أن يكون مجتازاً

من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر . وقوله ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران : أنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة ، وعدم تدبره وخشوعه فيها . وقوله : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ أي لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل . أي تمر به مراً ولا تجلس . وقوله ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم ، إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله ، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد ، لحديث عطاء بن يسار قال : رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة . وقوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء . والسفر معروف ، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . والغائط هو المكان المطمئن من الأرض ، كني بذلك عن التغوط ، وهو الحدث الأصغر . وملامسة النساء كناية عن الجماع ، لقوله تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان . والتيمم في اللغة هو القصد . والصعيد هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل في التراب والرمل والشجر والحجر والنبات ، وهو قول مالك ، وقيل : ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهو مذهب أبي حنيفة ، وقيل : هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل . ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ فيه التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ أي ومن عفوه وغفرانه أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة ورخصة .

(٤٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ : ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا . ﴿ ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع .

(٤٥) ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾

﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم . ﴿ وكفى بالله . . ﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره .

(٤٦) ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ من الذين هادوا ﴾ ﴿ من ﴾ في هذا لبيان الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقوله ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم وافتراء . ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ أي سمعنا ما قلته يا محمد ، ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم من ذلك من الإثم والعقوبة . ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي اسمع ما تقول ، لا سمعت ، أو اسمع غير مقبول منك ، والأول أصح ، وهذا استهزاء منهم واستهتار ، عليهم لعنة الله . ﴿ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون : راعنا سمعك بقولهم : راعنا ، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ . ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم . . ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً .

(٤٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ وطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم ، أو لا نبقي لها سمعاً ولا بصراً ولا أفقاً ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار ، أو نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه . وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن

المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة . يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم . ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ، ولا يمانع .

(٤٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به ، ، ي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء أي من عباده . وفي الحديث قال : « إن الله يقول : يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر ما كان منك ، يا عبدي ، إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » . وفي الحديث « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ كقوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك . . » وفيه « ألأ أخبركم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله » .

(٤٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وفي قولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل ، لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها . ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل ، وهو ما يكون في شق النواة .

(٥٠) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾

﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ . ﴿ وكفى به إثماً مبيناً ﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراء ظاهراً .

(٥١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾

الجبت : السحر ، والطاغوت الشيطان . أو الجبت الشيطان أو الشرك ، أو الأصنام ، أو حيي بن أخطب ، أو كعب بن الأشرف ، أو هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك ، والطاغوت : كل ما يعبد من دونه عز وجل . ﴿ ويقولون للذين كفروا . . . ﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وقد جاء حيي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة ، فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكدماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً ، فأنزل الله هذه الآية .

(٥٢) ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

(٥٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ، ولاسيما محمداً ﷺ شيئاً ، ولا ما يملأ النقير ، وهو النقطة التي في النواة . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الانفاق ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاذه ، وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً .

(٥٤) ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، وقد منعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب ، وليس من بني إسرائيل . وقوله : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم . . ﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا .

(٥٥) ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

﴿ فمنهم من آمن ﴾ أي بهذا الإيتاء ، وهذا الإنعام ﴿ ومنهم من صد عنه ﴾ أي كفر به وأعرض عنه ، وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم ، أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ، ولست من بني إسرائيل ؟ ﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله فقال : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ﴾ أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم . ﴿ كلما نضجت جلودهم . . ﴾ إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس .

(٥٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولا يبغون عنها حولاً . وقوله ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة . ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً ، في الحديث « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها

مائة عام لا يقطعها ـ شجرة الخلد » .

﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، وفي الحديث « أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك » وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده ، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة . وفي الحديث : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » . لما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد استكن له الناس في المسجد ، فقام ﷺ على باب الكعبة فقال : « لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة » ؟ فدعي له ، فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاء وبر » فهذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة ، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿ إن الله يأمركم أن . . . ﴾ فدعا عثمان بن طلحة إليه فدفع المفتاح إليه .
وقوله : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس . . ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قيل : إنما نزلت في الأمراء ، يعني الحكام بين الناس . وفي الحديث « إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه » . وفي الأثر : عدل يوم كعبادة أربعين سنة .
وقوله : ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ أي سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم .

(٥٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم ، منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف» أخرجاه في الصحيحين . ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ هم أهل الفقه والدين ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء . ﴿ فإن تنازعتم في شيء ﴾ وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تتنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم . ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ دل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى كتاب الله والسنة فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر . ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً . أو وأحسن جزاء .

(٦٠) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى
ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في رجل من الأنصار منافق ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف ، وهو المراد بالطاغوت هنا .

(٦١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

﴿ يصدون عنك صدوداً ﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال

تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ .

(٦٢) ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

أي فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثم جاؤوك يحلفون بالله . . ﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق ، أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ .

(٦٣) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾

هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم ، وسيجزيهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ، ولهذا قال : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم . ﴿وعظهم﴾ أي وانههم عما في قلوبهم من النفاق ، وسرائر الشر . ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ ادع لهم .

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم . وقوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي لا يطيع أحد إلا بإذني ، يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك . كقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي عن أمره وقدره ، ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم . وقوله : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم . . ﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا

قال : ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء اعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا . . . ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : « يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له » .

(٦٥) ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أن لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد إليه ظاهراً وباطناً . ولهذا قال : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً . . . ﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . وورد في الحديث « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

(٦٦) ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه ، لأن طباعهم مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن ، أو كان ، فكيف كان يكون ؟ وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » . وفي الحديث : « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » وفيه أيضاً أن رسول الله تلا هذه الآية وأشار بيده إلى عبدالله بن رواحة وقال : « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل » يعني ابن رواحة . ولهذا قال تعالى ﴿ ولو أنهم فعلوا ما

يوعظون به ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي . ﴿ وأشد تثبيتاً ﴾ أي وأشد تصديقاً .

(٦٧) ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ من لدنا ﴾ أي من عندنا . ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .

(٦٨) ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

﴿ ولهديناهم . . ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٦٩) ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

أي من عمل بما أمره الله به ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقاً للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة ، وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم . ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ وفي البخاري عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنه خُيِّر . وهذا معنى قوله في الحديث الآخر « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى ، عليه أفضل الصلاة والتسليم . وقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ : « يا فلان ما لي أراك محزوناً ؟ » فقال : يا نبي الله ، شيء فكرت فيه ، فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين ، فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ ومن يطع الله والرسول . . . ﴾ فبعث النبي ﷺ فبشره . وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ ، فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت : يا رسول الله ، أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أو غير ذلك ؟ » قلت : هو ذاك ، قال: « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

(٧٠) ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته ، وهو الذي أهلهم لذلك ، لا بأعمالهم . ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

(٧١) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله . ﴿ ثبات ﴾ أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسرية بعد سرية ، والثبات جمع ثبة ، وقد تجمع الثبة على ثبين . ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ يعني كلكم .

(٧٢) ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾

﴿ ليبطئن ﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أن يتباطأ هو في نفسه ، ويبطىء غيره عن الجهاد ، كما كان عبدالله بن أبي ابن سلول قبحه الله يفعل ، يتأخر عن الجهاد ، ويثبط الناس عن الخروج فيه . ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما في ذلك من الحكمة ﴿ قال قد أنعم الله علي . . . ﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال ، يعد ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل .

(٧٣) ﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم . ﴿ يا ليتني كنت معهم . . ﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه ، وهو أكبر قصده وغاية مراده .

(٧٤) ﴿ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ فليقاتل ﴾ أي المؤمن النافر . ﴿ في سبيل الذين يشرون . . ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله . . ﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله

مثوبة عظيمة ، وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين « وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة » .

٧٥ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء ، والصبيان المتبرمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ يعني مكة ، كقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ . ﴿ واجعل لنا من لدنك ولياً . . . ﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصراً . في البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين .

٧٦ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان . . ﴾ .

٧٧ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء فيهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة ، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿ وقالوا ربنا لم

كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإنه فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ﴾ عن ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: « إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم . . . ﴾ وقال أسباط عن السدي: لمن يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . . ﴾ وقوله تعالى ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ هو الموت. ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، وهذا تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد. قرأ الحسن ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ فقال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك. وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

(٧٨) ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: ﴿ كل من عليها فان ﴾ وقال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وقال تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، سواء جاهد، أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، ومقاماً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء. وقوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، وقيل: هي بروج في السماء، وهو ضعيف، والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر ولا تحصن من الموت. وقوله ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزرع وأولاد ونحو ذلك ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو

غير ذلك . ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك ، وبسبب اتباعنا لك ، واقتدائنا بدينك ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ . فأنزل الله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر . ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم ، وكثر جهل وظلم ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ .

(٧٩) ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته . ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وفي الحديث « لا يصيب الرجل خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله أكثر » وهذا حديث أرسله قتادة ، وقد روي متصلاً في الصحيح « والذي نفسي بيده ، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه» ﴿وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ أي تبلغهم شرائع الله ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً .

(٨٠) ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى، وفي الحديث «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين . ﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ما عليك منه ؟ إن عليك إلا البلاغ ، فمن اتبعك سعد ونجا ، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولى عنك خاب وخسر ، وليس عليك من أمره

شيء . وفي الحديث « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصي الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه » .

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿ بيت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك ، فقال تعالى ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد . والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزيهم على ذلك . ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي إصفح عنهم ، واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخف منهم أيضاً . ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه .

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن ، وناهياً لهم عن الاعراض عنه ، وعن تفهم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حق من حق . ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً أي اضطراباً وتضاداً كثيراً ، أي وهذا سالم من الاختلاف ، فهو من عند الله .

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

هذا إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة ، وفي الحديث « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » وفيه « نهى رسول الله ﷺ عن قيل وقال » أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين ، وفيه أيضاً « بئس مطية الرجل زعموا » وفيه « من حدث بحديث وهو يرى أنه

كذب فهو أحد الكاذبين » . وقوله ﴿ يستنبطونه ﴾ يستخرجونه من معادنه ، يقال : استنبط الرجل العين إذ حفرها أو استخرجها من قعورها . وقوله ﴿ لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ عن ابن عباس يعني المؤمنين . وعن قتادة يعني كلكم .

٨٤ ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه ، ولهذا قال ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ وقوله ﴿ وحرض المؤمنين ﴾ في الحديث قال لأصحابه : « قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا » حديث غريب أي حرضهم على القتال ، ورغبهم فيه ، وشجعهم عليه ، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سعيد ، من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة » قال : فعجب لها أبو سعيد ، فقال : أعدها علي يا رسول الله ، ففعل ، ثم قال رسول الله ﷺ « وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قال وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله »رواه مسلم . وقوله ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله ﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

٨٥ ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾

أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ، ومن يسعى في شر يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » ﴿ مقيتاً ﴾ أي حفيظاً ، أو شهيداً ، أو حسيباً ، أو المقيت المواظب ، أو الرزاق .

٨٦ ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾

أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ، فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة ، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : « وعليك » فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ ، فقال : « إنك لم تدع لنا شيئاً » قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ رواه ابن جرير . وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ . وأهل الذمة لا يُبدءون بالسلام ، ولا يزادون ، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سلم عليكم اليهود ، فإنما يقول أحدهم : السلام عليكم ، فقل : وعليك . وفي صحيح مسلم « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه » وفي الحديث « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

(٨٧) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ هذا إخبار بتوحيده ، وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات ، وقوله ﴿ ليجمعنكم إلى يوم . . ﴾ هذا قسم منه تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله . ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

(٨٨) ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا ، هم المؤمنون ، فأنزل الله : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة ، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث

الحديد » أخرجاه في الصحيحين . وقوله ﴿ والله أركسهم ﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ . ﴿ بما كسبوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل . ﴿ فلن تجد له سبيلاً ﴾ أي لا طريق إلى الهدى ، ولا مخلص له إليه .

(٨٩) ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم ، وبغضهم لكم . ولهذا قال : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا ﴾ أي تركوا الهجرة ، أو أظهروا كفرهم . ﴿ ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ أي لا توالوهم ، ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك .

(٩٠) ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

ثم استثنى الله من هؤلاء ، فقال : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم . وعن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال : لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد أسلم من حولهم قال سراقة : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه ، فقال النبي ﷺ : « دعوه ، ما تريد ؟ » قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « اذهب معه فافعل ما يريد » فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . . ﴾ وأنزل الله ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم . وقوله ﴿ أو جاؤكم حصرت صدورهم . . ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف ، وهم حصرة صدورهم ، أي ضيقة صدورهم مبغضين أن

يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم ، بل هم ، لا لكم ، ولا عليكم . ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم . ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ أي المسالمة . ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذٍ عن قتل العباس ، وأمر بأمره .

(٩١) ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك ، فإن هؤلاء قوم منافقون ، يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك . ﴿ أركسوا فيها ﴾ أي انهمكوا فيها ، والفتنة ههنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ المهادنة والصلح ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أي عن القتال ﴿ فخذوهم ﴾ أسراء ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أي بيناً واضحاً .

(٩٢) ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يقول تعالى : ليس للمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن

لا إلّه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . ﴿ ومن قتل مؤمناً . . ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شرط الكفارة أن تكون عتق رقبة مؤمنة ، فلا تجزىء الكافرة . والثاني الدية فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم ، وعن ابن مسعود قال : قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ : عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقة » وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى مبلغة الكلب . وهذا الحديث يؤخذ فيه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال . وقوله ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب . وقوله ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً ، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق . . ﴾ أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة ، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ، وقيل : ثلثها ، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ أي لا إفطار بينهما ، بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ؟ على قولين . وقوله ﴿ توبة من الله ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ ، أي إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا في من لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار على قولين ، أحدهما نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الاطعام لما فيه من التسهيل والترخيص ، والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ ﴿٩٣﴾

عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله عز وجل حيث يقول (والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً ، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الرياء » وفي الحديث أيضاً « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » ، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لهذه الآية وقال : هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء ، ولكن الذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول عن ظلامته ، قال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحمياً ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك . ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسليط أولياء المقتول عليه قال تعالى ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً : ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة . أقول : وأما في الآخرة فهو آثم ويعاقب على جريمته بقدرها ، ولا يخلدعلى الراجح ، ويمكن أن يتجاوز الله عنه بلا عقاب .

(٩٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم ، فقالوا : لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقوله ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس : عرض الدنيا تلك الغنيمة . وقوله ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أي خير مما رغبتم

فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان ، فتغافلتم عنه ، واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ أي كنتم من قبل تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه . وقوله ﴿ فتبينوا ﴾ تأكيد لما تقدم . وقوله ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

(٩٥) ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وكان فخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾ فصار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمي والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . وفي حديث البخاري عن أنس « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر » وقوله ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل ، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين ، بل هو فرض على الكفاية .

(٩٦) ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات في غرف الجنان العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحساناً منه وتكريماً ، ولهذا قال ﴿ درجات منه ومغفرة . . ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين كل درجتين كما بين

السماء والأرض » . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من رمى بسهم فله درجة » فقال رجل : يا رسول الله ؟ وما الدرجة ؟ فقال : « أما أنها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مائة عام » .

(٩٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

نزلت هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآية ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ بترك الهجرة ﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ؟ ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ في الحديث « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » وقال السدي : لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ : « افد نفسك وابن أخيك » فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « يا عباس ، إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .

(٩٨) ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾

هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ أي طريقاً .

(٩٩) ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

﴿ أن يعفو عنهم ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة . ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رفع يديه بعدما سلم وهو مستقبل القبلة فقال : « اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار » .

(١٠٠) ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

في هذه الآية تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة ، وملجأ يتحصن فيه . ﴿ مراغماً ﴾ مصدر ، وهو التحول من أرض إلى أرض ، والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراغم به الأعداء . ﴿ وسعة ﴾ يعني الرزق . قال قتادة : ﴿ يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى ، ومن القلة إلى الغنى . وقوله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً . . . ﴾ أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر ، كما ثبت في الصحيحين « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا عام في الهجرة، وفي جميع الأعمال . خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . ﴾ .

(١٠١) ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

﴿ ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم في البلاد ، كما قال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقوله ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أي تخففوا من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، وهل يشترط أن يكون السفر سفر طاعة من جهاد ، أو حج ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك ، أم لا يشترط أن يكون سفر قربة ، بل لا بد أن يكون مباحاً بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره ، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . وقال بعضهم يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق ، وإخافة السبيل ، وهذا قول أبي حنيفة . وأما قوله تعالى ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ﴾ عن يعلى بن أمية قال :

سألت عمر بن الخطاب ، قلت له : قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ وقد أمن الناس ، فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » .

١٠٢ ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

عن سالم عن أبيه قال ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو ، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى ، ثم سلم بها ، ثم قامت طائفة منهم فصلت ركعة ركعة . وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم ، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن الجماعة من الصحابة . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قولي الشافعي .

١٠٣ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

يأمر تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ، ولكن ههنا آكد ، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرم : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها ، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها . وقوله تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ أي فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وسجودها وجميع شؤونها . ﴿ كتاباً موقوتاً ﴾ أي مفروضاً . قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتاً كوقت الحج .

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠٤)

أي لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جدُّوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد . ﴿ إن تكونوا تألمون . . ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم ، كما قال تعالى ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك ، فأنتم أولى بالجهاد منهم ، وأشد رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه ، وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (١٠٥)

﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١٠٦)

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (١٠٧)

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هو الحق من الله ، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه . وقوله ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد ، وبما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليحملها أو ليذرها » . وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي ، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى النبي ﷺ ليلاً ، فقالوا : يا نبي الله ، إن صاحبنا بريء ، وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك

يهلك ، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب . . . ﴾ .

(١٠٨) ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

(١٠٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿ يستخفون من الناس . . ﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين .

(١١٠) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان ، وأخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال ، قال عبدالله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً ، فقال عبدالله رضي الله عنه : ما آتاكم الله خير مما آتاهم ، جعل الماء لكم طهوراً . وقال علي بن أبي طالب : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مسلم يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ ، ثم يصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له » وقرأ هاتين الآيتين ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه . . . ﴾ ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

(١١١) ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

وقوله تعالى ﴿ ومن يكسب إثماً . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ يعني أنه لا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت ، لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا

قال تعالى ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي من علمه وحكمته وعدله ورحمته كان ذلك .

١١٢ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

يعني اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح ، وهو لبيد بن سهل ، وقد كان بريئاً ، وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ .

١١٣ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

﴿ لهمت طائفة منهم أن يضلوك ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه لما أثنوا على بني أبيرق ، ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ . ثم امتن الله عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة ، وهي السنة . ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ ولهذا قال : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس . ﴿ إلا من أمر . . ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك . دخل سعيد بن حسان على سفيان الثوري فحدثه أن رسول الله ﷺ قال : « كلام ابن آدم كله عليه ، لا له إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر » فقال سفيان : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ﴾ فهو هذا بعينه ؟ أو ما سمعت الله يقول : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فهو هذا بعينه . وعن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ، أو يقول خيراً » ، وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم أفضل من درجة الصائم ، والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « إصلاح ذات البين » قال : « وفساد ذات البين هي الحالقة » . وعن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب : « ألا أدلك على تجارة ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « وتسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا » ولهذا قال : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً .

(١١٥) ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق ، وتبين له واتضح له . وقوله ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصبغة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع ، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم ، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كونه الإجماع حجة تحرم مخالفته،هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها . ولهذا توعد الله على ذلك بقوله : ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزينها له استدراجاً له ، كما قال تعالى ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا النار يوم القيامة .

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ

ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴾

عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به . . ﴾ وقوله ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه ، وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة .

(١١٧) ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴾

﴿ إلا إناثاً ﴾ عن أبي بن كعب قال : مع كل صنم جنيّة وعن عائشة قالت : أوثاناً . وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصور وهن جواري فحكموا وقلدوا : وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده ، يعنون الملائكة . قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ ، وقوله ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك ، وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾ وقال تعالى : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

(١١٨) ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

﴿ لعنه الله ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره . ﴿ وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ أي معيناً مقدراً معلوماً .

(١١٩) ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾

﴿ ولأضلنهم ﴾ أي عن الطريق . ﴿ ولأمنينهم ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم . ﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة . ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك خص الدواب . وقال الحسن البصري : يعني بذلك الوشم . وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه ، وفي لفظ « لعن الله من فعل ذلك » وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشمات

والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ابن مسعود : ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، وهو في كتاب الله عز وجل ؟ يعني قول الله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال ابن عباس في رواية عنه في قوله ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ يعني دين الله عز وجل ، وهذا كقوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ على قول من جعل ذلك أمراً ، أي لا تبدلوا فطرة الله ، ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون بها من جدعاء ؟ » وفي صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفائتها .

(١٢٠) ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كما قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

(١٢١) ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾

﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي هي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص ولا مناص .

(١٢٢) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى ﴿ والذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات . ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال . ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر ، وهو قوله ﴿ حقاً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

(١٢٣) ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب .. ﴾ ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان . والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب ، وصدقته الأعمال ، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له دعواه ، ولا كل من قال : إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان ، أي ليس لكم ولا لأهل الكتاب النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام . قال أبو بكر : يا رسول الله ، ما أشد هذه الآية ﴿ من يعمل سوءاً يجزيه ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء » . ﴿ ولا يجد لهم من دون الله .. ﴾ أي إلا أن يتوب فيتوب الله عليه .

(١٢٤) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

هذا بيان إحسانه سبحانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده : ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير ، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة ، والفتيل هو الخيط الذي في شق النواة ، والقطمير هو اللفافة التي على نواة التمرة .

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

﴿ أسلم وجهه لله ﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل إيماناً واحتساباً . ﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان شرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي أن يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة ، فيصبح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الاخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ويتجاوزوا عن سيئاتهم . ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وهم محمد وأتباعه يوم القيامة . والحنيف المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية ، لا يصده عنه صاد ، ولا يرده عنه راد . وقوله ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه الله فقال : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال كثير من العلماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفي كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير . وإنما سمي سيدنا إبراهيم خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل ، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : « أما بعد أيها الناس ، فلو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾

أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾

والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء ، فقد وسع الله عز وجل ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده ، أو في نفس الأمر فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه « في ماله الذي بينه وبينها » كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ : كانوافي الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله ﴿ لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ فنهى الله عن ذلك ، وبين لكل ذي سهم سهمه فقال : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ صغيراً كان أو كبيراً. ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها . ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ تهييجاً على فعل الخيرات ، وامتثالاً للأوامر ، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿١٢٨﴾ ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

يقول الله تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاق معها ، وتارة في حال فراقه لها ، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها ، أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها ، أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها ، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ ثم قال : ﴿ والصلح خير ﴾ أي من الفراق وهذه هي الحالة الثانية . وقوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ، عن ابن عباس

قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية ﴿ وإن امرأة خافت . . . ﴾ عن عروة عن عائشة أنها قالت له : يا ابن أختي ، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا ، وكان كل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها . . . » ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿ والصلح خير ﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه ، وفي الحديث « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وقوله ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا . . ﴾ أي وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن ، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن ، فإن الله عالم بذلك ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

(١٢٩) ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . وقد كان النبي ﷺ يحب عائشة أكثر من غيرها ، وكان يقسم بين نسائه ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب . وقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة ، لا ذات زوج ولا مطلقة . وفي الحديث « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهن جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » . وقوله ﴿ وإن تصلحوا . . ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان ميل إلى بعض النساء دون بعض .

(١٣٠) ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

وهذه هي الحالة الثالثة ، وهي حالة الفراق ، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هو خير له منها ، ويعوضها عنه من هو خير لها منه . ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المن ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

(١٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ

ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الحاكم فيهما ، ولهذا قال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له . ثم قال : ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض . . ﴾ كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ﴾ أي غني عن عباده ، محمود في جميع ما يقدره ويشرعه .

(١٣٢) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

أي هو قائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء .

(١٣٣) ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾

أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره ، وقال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي وما هو عليه بممتنع .

(١٣٤) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

أي يا من ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، كما قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ , فقوله تعالى ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة أي بيده هذا وهذا ، فلا يقتصر قاصد الحق على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ، ولهذا قال : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ .

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿١٣٥﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه . وقوله ﴿ شهداء لله ﴾ كما قال ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله فحينئذٍ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي اشهد الحق ، ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه . وقوله ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك ، فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق ، وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد . وقوله ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولىٰ بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما بل هو أولى بهما منك ، وأعلم بما فيه صلاحهما . وقوله ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، كما قال تعالى ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ومن هذا قول عبدالله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه ، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض . وقوله ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، واللّيّ هو التحريف وتعمد الكذب . والاعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، قال تعالى ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال النبي ﷺ : « خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسئلها » ولهذا توعدهم الله بقوله ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ﴿١٣٦﴾

ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي بصرنا فيه ، وزدنا هدى وتثبيتاً عليه ، فأمرهم بالإيمان وبرسوله ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ وقوله ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن ﴿ نزَّل ﴾ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

١٣٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله ، وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ، ولا طريقاً إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ .

١٣٨ ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يعني أن المنافقين من هذه الصفة ، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم .

١٣٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

ثم وصف المنافقين بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة ، يوالونهم ، ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزؤ ون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة ، قال تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله ، والاقبال على عبوديته ،

والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم في النار » .

﴿١٤٠﴾ ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه ، فلهذا قال تعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ أي في المأثم ، كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقوله ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين ، لا الزلال .

﴿١٤١﴾ ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم ﴿ فإن كان لكم فتح من الله ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قالوا ألم نكن معكم ﴾ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان ، كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أي ساعدناكم في الباطن ، وما ألوناهم خبالاً ولا تخذيلاً حتى انتصرتم عليهم ، قال السدي : ﴿ نستحوذ عليكم ﴾ نغلب عليكم ، كقوله ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ وهذا أيضاً تودد منهم إليهم ، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم . قال تعالى ﴿ فالله

يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي بعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة ، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا ، لما له في ذلك من الحكمة فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبتلى فيه السرائر ، ويحصل ما في الصدور . وقوله ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية ؟ ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ فقال علي رضي الله عنه : ادنه ادنه ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . وقال السدي : ﴿ سبيلاً ﴾ أي حجة . ويحتمل أن يكون المعنى : ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على الإيمان فاستأصلوهم : وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر ، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والاذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في المال .

(١٤٢) ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم كما قال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ وقوله ﴿ وهو خادعهم ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق ، والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة . وقوله ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ، لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ولا يعقلون معناها . عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة

وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ، فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة . . ﴾ وقوله ﴿ يراؤ ون الناس ﴾ أي لا إخلاص لهم ، ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . وفي الحديث « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » . وقوله ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون، ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعما يراد بهم من الخير معرضون .

(١٤٣) ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً ، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء ، وتارة يميل إلى أولئك . في الحديث « مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الغنمين ، إن أتت هؤلاء نطحتها ، وإن أتت هؤلاء نطحتها » .

(١٤٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم .
﴿ سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم .

(١٤٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾

الدرك الأسفل : بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي ينقذهم مما هم فيه ، ويخرجهم من أليم العذاب .

(١٤٦) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب الله عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص في

توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا . . . ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل ، وفي الحديث « اخلص دينك يكفك القليل من العمل » . ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة . ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ .

(١٤٧) ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه ، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله . ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾ أي من شكر شكر له ، ومن آمن من قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

(١٤٨) ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: ﴿إلا من ظلم﴾ وإن صبر فهو خير له ، وقال الحسن البصري : لا يدع عليه ، وليقل اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه ، قال مجاهد : هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول : أساء ضيافتي ولم يحسن . وعن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول الله ، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما يبتغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم تقبلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم » وفي الحديث « أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله » وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : « إن لي جاراً يؤذيني فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكل من مر به قال : مالك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم اللعنة ، اللهم اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك ، والله لا أوذيك أبداً .

(١٤٩) ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

أي إن تظهروا أيها الناس خيراً ، أو أخفيتموه ، أو عفوتم عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ، ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿ فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ ولهذا ورد في الأثر أن حملة

العرش يسبحون الله ، فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث « ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه » .

(١٥٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة ، وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية ، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس يقال : إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له : « زرادشت » ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب لكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الإيمان ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً .

(١٥١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾

ثم أخبر تعالى عنهم فقال ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ، لأنه ليس شرعياً ، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلاً ؛ وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوته . وقوله ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد نبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان الرسول ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة وخالفوه وكذبوه فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي .

(١٥٢) ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي بعثه الله ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل ، والعطاء الجميل ، فقال : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله . ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم ، أي إن كان لبعضهم ذنوب .

(١٥٣) ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

سأل اليهود رسول الله ﷺ ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم . وقوله ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة ، والأدلة القاهرة على يد موسى في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم فرعون ، وجميع جنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى ﴿ اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ﴾ واتخذوا العجل فجعل الله توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم متعبده فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، ثم أحياهم الله عز وجل ، وقال تعالى ﴿ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴾ .

(١٥٤) ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام فرفع الله على رؤوسهم جبلاً ، ثم الزموا فالتزموا وسجدوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ﴿وقلنا لهم ادخلوا

الباب سجداً ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً ، وهم يقولون حطة ، أي اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ، ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون : حنطة في شعرة ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت ، والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعا لهم ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل .

(١٥٥) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله ، أي بحججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام . وقوله ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم ، واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جماً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام . ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ ، أي في غطاء ، وهذا كقول المشركين ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ وقيل : معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم ، أي أوعيه للعلم قد حوته وحصلته ، قال تعالى ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فعلى القول الأول كانوا يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي لأنها في غلف وفي أكنة ، قال تعالى : بل هي مطبوع عليها بكفرهم ، وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان .

(١٥٦) ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾

﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ فقد رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا

المنصب قتلناه ، وهذا فهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، ومع كل هذه المعجزات كذبوه وآذوه بكل ما أمكنهم ، حتى كان عيسى ابن مريم لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمن ، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب بأن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه أن يقبض على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، وذهب نائب الملك بالمقدس هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ابن مريم ، وهو في جماعة من أصحابه فحضروه هناك ، فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه ، أو خروجه إليهم قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك . . . ﴾ فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه ، وتبجحوا في ذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو عيسى ابن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، وقال : إنه خاطبها . والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة . وقد أوضح الله الأمر وأظهره في القرآن العظيم فقال تعالى ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ، فمن ادعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلم هذه الدعوى من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل شاكين متوهمين .

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام جنابه ، ولا يضام من لاذ ببابه .

﴿ حكيماً ﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة والسلطان العظيم ، والأمر القديم .

(١٥٩) ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

قال بعضهم : معنى ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الاسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . وقال آخرون : معنى ذلك ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي ، والقول الأول أولى بالصحة لأنه المقصود من سياق الآي ، فعيسى باقٍ حي وسينزل قبل قوم القيامة ، وسيؤمن به أهل الكتاب قبل موته . وفي الحديث « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل الدجال ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » ، قال أبو هريرة : اقرؤ وا إن شئتم ﴿وإن من أهل الكتاب إلا . . ﴾ رواه مسلم . وروى البخاري قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت موسى وعيسى وإبراهيم ، فعيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » .

(١٦٠) ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم . وجميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة ، كما قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » وقوله : « وبصدهم عن سبيل الله . . ﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق ، وهذه سجية لهم متفقون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً كثيراً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى عليه الصلاة والسلام .

(١٦١) ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ج وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أي الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل ، وأكلوا أموال الناس بالباطل .

﴿١٦٢﴾ ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع . ﴿ والمؤمنون يؤمنون . . ﴾ أنزلت في عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسد بن سعيد وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام . ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ زكاة الأموال ، أو زكاة التقوى ، أو الأمرين معاً . ﴿ والمؤمنون بالله . . ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها. ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .

﴿١٦٣﴾ ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

قال جماعة من اليهود : يا محمد ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله هذه الآية . والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام .

﴿١٦٤﴾ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن ، وهم آدم وإدريس ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهرون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذا الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد ﷺ ، وقوله ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن ، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل ، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت : كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت : يا رسول الله ، من كان أولهم ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ، نبي مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلاً » . . . وقوله ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم . جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً

يقرأ ﴿ وكلم اللّهَ موسى تكليماً ﴾ ينصب لفظ الجلالة ، فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر ، وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام ، أو يكلم أحداً من خلقه ، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿ وكلم اللّهَ موسى تكليماً ﴾ فقال له : يا ابن اللخنا ، كيف تصنع بقوله تعالىٰ : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

أي يبشرون من أطاع الله ، واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره ، وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه ، وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى للمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ آخر « من أجل ذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه » .

١٦٦ ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

لما تضمن قوله تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك . . ﴾ إثبات نبوته ﷺ ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب ، وهو القرآن العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ولهذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدمة التي لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به كما قال تعالى ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبدالرحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا

بعمل ، ثم يقرأ قوله ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم : « إني لأعلم ، والله إنكم لتعلمون أني رسول الله » فقالوا : ما نعلم ذلك ، فأنزل الله ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك . . . ﴾ .

(١٦٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق ، وسعوا في صد الناس عن اتباعه ، والاقتداء به فهؤلاء خرجوا عن الحق ، وضلوا عنه ، وبعدوا منه بعداً عظيماً شديداً .

(١٦٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾

ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك ، وبالصد عن سبيله ، وارتكاب مآثمه ، وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿ ولا يهديهم طريقاً ﴾ أي سبيلاً إلى الخير .

(١٦٩) ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ إلا طريق جهنم ﴾ وهذا استثناء منقطع .

(١٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق ، والبيان الشافي من الله عز وجل ، فآمنوا بما جاءكم به ، واتبعوه يكن خيراً لكم ثم قال ﴿ وإن تكفروا فإن لله . . ﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم ، كما قال تعالى ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقوله ﴿ وكان الله عليماً ﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حكيماً ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(١٧١) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه من زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ وفي الحديث « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » وقوله ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً ، وتنزه وتقدس ، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إلٰه إلا هو ، ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ﴾ أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذنه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب للأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولَّد منه ، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها : كن فكان . والروح التي أرسل بها جبريل ، فكان عيسى بالكلمة ، قال مجاهد : ﴿ وروح منه ﴾ أي ورسول منه ، وقال غيره : ومحبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿ هذه ناقة الله ﴾ وفي قوله ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ وكما روي في الحديث الصحيح « فأدخل على ربي في داره » أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد . ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ، ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقوله ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿ له ما في السموات وما في الأرض . . ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبير ه وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة ، وولد ؟ قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ .

﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

﴿ لن يستنكف ﴾ لن يستكبر ، ﴿ ومن يستنكف عن عبادته . . ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكم العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف .

﴿١٧٣﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه . وقوله ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴾ أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿ فيعذبهم عذاباً أليماً . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين ، كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿١٧٤﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبهة ، ولهذا قال : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق ، وهو القرآن .

﴿١٧٥﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، أو اعتصموا بالقرآن . ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم . ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي طريقاً واضحاً ، قصداً قواماً ، لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات ، وفي الحديث « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » .

﴿١٧٦﴾ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا

تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يستفتونك في الكلالة ﴾ أي عن الكلالة . والكلالة مأخوذة من الاكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة : من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد ﴾ وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا . ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ أي مات ، قال تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقوله ﴿ ليس له ولد ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد ، ولكنه الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد . ويدل على ذلك قوله ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد له بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد ، بل ليس لها ميراث بالكلية . وقوله ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة ، وليس لها ولد أي ولا والد ، لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه ، كزوج ، أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ ، لما ثبت في الصحيحين « الحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فالأولى رجل ذكر » وقوله ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان فرض لهما الثلثان ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ، ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين ، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾ وقوله ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء . . ﴾ هذا حكم الصبيان من البنين وبني البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين . وقوله ﴿ يبين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه . وقوله ﴿ أن تضلوا ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .

تفسير سورة المائدة

روى الامام احمد عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء : ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وعن جبير بن نغير قال : حججت فدخلت على عائشة ، فقالت لي : يا جبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ، قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

أتى رجل عبدَالله بن مسعود فقال : اعهد اليّ ، فقال : إذا سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه . وقوله ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرم ، وما فرض وما حد في القرآن كله ، ولا تقدروا ولا تنكثوا ، قال زيد بن أسلم : هي ستة ، عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقد استبدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآيـة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ، ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب ابي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي واحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود . وقوله تعالى ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ هي الابل والبقر والغنم ، وقد استدل بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد روى ابو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد قال : قلنا : يا رسول الله ، تنحر الناقة ، وتذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » . وقوله ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ يعني بذلك الميتة

والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به مما هو مذكور في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم . . . ﴾ وقوله ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ والمراد بالأنعام ما يعم الإنس من الابل والبقر والغنم وما يعم الوحش كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الانس ما تقدم ، واستثنى من الوحش الصيد في حال الاحرام .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

﴿ شعائر الله ﴾ محارمه التي حرمها ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال ، وتأكيد اجتناب المحارم . وقوله تعالى ﴿ ولا الهدي ولا القلائد ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدى الكعبة فليجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الاتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً ، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلده ، وأهل للحج والعمرة وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ قال مقاتل بن حيان ﴿ ولا القلائد ﴾ فلا تستحلوها ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجرة فيأمنون . وقوله تعالى ﴿ ولا آمين البيت الحرام . . . ﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً ، وكذا من قصده طالباً فضل الله ، وراغباً في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . ﴿ فضلاً من ربهم ﴾ يعني التجارة . وقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ماكا محرماً عليكم في حال الاحرام من الصيد . والصحيح أن الأمر بعد الحظر يعود في الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي ، فإن كان واجباً رده واجباً ، وإن كان مستحباً

فمستحب ، أو مباحاً فمباح . وقوله تعالى ﴿ ولا يجرمنكم . . . ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ، فإن العدل واجب على كل احد في كل احد في كل حال ، والعدل به قامت السموات والأرض . وقوله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر . . ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات ، وهو التقوى ، ونهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم . وفي الحديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تحجزه وتمنعه من الظلم ، فذاك نصره » .

(٣) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك الا لما فيها من المضرة ، لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله عز وجل ، ويستثني من الميتة السمك ، فإنه حلال ، سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وهكذا الجراد . وقوله ﴿ والدم ﴾ يعني به المسفوح ، كقوله : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ وفي الحديث « أحل لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال » عن أبي أمامة : صدي بن عجلان قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الاسلام ، فأتيتهم ، فبينما نحن كذلك إذ جاؤ وا بوصفة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها ، فقالوا : هلم يا صدي فكل ، قال : قلت : ويحكم ، إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية﴿ حرمت عليكم الميتة والدم . . ﴾ ، قال : فجعلت أدعوهم إلى الاسلام ويأبون علي ، فقلت : ويحكم ، اسقوني شربة من ماء ، فإني شديد العطش ، قال : وعليّ عباءتي ، فقالوا :

لا ، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً ، قال : فاغتممت ، وضربت برأسي في العباء ، ونمت على الرمضاء في حر شديد ، قال : فأتاني آت في منامي بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه ، وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه ، فأمكنني منه فشربته ، فلما فرغت من شرابي استيقظت ، فلا والله ما عطشت ولا عريت بعد تيك الشربة ، رواه ابن مردويه، ورواه الحاكم في مستدركه ، وفي رواية ، فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم ، فلم تمجعوه بحذقة ، فأتوني بحذقة ، فقلت : لا حاجة لي فيها ، إن الله أطعمني وسقاني ، وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم . قوله ﴿ ولحم الخنزير ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، وفي الحديث « من لعب بالزدشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه » وقوله ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام ، كقوله ﴿ والمنخنقة ﴾ وهي التي تموت بالخنق ، إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخيل في وثاقتها فتموت به فهي حرام . ﴿ والموقوذة ﴾ وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ﴿ والمتردية ﴾وهي التي تقع من شاهق ، أو موضع عالٍ فتموت بذلك فلا تحل . وقوله تعالى ﴿ وما أكل السبع ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال فيها الدم ، ولو من مذبحها فلا تحل بالاجماع . وقوله ﴿ الا ما ذكيتم ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله ﴿ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ كانت النصب حجارة حول الكعبة ، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر اسم الله في الذبح عليها . وقوله ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور ، ﴿ ذلكم فسق ﴾ أي تـعاطي ذلك فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك ، والأزلام واحدها زلم ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب افعل ، وعلى الآخر لا تفعل ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد : أمرني ربي ، وعلى الآخر : نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد . وقوله ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم ، وفي الحديث الصحيح « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم اياهم ، واخشوني أنصركم عليهم ، وأبدهم ، وأظفركم بهم ، وأشف صدوركم

منهم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة . وقوله ﴿ اليوم أكملت لكم . . ﴾ هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة حيث اكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم ، ولهذا جعله الله خاتم النبيين ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال الا ما أحله ، ولا حرام الا ما حرمه، ولا دين الا ما شرعه وكل شيء اخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلق . وقوله ﴿ فمن اضطر . . ﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور رحيم ﴿ غير متجانف لاثم ﴾ أي متعاط لمعصية الله ، فإن الله قد أباح ذلك له . . وقد استدل بهذه الآية من يقول : بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي . والله اعلم .

(٤) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

لما ذكر الله ما حرمه في الآية المتقدمة من الجنائب الضارة لمتناولها اما في بدنه أو في دينه فيهما واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة قال بعدها : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم . . ﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم ، أو هي الحلال من الرزق . ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين ﴾ أي وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها . ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ وهو أنه اذا أرسل استرسل ، وإذا أشلا ، استشلى ، وإذا أخذ الصيد امسكه على صاحبه حتى يجيء اليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ فمتى كان الجارح معلماً ، وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت ارساله حل الصيد وإن قتله بالاجماع . ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إني أرسل الكلاب المعلمة ، وأذكر اسم الله ، فقال : « اذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال : « وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ، ولم تسم على غيره » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله » وفي رواية لهما « فإن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » فهذا دليل الجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، وهو إنه إذا

أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً . وقال بعض الناس المراد بهذه الآية ﴿ واذكروا اسم الله عليه ﴾ الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال : « سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا : يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : « سموا أنتم وكلوا » وروى مسلم وأهل السنن الا الترمذي عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء ، لفظ أبي داود .

(٥) ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ان ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم الا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس ، ودلت الآية ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب . . ﴾ بمفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل . وقوله ﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبدالله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه ، فجازاه النبي ﷺ بذلك ، فأما الحديث الذي فيه « لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك الا تقي » فمحمول على الندب والاستحباب . وقوله ﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم ﴾ فقيل : أراد بالمحصنات الحرائر دون الاماء ، والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا . ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي مهورهن ، أي كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس . ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ فكما شرط الاحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنا كذلك شرطها في الرجال ، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً ، ولهذا قال ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ، ولا يردون أنفسهم عما جاءهم ، ﴿ ولا متخذي أخدان ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون الا معهن .

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ أي وأنتم محدثون ، أو الآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب . وقد استدل طائفة من العلماء بقوله ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ على وجوب النية في الوضوء لأن تقدير الكلام ، فاغسلوا وجوهكم كلها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم ، أي له ، وقد ثبت في الصحيحين حديث « الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » ، وقوله ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ أي مع المرافق . وقوله ﴿ وامسحوا برؤ وسكم ﴾ الباء للالصاق وهو الأظهر ، أو للتبعيض وقوله ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ وفي الحديث « أسبغوا الوضوء ، ويل للأعقاب من النار » وفي البخاري عن عائشة قالت : سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً ، فأقبل أبو بكر ، فلكزني لكزة شديدة ، وقال : حبست الناس في قلادة فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني ، وقد اوجعني ، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . . ﴾ وقوله ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض ، وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وفي صحيح مسلم

« الطهور شطر الاعان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله اكبر تملأ ما بين السماء والأرض والصوم جنة والصبر جناء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وفي الحديث ايضاً « لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور » .

(٧) ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بدينه ، وإبلاغه عنه ، وقبوله منه فقال ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم ، كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر اهله ، وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ ، والانقياد لشرعه . ﴿ واتقوا الله ﴾ هذا تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ .

(٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل ، لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي بالعدل ، لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلا ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أكل ولدك نحلت مثله » ؟ قال : لا ، فقال : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » وقال : « إني لا أشهد على جور » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة . وقوله ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل احد صديقاً كان أو عدواً ، ولهذا قال : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه . ثم قال تعالى ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم

من أفعالكم التي عملتموها ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ولهذا قال بعده .

(٩) ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها بأعمالهم ، بل برحمة منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى مثيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة .

(١٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين كفروا . . ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل ، الحكيم القدير .

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً ، وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ ، فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبي ﷺ ، فقال : ما يمنعك مني ؟ قال : « الله عز وجل » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً ! من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول : « الله » قال : فشام الاعرابي السيف فدعا النبي ﷺ اصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه . وقصة هذا الاعرابي ، وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح . وعن ابن عباس في هذه الآية أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم ، فأوحى الله اليه بشأنهم ، فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابه فأتوه . وقال غير واحد : إنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمر بن حجاش بذلك ، وأمروه إن جلس رسول الله ﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤا عليه ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية . وقوله تعالى ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا اليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

(١٢) ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادةبالعدل ، وذكره نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه عليهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ، فقال تعالى ﴿ ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، وقد ذكر أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر أن يقيم نقباء من كل سبط نقيب . وقوله تعالى ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ أي بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ﴾أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وعزرتموهم ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق . ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لأكفرن عنكم سيئاتكم ﴾ أي ذنوبكم ، أمحوها وأسترها ، ولا أؤاخذكم بها . ﴿ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحذور ، وأحصل لكم المقصود . وقوله ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده ، وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال .

(١٣) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ، ونقضهم عهده فقال :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدناهم عن الحق ، وطردناهم عن الهدى ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي فسدت فهومهم ، وساء تصرفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، عياذاً بالله من ذلك ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه ، فلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قويمة ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله أن يهديهم . ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك .

(١٤) ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ، ومناصرته وموازرته ، واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تحرم الأخرى ، ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفر اليعقوبية ، وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية ، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل ، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(١٥) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن

كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض : عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم ، وأنه بعثه بالبينات ، والفرق بين الحق والباطل ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم . . . ﴾ أي يبين ما بدلوه وأولوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة في بيانه . ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم ، فقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

(١٦) ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ أي طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة ﴿ ويخرجهم من الظلمات . . . ﴾ أي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ، ويرشدهم إلى أقوم حالة .

(١٧) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم ، وهو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح . . ﴾ أي لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ؟ ثم قال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض . . ﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقه ، وهو القادر على ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

(١٨) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ

مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ثم قال تعالى رداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه ، وله بهم عناية ، وهو يحبنا ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد في المسند للإمام أحمد عن أنس قال : مر النبي ﷺ بنفر من أصحابه ، وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ . فأقبلت تسعى ، وتقول : ابني ابني ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار ، فقال النبي ﷺ : « لا والله ما يلقي حبيبه في النار » تفرد به أحمد . ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو فعال لما يريد ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي الجميع ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب إليه ، فيحكم في عباده بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور .

(١٩) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم محمداً ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ، ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال : ﴿ على فترة من الرسل ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي » . والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وتغير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمر عمم ، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، والطغيان والجهل

قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أحبار اليهود ، وعباد النصارى والصابئين ، وفي الحديث « وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل » ، وفي لفظ مسلم « من أهل الكتاب » . الحديث، وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء ، والشريعة الغراء . ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا فيه وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير ، وينذر بالشر ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ ، يعني محمداً ﷺ ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ معناه : إني قادر على عقاب من عصاني ، وثواب من أطاعني .

(٢٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم على خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم وإبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء ، يدعون إلى الله ، ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الاطلاق محمد بن عبدالله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ . وقوله ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله ، وفي الحديث « كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً » سأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص : ألسنا من فقراء المهاجرين فقال عبدالله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، فقال : إن لي خادماً ، قال : فأنت من الملوك . ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم .

(٢١) ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ

فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل لمن آمن منكم ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي ولا تنفكوا عن الجهاد . ﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ .

(٢٢) ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين . . ﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة ـ أريحاء ـ التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين ذوي قوة شديدة ، وأنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا طاقة لنا بهم .

(٢٣) ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا . ﴿ ادخلوا عليهم الباب . . ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم ، وأيدكم وظفر بهم . ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً .

(٢٤) ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها . . . ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ، ومخالفة لرسولهم ، وتخلف عن مقاتلة الأعداء ، وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤ وا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير ، وهم جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول الله ﷺ يقول : « أشيروا عليّ أيها المسلمون » وما

يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار ، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنايا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل أن يريك مناما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك . قال عبدالله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى رسول الله لا وهو يدعو على المشركين فقال : والله قال : يا رسول الله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله أشرق لذلك وسره ذلك .

٢٥ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام ، وقال داعياً عليهم ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ يعني اقض بيني وبينهم ، أو افصل بيننا وبينهم .

٢٦ ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائماً ، لا يهتدون للخروج منه ، وفيه كانت أمور عجيبة ، وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران ، وهناك نزلت التوراة ، وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ، وهناك تاهوا أربعين سنة كما قال تعالى ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ﴾ يصبحون كل يوم يسيرون ، ليس لهم قرار ، ثم كانت وفاة هرون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ : هذا وقف تام . وقوله ﴿ أربعين سنة ﴾ منصوب بقوله

﴿ يتيهون في الأرض ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون ، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجبل الثاني فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً ، وهم يقولون : « حطة » أي حط عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة . ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ هذا تسلية لموسى عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون لذلك .

٢٧ ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابن آدم لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً وحسداً فيما وهبه الله من النعمة ، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم . وقوله ﴿ بالحق ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا زيادة ولا نقصان . وقرب الشاة هابيل ، والطعام قابيل فجاءت نار فأكلت الشاة وتركت الزرع ، ومعنى قوله ﴿ يتقبل الله من المتقين ﴾ ، أي ممن اتقى الله في فعله ذلك .

٢٨ ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول له أخو الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه ﴿ لئن بسطت إليّ يدك . . ﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون وأنت سواء في الخطيئة ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل اصبر واحتسب . قال عبدالله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج ، يعني الورع . عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة

عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال : « كن كابن آدم » رواه الإمام أحمد والترمذي وفي رواية وتلا ﴿ لئن بسطت إليّ يدك . . . ﴾ .

(٢٩) ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي ، وذلك هو معنى قوله ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي ﴾ وأما معنى ﴿وإثمك ﴾ فهو إثمه يعني قتله ، وذلك كمعصية الله عز وجل في أعمال سواه . أي تتحمل إثمي وإثمك ﴿ فتكون من أصحاب النار . . ﴾ قال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

(٣٠) ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر . وقوله ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟ روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود .

(٣١) ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

بعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ، ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿ يا ويلتى أعجزت أن أكون . . ﴾ في الحديث « إن ابن آدم عليه السلام ضرب لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منها » .

(٣٢) ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كتبنا على بني إسرائيل ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد . . ﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ، ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ قال سعيد بن جبير : من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً . وقوله تعالى ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها .

٣٣ ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . . ﴾ المحاربة هي المضادة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الافساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر . والآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . روى البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة عن أنس أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوضحوا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها » ؟ فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا » هذا لفظ مسلم . وقوله تعالى ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا . . ﴾ عن ابن عباس فإمام المسلمين بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع يده ورجله ، ومسند هذا أنه ظاهر ﴿ أو ﴾ للتخيير . ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ أن ينفى من بلده إلى بلد آخر . ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا . . ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة . وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبدالله الشافعي ،

إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا فعلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض .

(٣٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

(٣٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها : ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ أي تقربوا إليه بطاعته ، والعمل بما يرضيه ، والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » . وقوله ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ لما أمرهم بترك المحارم ، وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ، ولا تحول ، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها ، الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم ، لا ييأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .

(٣٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكافرين من العذاب والنكال يوم القيامة فقال : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً . . . ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله

إليه ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ، ولا محيص له ، ولا مناص . ولهذا قال : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي موجع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ﴿٣٧﴾

أي فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع من حديد فيردوهم إلى أسفلها كما قال تعالى ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية ، فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله السارق ، يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره . وقد أجاب الجمهور عن الحديث : « يسرق البيضة فتقطع يده . . . » بأنه منسوخ ، أو أنه مؤول ببيضة الحديد ، وحبل السفن ، أو أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويحتمل أنه خرج مخرج الأخبار عما كان عليه الأمر في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير . ﴿ جزاء بما كسبا . . . ﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ والله عزيز ﴾ في انتقامه . ﴿ حكيم ﴾ في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٣٩﴾

أي من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم ، أو بدلها عند الجمهور وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت يده فإنه لا يرد بدلها .

روى ابن جرير أن امرأة سرقت حلياً فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، سرقتنا

هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى » فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . . ﴾ .

(٤٠) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أي هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذي لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد .

(٤١) ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات إلى رقم (٤٤) في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ أي أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ أعداء الاسلام وأهله ، وهؤلاء كلهم ﴿ سماعون للكذب ﴾ أي مستجيبون له ، منفعلون عنه ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ أي يستجيبون لأقوام آخرين ، لا يأتون مجلسك يا محمد ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها نزلت في اليهوديين الذين زنيا ، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن فحرفوه ، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والاركاب على حمارين مقلوبين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا: فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم

فخذوا عنه ، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك . ولهذا قالوا ﴿ إن أوتيتم هذا ﴾ أي الجلد والتحميم ﴿ فخذوه ﴾ أي اقبلوه ﴿ وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أي من قبوله واتباعه . قال تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . . ﴾ .

(٤٢) ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

﴿ سماعون للكذب ﴾ أي للباطل . ﴿ أكالون للسحت ﴾ أي الحرام ، وهو الرشوة ، ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، وأنى يستجيب له ؟ ﴿ فإن جاؤ وك ﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿ فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم ، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما يوافق أهواءهم . ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل .

(٤٣) ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائفة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً ، ثم خرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة . . . ﴾ .

(٤٤) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ، ولا يبدلونها ولا يحرفونها . ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أي وكذلك الربانيون

منهم ، وهم العلماء العباد ، والأحبار وهم العلماء ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ أي لا تخافوا منهم ، وخافوا مني ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . . . ﴾ عن ابن عباس : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير . ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ عن ابن عباس قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ، وعن طاوس قال : ليس بكفر ينقل عن الله .

٤٥ ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود ، وقرعوا عليه . فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والاشهار ، ولهذا قال هناك : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال هنا : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم . وقد استدل بقوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . . ﴾ كثير من الأصوليين والفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا . وقوله تعالى ﴿ والجروح قصاص ﴾ عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح . ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ يقول : فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب ، وأجر للطالب ، ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به . وفي الحديث « من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى أن يموت » .

٤٦ ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وقفينا ﴾ أي وأتبعنا ﴿ على آثارهم ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي مؤمناً بها ، حاكماً بما فيها ﴿ وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ أي هدى إلى الحق ، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات ، وحل المشكلات ﴿ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الانجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ أي وجعلنا الانجيل هدى يهتدى به ، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم ، والمآثم . ﴿ للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

(٤٧) ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

أي ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ولذلك قال ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق . وهذه الآية نازلة في النصارى وهو ظاهر من السياق .

(٤٨) ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

لما ذكر التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ومدحها ، وأثنى عليها ، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الانجيل ومدحه ، وأمر أهله بإقامته ، واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً

عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً أي لكائناً لا محالة ولا بد . وقوله تعالى ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ المهيمن : الأمين ، والقرآن أمين على كل كتاب قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل . أو مهيمناً : شهيداً ، أو حاكماً على ما قبله من الكتب ، وهذه الأقوال متقاربة ، فقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، أشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم . وقوله : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله . ﴿ عما جاءك من الحق ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ أي سبيلاً وسنة ، ففي التوراة شريعة ، وفي الانجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والاخلاص لله . ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ أي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ، لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ، ثم نسخها ، أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم . وقوله ﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله . ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ وهي طاعة الله ، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله . ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق ، فيجزي الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة .

(٤٩) ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾

﴿ وأن احكم بينهم . . . ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، والنهي عن خلافه . ﴿ واحذرهم أن . . . ﴾ أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم ، فإنهم كذبة كفرة ، خونة ﴿ فإن تولوا ﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أي أن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ، ناكبون عنه كما قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٥٠) ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله الحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم قال تعالى ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ؟ ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به ، وأيقن ، وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . روىٰ الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الاسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه » وروى البخاري عن أبي اليمان باسناده نحوه بزيادة .

(٥١) ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده والمؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الاسلام

وأهله قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد ، وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر ، وقال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ؟ فقال : إنه لا يستطيع ، فقال عمر : أجنب هو؟ قال : لا ، بل نصراني ، قال : فانتهرني وضرب فخذي ثم قال : أخرجوه ، ثم قرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . ﴾ قال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي إنه الذبح ، وقيل : نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول فقد جاء عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبدالله بن أبي ابن سلول : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن أبي : يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » قال : قد قبلت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . ﴾ الآيتين .

(٥٢) ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾

﴿مرض﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿ يسارعون فيهم ﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك . قال تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ يعني فتح مكة ، أو القضاء والفصل . ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود ﴿ فيصبحوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين . ﴿ على ما أسروا في أنفسهم ﴾ من الموالاة نادمين ، أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذوراً ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ، ولذلك قال :

﴿٥٣﴾ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

﴿٥٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة إنه من تولى عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة ، وأقوم سبيلاً ، كما قال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾ وقال ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع ولا صعب . وقوله تعالى ﴿ من يرتد منكم عن دينه ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل . ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت ﴿ فسوف يأتي الله . . . ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هذا » رواه ابن أبي حاتم ، ورواه ابن جرير بنحوه . وقوله تعالى ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متعززاً على خصمه وعدوه كما قال تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل . عن أبي ذر قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين ، والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم ، وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش . رواه الامام أحمد . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه ، أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم » . تفرد به الامام أحمد . وثبت في الصحيح « ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » قالوا : وكيف يذل

نفسه يا رسول الله ؟ قال : « يتحمل من البلاء ما لا يطيق » ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .

٥٥ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾

أي ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الاسلام ، وهي له وحده لا شريك له . وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ، ومساعدة المحتاجين من الضعفاء والمساكين .

٥٦ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ هو كقوله تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة ، وهذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت حين تبرأ من حلف اليهود ، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

٥٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هذا تنفير من موالاة أعداء الاسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهي شرائع الاسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي يتخذونها ﴿ هزواً ﴾ يستهزئون بها ﴿ ولعباً ﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، والمراد بالكفار هنا المشركون . وقوله ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً .

٥٨ ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي

الألباب . ﴿ اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات اتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص ـ أي خراط ـ حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى التأذين أقبل ، فإذا ثوب للصلاة أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام . متفق عليه .

﴿٥٩﴾ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن . . . ﴾ أي هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . وهو كقوله تعالى ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وكقوله ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ وفي الحديث المتفق عليه : « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله » ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾ أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم .

﴿٦٠﴾ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُولَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ من لعنه الله ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أهي مما مسخ الله ؟ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً ، أو قال : لم يمسخ قوماً ، فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، والمعنى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله ، وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا ؟ وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر . ولهذا قال ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ أي مما تظنون بنا . ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة كقوله تعالى

﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴾

﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر . . ﴾ وهذه صفة المنافقين فيهم ، يصانعون المؤمنين في الظاهر ، قُلوبهم منطوية على الكفر ، ولهذا قال : ﴿ وقد دخلوا ﴾ أي عندك يا محمد ﴿ بالكفر ﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا ، وهو كامن فيها ، ولم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، ولهذا قال ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فخصهم به دون غيرهم . ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم ، وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة ، أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء .

٦٢ ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي الاثم والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ أي لبئس العمل كان عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

٦٣ ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

يعني هلّا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك ، والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط . ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني من تركهم ذلك . عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار . . . ﴾ وكذا قال الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها ، إنا لا ننهى . خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع

رزقاً ، ولا يقرب أجلاً . وفي الحديث « ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي ، هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب » . رواه الامام أحمد .

٦٤ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه ـ تعالى الله علواً كبيراً ـ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير ، وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أي بخيلة ، والذي قال هذا : شاس بن قيس من اليهود . وقد رد الله عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه فقال ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن ما عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ ﴿ بل يداه مبسوطتان . . . ﴾ أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا كما قال ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ وفي الحديث « إن عين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في عينيه ـ قال ـ وعرشه على الماء ، وفي يده الأخرى الغيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض » وقوله ﴿ وليزيدن كثيراً . . . ﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً ، وعلماً نافعاً ، يزداد به الحاسدون لك ، ولأمتك ﴿ طغياناً ﴾ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ﴿ وكفراً ﴾ أي تكذيباً كما قال تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وألقينا

بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم : بعضهم في بعض دائماً ، لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك . ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب . . . ﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله ، ورد كيدهم عليهم ، وحاق مكرهم السيء بهم ﴿ ويسعون في الأرض فساداً . . . ﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الافساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته .

(٦٥) ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لكفرنا عنهم . . . ﴾ أي لأزلنا عنهم المحذور ، وأنلناهم المقصود .

(٦٦) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو القرآن . ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه ، والأمر باتباعه حتماً لا محالة . وقوله ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء ، والنابت لهم من الأرض ، قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ منهم أمة مقتصدة . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

(٦٧) ﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ، عن عائشة قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت :

« لو كان محمد كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ وقوله ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته . وقوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك . قالت عائشة : كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : « يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمنا الله عز وجل » . وقوله ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي بلغ أنت ، والله الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء .

(٦٨) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ أي من الدين ﴿ حتى تقيموا التوراة والانجيل ﴾ أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمد ﷺ ، والأمر باتباعه ﷺ ، والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته . ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنك ذلك منهم .

(٦٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم المسلمون . ﴿ والذين هادوا ﴾ وهم حملة التوراة . ﴿ والصابئون ﴾ طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين . والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت صالحاً ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلون ، ولا على ما تركوه وراء ظهورهم ، ولا هم يحزنون .

(٧٠) ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ

فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾

يذكر الله تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق ، واتبعوا آراءهم وأهواءهم ، وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردوه ، ولهذا قال : ﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى . . . ﴾ .

٧١ ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق ، وصموا ، فلا يسمعون حقاً ، ولا يهتدون إليه ، ثم تاب الله عليهم ، أي مما كانوا فيه ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾ أي بعد ذلك ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

٧٢ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله ـ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ـ وأول كلمة نطق بها المسيح وهو صغير : ﴿ إني عبد الله ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله . وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ أي فقد أوجب له النار ، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي ما للظالمين عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم فيه . في الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً في الناس ، إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة .

٧٣ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وذلك قول النصارى بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً . وقوله تعالى ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أي ليس متعدداً ، بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات ، وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب ﴿ ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال .

(٧٤) ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ أفلا يتوبون إلى الله . . . ﴾ هـذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والافك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

(٧٥) ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

أي المسيح أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال تعالى ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ وقوله ﴿ وأمه صديقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست نبية . وقوله ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس ، وليسا بآلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ أنظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها . ﴿ ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ، وبأي قول يتمسكون ، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون .

(٧٦) ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبيناً له أنها لا

تستحق شيئاً من الإلهية فقد قال تعالى ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم . ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا يعلم شيئاً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه .

٧٧ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

﴿ لا تغلوا في دينكم ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً . ﴿ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

٧٨ ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه ، عن ابن عباس : لعنوا في التوراة والانجيل وفي الزبور وفي الفرقان .

٧٩ ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . . . ﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ » وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فقال : « لا ، والذي نفسي بيده

حتى تأطروهم على الحق أطراً » وروى أبو داود عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن الرجل كان يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فاسقون ﴾ ثم قال : كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو تقصرنه على الحق قصراً » وكذا رواه الترمذي وابن ماجه .

﴿٨٠﴾ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾

﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ﴾ يعني بذلك المنافقين . وقوله ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم ميعادهم ، ولهذا قال ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ ثم أخبر عنهم فقال : ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ يعني يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر المسلمين ، إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال : ثلاثاً في الدنيا ، وثلاثاً في الآخرة ، فأما التي في الدنيا ، فإنه يذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، وأما التي في الآخرة ، فإنه يوجب سخط الرب ، وسوء الحساب ، والخلود في النار » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم . . . ﴾ ورواه ابن مردويه .

﴿٨١﴾ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾

أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزله إليه ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿٨٢﴾ ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ

ليسمعوا كلامه ، ويروا صفاته ، فلما رأوه ، وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قوله تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس . . . ﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر وعناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين . وفي الحديث : « ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله » قوله تعالى ﴿ ولتجدن أقربهم مودة . . . ﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح ، وعلى منهاج انجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، وليس القتال مشروعاً في ملتهم ، ولهذا قال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً . . . ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون ، وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهي الخوف .

(٨٣) ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به . أو مع محمد ﷺ وأمته ، لأنهم هم الشاهدون له يشهدون لنبيهم أنه بلغ ، وللرسل أنهم بلغوا .

(٨٤) ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

هؤلاء كانوا كرابين أي فلاحين ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا ، وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » ؟ فقالوا : لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله . . . ﴾ .

(٨٥) ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أي فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ وذلك جزاء المحسنين ﴾ أي

في اتباعهم الحق ، وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان .

﴿٨٦﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي هم أهلها ، والداخلون بها .

﴿٨٧﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكني أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » وعن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت عليّ اللحم فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . . ﴾ . وقد ذهب جماعة من العلماء منهم الامام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً ، أو شيئاً من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، وذهب كثير من العلماء منهم الشافعي إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً . وقوله ﴿ ولا تعتدوا ﴾ أي لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، أو لا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

﴿٨٨﴾ ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه .

﴿٨٩﴾ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ

ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

لغو اليمين قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله ، وبلى والله ، وهذا مذهب الشافعي ، وقيل : على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿ ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الأيمان ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾ يعني مما يجد من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين . ﴿ أو كسوتهم ﴾ قال الشافعي : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك ، واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزىء أم لا ؟ على وجهين ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أخذ أبو حنيفة باطلاقها ، فقال : تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب ، وإن اختلف السبب . فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفَّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ ولا يجب تتابعها عند الامام الشافعي ، ويجب التتابع عند أبي حنيفة والحنابلة . ﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ معناه : لا تتركوها بغير تكفير . ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي يوضحها ويفسرها .

(٩٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر ، وهو القمار ، وعن علي رضي الله عنه أن الشطرنج من الميسر ، وقيل : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان ، وعن سعيد بن المسيب كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين ، وعن الأعرج قال : الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار ، وفي صحيح مسلم : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه » وفي موطأ مالك ومسند أحمد « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » . وأما الشطرنج فقد قال عبدالله بن عمر : إنه شر من النرد، وعن علي هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله . وأما الأنصاب فهي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هي القداح ، كانوا

يستقسمون بها . وقوله تعالى ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ أي سخط من عمل الشيطان ، أو شر من عمل الشيطان ﴿ فاجتنبوه ﴾ أي اتركوا الرجس ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وهذا ترغيب .

(٩١) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع . . . ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وهم يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ فقال الناس : ما حرما علينا ، إنما قال ﴿ فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين ، أمَّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة ، وهو مغبن ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس . . . ﴾ قالوا انتهينا ربنا .

(٩٢) ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(٩٣) ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح . . . ﴾ عن عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر ، فإنها الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جارتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة ، عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليّ ، أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأساً ، فقال : زيدوني ، فلم يرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه . رواه

البيهقي ، وإسناده صحيح ، وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

﴿٩٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾ عن ابن عباس هو الضعيف من الصيد ، وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم ، حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه . وقال مجاهد ﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿ ورماحكم ﴾ يعني كباره ، وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن فعله ، وهم محرمون ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ أي بعد هذا الاعلام والانذار والتخويف ﴿ فله عذاب أليم ﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه .

﴿٩٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الاحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ، ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » قال أيوب : فقلت لنافع : فالحية ؟ قال : الحية لا شك فيها ، ولا يختلف في قتلها ، ومن العلماء من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر

والفهد ، لأنها أشد ضرراً منه والله أعلم . وقوله ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ . الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه ، وقال الزهري : دل الكتاب على العامد ، وجرت السنة على الناسي . ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله ﴿ ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العمد ، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف ، والاتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم والمخطىء غير ملوم . وقوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ في الآية دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الانسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً ، أو غير مثلي ، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه ، وإن شاء اشترى به هدياً ، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز . وقوله ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل ، أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين . وقوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ، ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة . ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والاطعام والصيام ، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر (أو) بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيقوَّم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ثم يشترى به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز . وقال أبو حنيفة وأصحابه يطعم كل مسكين مُدَّين . واختلفوا في مكان هذا الاطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد ، أو أقرب الأماكن إليه ، وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم ، وإن شاء أطعم في غيره . ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الاسلام ، واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية . ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الاسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾

والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وقوله ﴿ ذو انتقام ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

﴿٩٦﴾ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ أحـل لكم صيد البحر ﴾ أي ما يصطاد منه طرياً . ﴿ وطعامه ﴾ ما لفظه ميتاً ، أو كل ما فيه ﴿ وللسيارة ﴾ وهم جمع سيار ، لمن كان بحضرة البحر والسفر وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك .

﴿٩٧﴾ ﴿ ۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿٩٨﴾ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿٩٩﴾ ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

لم يتعرض ابن كثير لتفسير هذه الآيات الثلاث .

﴿١٠٠﴾ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك ﴾ أي يا أيها الانسان ﴿ كثرة الخبيث ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال النبي ﷺ : « قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » ، ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ، ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والاخرة .

(١٠١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً ، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر ، فقال : « لا تسألوني اليوم عن شيء ! إلابينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلًّا لافاً رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحي ، فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله ، من أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » قال : ثم قام عمر ، أو قال : فأنشأ عمر ، فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذاً بالله ، أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن ، قال : وقال رسول الله ﷺ : « لم أر في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » أخرجاه من طريق سعيد ، قال الزهري : فقالت أم عبدالله بن حذافة : ما رأيت ولداً أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية ، فتفضحها على رؤوس الناس ، فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك . وفي الحديث الصحيح « ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على انبيائهم » وفي الحديث الصحيح أيضاً « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

(١٠٢) ﴿ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾

أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين ، أي بسببها ، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها ، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه الاستهزاء والعناد . عن ابن عباس في الآية أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال : « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد فقال يا

رسول الله : أفي كل عام ؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال : « والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، وإذاً لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه » فأنزل الله هذه الآية ، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك ، وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا ، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه . رواه ابن جرير .

(١٠٣) ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

في البخاري عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شيء ، قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب » والوصيلة : الناقة البكر ، تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تثني بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي » وكذا رواه مسلم والنسائي . ﴿ ولكن الذين كفروا . . . ﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركين افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم ، وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه ، وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ﴾ أي لا يفهمون حقاً ، ولا يعرفونه ، ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم ، وأضل سبيلاً .

(١٠٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً . ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ نصب على الاغراء ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم . . . ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وليس فيه دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً ، روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم تقرؤ ون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه» . وروى الترمذي أن أبا أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سُئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » قال عبدالله بن المبارك وزاد غير عتبة بن أبي حكيم ، قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، سأله رجل عن قول الله ﴿ عليكم أنفسكم . . . ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها ، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم فحينئذٍ ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

(١٠٦) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ ، وقال آخرون ، وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير : بل هو محكم ، ومن ادعى نسخه فعليه البيان . ﴿ ذوا عدل ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين . ﴿ منكم ﴾ من المسلمين ، وقيل : من أهل الموصي . ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ، أو من غير قبيلة الموصي ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ؛ أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ يعني صلاة العصر ، أو صلاة المسلمين ، أو صلاة أهل دينهما ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي فيحلفان بالله ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا ، أو غلا فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لا نشتري به ﴾ أي بأيماننا ﴿ ثمناً ﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا نحابيه ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها ، وتعظيماً لأمرها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية .

(١٠٧) ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا ، أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك ﴿ فآخران يقومان مقامهما . . . ﴾ أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولي من يرث ذلك المال ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ أي لقولنا : إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿ إنا إذاً لمن الظالمين ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما ، وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه .

(١٠٨) ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي يكون الحاصل لهم على الاتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه، وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

(١٠٩) ﴿ * يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ وقول الرسل ﴿ لا علم لنا ﴾ إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم أو قالوا ذلك لأنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا ﴿ لا علم لنا ﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم . وعن ابن عباس : يقولون للرب عز وجل : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، ولا شك أن هذا قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء ، المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك ﴿ أنت علام الغيوب ﴾ .

(١١٠) ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يذكر الله ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات، وخوارق العادات فقال: ﴿ اذكر نعمتي عليك ﴾ أي في خلقي إياك من الأم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وعلى والدتك ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون

إليها من الفاحشة ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي تدعو إلى الله في صغرك وكبرك، وضمَّن ﴿ تكلم ﴾ تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ أي الخط والفهم ﴿ والتوراة ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿ فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه . ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته ﴿ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك . . . ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ، ورفعتك إليّ ، وطهرتك من دنسهم ، وكفيتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة ، وعبر بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ .

(١١١) ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ، ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين . . . ﴾ أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، واستجابوا لك ، وانقادوا ، وتابعوك فقالوا : ﴿ آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون ﴾ .

(١١٢) ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هذه قصة المائدة ، وإليها تنسب السورة ، فيقال : سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرة ، وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الانجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين فالله أعلم . ﴿ إذ قال الحواريون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ، ويتقوون بها على العبادة ﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين .

﴿١١٣﴾ ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

﴿ قالوا نريد أن نأكل منها ﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ أي ونزداد إيماناً بك ، وعلماً برسالتك ﴿ وتكون عليها من الشاهدين ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به .

﴿١١٤﴾ ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ ، قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يوماً نصلي فيه ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا ﴿ وآية منك ﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقيني فيما أبلغه عنك ﴿ وارزقنا ﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب .

﴿١١٥﴾ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ أي من عالمي زمانكم .

﴿١١٦﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ

سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلّهين من دون الله ﴿ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلّهين من دون الله ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد ، ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ هذا توفيق للأدب في الجواب الكامل ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ، ولا أردته لنفسي ، ولا أضمرته ، ولهذا قال ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . . . ﴾ .

﴿١١٧﴾ ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾

﴿ ما أمرتني به ﴾ أي بإبلاغه ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به ، وأمرتني بإبلاغه ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم . . ﴾ عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكن يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ . فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » رواه أبو داود الطيالسي ، ورواه البخاري عند هذه الآية .

﴿١١٨﴾ ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا له أنداداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ، ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً » .

(١١٩) ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ أي يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين فيها ، لا يحولون ولا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول : سلوني سلوني أعطكم قال : فيسألونه الرضا ، فيقول : رضاي ، أحلكم داري ، وأنيلكم كرامتي ، فسلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا ، قال : فيشهدهم أنه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وكما قال ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

(١٢٠) ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

﴿ لله ملك السموات . . . ﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ، ولا إله غيره ولا رب سواه . عن عبدالله بن عمر قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة .

تفسير سُورَةُ الأنعَامِ

عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ، ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » قال الحاكم في مستدركه : صحيح على شرط مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، وحامداً لها على خلقه السماوات والأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ، ووحّد لفظ النور لكونه أشرف ، كقوله ﴿ عن اليمين وعن الشمائل ﴾ وقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق عن سبيله ﴾ ثم قال ﴿ والذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ أي ومع هذا كله كفر بعض عباده ، وجعلوا له شريكاً وعدلاً ، واتخذوا له صاحبة وولداً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني أباهم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني الموت ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ يعني الآخرة ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ تشكون في أمر الساعة .

(٣) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ اختلف مفسروا هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين : ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ : بأنه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك ، فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله في السماوات وفي الأرض ، أي يعبده ويوحده ويقر له بالإلٓهية من في السماوات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقولِه سبحانه ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي هذا إلهُ من في الأرض

وإلهُ من في السماء فيكون قوله ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خبراً ، أو حالاً . أو المراد أنه الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سر وجهر فيكون قوله ﴿ يعلم ﴾ متعلقاً بقوله ﴿ في السماوات وفي الأرض ﴾ تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون ، أو أن قوله ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ وقوله ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

(٤) ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آية ، أي دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها .

(٥) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن وليذوقن وباله .

(٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾

ثم قال واعظاً لهم ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً في الأرض وعمارة لها فقال ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أي من الأموال والأولاد والإعمار والجاه العريض والسعة والجنود ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴾ أي شيئاً بعد شيءٍ ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أي استدراجاً وإملاءً لهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أي فذهب الأولون كأمس الذاهب ، وجعلناهم أحاديث ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

(٧) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ وهذا كما قال الله مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ وكقوله ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ .

(٨) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ ليكون معه نذيراً ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم العذاب من السماء .

(٩) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أن يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعوا بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون .

(١٠) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذب من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة .

(١١) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ قل سيروا . . . ﴾ أي فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿١٢﴾ ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي » . ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿ إلى ميقات يوم معلوم ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم .

﴿١٣﴾ ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

أي كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده ، وخلقه ، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ، لا إلّه إلا هو ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

﴿١٤﴾ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم ، وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط مستقيم ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ كقوله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ وعن أبي هريرة قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال : « الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ، ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب ،

وكسانا من العري ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مودع ربي ، ولا مكفيّ ، ولا كفور ، ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العري ، وهدانا من الضلال ، وبصرنا من العمى ، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العالمين » ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ أي من هذه الأمة .

﴿١٥﴾ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿١٦﴾ ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ عنه ﴾ عن العذاب ﴿ يومئذٍ فقد رحمه ﴾ يعني فقد رحمه الله ﴿ وذلك هو الفوز المبين ﴾ كقوله ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ والفوز حصول الربح ، ونفي الخسارة .

﴿١٧﴾ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ وإن يمسسك الله بضر . . . ﴾ كقوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

﴿١٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

ولهذا قال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ أي وهو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه ، وتحت قهره وحكمه ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي في جميع أفعاله ﴿ الخبير ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلا من يستحق ، ولا يمنع إلا من يستحق .

(١٩) ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

أي من أعظمُ الأشياء شهادة ؟ ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به ، وما أنتم قائلون لي ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو نذير لكل من بلغه كقوله ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ عن محمد بن كعب في قوله ﴿ ومن بلغ ﴾ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ ، زاد أبو خالد : وكلمه . وفي الحديث « بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » . ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ أيها المشركون ﴿ أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ كقوله ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ ﴿ قل إنما هو إلّه واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ .

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار ، والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، والأنبياء ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته ، وصفته ، وبلده ، ومهاجره وصفة أمته ، ولهذا قال بعده ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خسروا كل الخسارة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه .

(٢١) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أي لا أظلم ممن تقوَّل على الله ، فادعى أن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يفلح هذا ، ولا هذا المفتري ولا المكذب .

(٢٢) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ كقوله في سورة القصص ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ .

(٢٣) ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ أي حجتهم ، أو بليتهم حين ابتلوا ، وقال ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قبلهم عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ .

(٢٤) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ أنظر كيف كذبوا . . . ﴾ كقوله ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل على قلوبهم أكنة ، أي أغطية ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً عن السماع النافع لهم ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف ، كقوله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم .

(٢٦) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ في معنى ﴿ينهون عنه﴾ قولان، أحدهما أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ﷺ والانقياد للقرآن ﴿ وينأون عنه ﴾ أي ويبعدون هم عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ، ولا يدعون أحداً ينتفع . والقول الثاني عن ابن عباس ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ قال : نزلت في أبي طالب ، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى . وقوله ﴿ وينأون عنه ﴾ أي يتباعدون منه ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع ، ولا يعود وباله إلا عليهم ، وهم لا يشعرون .

﴿٢٧﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا . . . ﴾ يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ، ويكونوا من المؤمنين .

﴿٢٨﴾ ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها في الدنيا ، أو في الآخرة كما قال قبله بيسير ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ، ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت فقال ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب فظهر لهم حينئذ غير ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق ، والشقاق . والله أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان .

﴿٢٩﴾ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

أي ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه ، ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن مبعوثين ﴾ ثم

لا معاد بعدها ، ولهذا قالوا ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ .

(٣٠) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

أي أوقفوا بين يديه ﴿ قال أليس هذا بالحق ﴾ أي أليس هذا الميعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ؟ ﴿ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ .

(٣١) ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

يقول الله مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ، ولهذا قال ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة ، أي في أمرها ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي ما يحملون أو يعملون .

(٣٢) ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أي إنما غالبها لعب ولهو .

(٣٣) ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وكقوله ﴿ لعلك باخع نفسك ألَّا يكونوا مؤمنين ﴾ وقوله ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم . عن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يكذبونك . . . ﴾ رواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وعن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا

الصابىء؟ فقال : والله إني لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً وتلا أبو زيد ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر ،فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر ما جاء به ثم تعاهدوا ألا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا ألا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ،ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما أعرف معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا فرس رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ ، وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسُل ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم ، والأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ولهذا قال ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وقوله ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين ﴾ أي من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة ، وبهم قدوة .

(٣٥) ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ

فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

أي إن شق عليك إعراضهم عنك ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ﴾ النفق : السرب ، فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل وقوله ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ كقوله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

(٣٦) ﴿ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ وقوله ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ يعني بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب ، فشبههم بأموات الأجساد وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم .

(٣٧) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون ﴿ لولا نزِّل عليه آية من ربه ﴾ أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون وما يتعنتون كقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ أي هو تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة .

(٣٨) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . قال قتادة الطير أمة ، والأنس أمة ، والجن أمة ، والمراد أنهم خلق أمثالكم . ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره ، سواء كان برياً أو

بحرياً ، كقوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ أي مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ، قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ وقوله ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ عن ابن عباس : حشرها الموت ، أو حشرها هو بعثها يوم القيامة ، لقوله ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان ، فقال : « يا أبا ذر ، هل تدري فيم تنتطحان ؟ قال : لا ، قال : « لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما » وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » .

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم ، وهو الذي لا يسمع ، وأبكم ، وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ ولهذا قال : ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

(٤٠) ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، والمتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذابه . . . ﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿ أغير الله تدعون ﴾ أي لا تدعون غيره ، لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه .

(٤١) ﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾

﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه ، وتذهب عنكم أصنامكم ، وأندادكم ، كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

﴿ بالبأساء ﴾ أي يدعون الله ويتضرعون إليه ، ويخشعون .

(٤٣) ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا ، وتمسكنوا لدينا ، ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي ما رقت ولا خشعت ﴿ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ أي من الشرك والمعاندة والمعاصي .

(٤٤) ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي أعرضوا عنه ، وتناسوه ، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى ، وإملاء لهم ، عياذاً بالله من مكره ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ أي على غفلة ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ أي آيسون من كل خير . قال الحسن البصري : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ، ثم قرأ ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم . . . ﴾ قال : مكر بالقوم ورب الكعبة ، أعطوا حاجتهم ، ثم أخذوا ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . وروى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم ـ أو فتح عليهم ـ باب الخيانة حتى إذا فرحوا بما أوتوا . . . » .

(٤٥) ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(٤٦) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ أي سلبكم إياها كما أعطاكموها ، كما قال تعالى ﴿ هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار . . . ﴾ ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع

الشرعي ولهذا قال ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ ﴿ من إله غير الله يأتيكم به ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال ﴿ أنظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ أي ثم هم مع هذا البيان يصدفون ، أي يعرضون عن الحق ، ويصدون الناس عن اتباعه ، وعن ابن عباس : يصدفون : يعدلون .

(٤٧) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

﴿ بغتة ﴾ أي وأنتم لا تشعرون حتى بغتكم وفجأكم ﴿ أو جهرة ﴾ أي ظاهراً عياناً ﴿ هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(٤٨) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به ، وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي بالنسبة لما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها فالله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه .

(٤٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

(٥٠) ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي لست أملكها ولا أتصرف بها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب ، أي ذاك من علم

الله عز وجل ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني الله عليه ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ أي ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر يوحَى إليّ من الله عز وجل شرفني بذلك ، وأنعم عليّ به ﴿ إن أتبع إلا ما يوحَى إليَّ ﴾ أي لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه ، ومن ضل عنه فلم ينقد له ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ وهذه كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿٥١﴾ ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

أي وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليس لهم ﴾ أي يومئذ ﴿ من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب لهم ، ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿ لعلهم يتقون ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه .

﴿٥٢﴾ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كقوله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ وقوله ﴿ يدعون ربهم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بالغداة والعشي ﴾ المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ أي أتقبل منكم وقوله ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم ، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات . وقوله ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء . وقوله ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ أي إن فعلت هذا ، والحالة هذه . وعن

ابن أبي حاتم عن خباب في قوله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون . . ﴾ قال : جاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم في نفر من أصحابه ، فأتوه فخلوا به ، وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً ، تعرف به لنا العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمتهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال : « نعم » قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً قال : فدعا بصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم . . ﴾ فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه .

(٥٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثه ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والاماء ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . وفي الحديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(٥٤) ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ أي كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ روى الإمام أحمد في مسنده عن

أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ﴿ إن رحمتي غلبت غضبي ﴾ أخرجاه في الصحيحين .

(٥٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل .

(٥٦) ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

[لم يشرح ابن كثير هذه الآية ، ولم يتعرض لها مطلقاً في النسخة التي اختصرنا منها] .

(٥٧) ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليَّ ﴿ وكذبتم به ﴾ أي بالحق الذي جاءني من الله ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأحلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ولهذا قال ﴿ يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده .

(٥٨) ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي لو كان مرجع ذلك إليَّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ .

(٥٩) ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ قوله ﴿ ويعلم ما في البر

والبحر ﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولاسيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ عن عبدالله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .

٦٠ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا التوفي الأصغر فقال ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي في النهار ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ يعني به أجل كل أحد من الناس ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم ينبئكم ﴾ أي فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي يجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٦١ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

وهو الذي قهر كل شيء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ وكقوله ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾ أي احتضر وجاء أجله ﴿ توفته رسلنا ﴾ أي ملائكة موكلون بذلك ، قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا وصلت إلى الحلقوم ، وقوله ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أي في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل ، إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين . عياذاً بالله من ذلك .

٦٢ ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

﴿ ثم ردوا ﴾ يعني الملائكة ، أو الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات معلوم ﴾ . وقال ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً . وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ .

٦٣ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقفين في المهامه البرية ، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقوله ﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أي جهراً وسراً ﴿ لئن أنجانا من هذه ﴾ الضائقة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي بعدها .

٦٤ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ ثم أنتم ﴾ أي بعد ذلك ﴿ تشركون ﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى .

٦٥ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ أي بعد إنجائه إياكم كما في سورة سبحان ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ . وقوله ﴿ يلبسكم ﴾ يخلطكم من الالتباس ﴿ شيعاً ﴾ فرقاً . في البخاري عن جابر بن عبدالله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا

أهون و أيسر » وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ قل هو القادر . . . ﴾ فقال : « أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعدُ » وأخرجه الترمذي . وعن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه عز وجل طويلاً ثم قال : « سألت ربي ثلاثاً أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » انفرد بإخراجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها ، وإني أعطيت الكنزين ، الأبيض والأحمر ، وإني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة ، وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعضاً ، فقال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وبعضهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يسبي بعضاً » قال : وقال النبي ﷺ : « إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » ليس في شيء من الكتب الستة وإسناده جيد . وقوله ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ فسره غير واحد بالرجم . وقيل : عذاب من السماء لا يبقي أحداً ، وعن ابن عباس : يعني أمراءكم . ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ يعني الخسف الذي لا يبقي أحداً ، وفسر بخدم السوء ، وعن ابن عباس : يعني عبيدكم وسفلتكم ويشهد للأول ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ وفي الحديث « ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ » وفيه « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه وفي الحديث « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ؟ قال : « نعم » فقال بعضهم : لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون فنزلت ﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ .

(٦٦) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾

﴿ وكذب به ﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قومك ﴾ يعني قريشاً ﴿ وهو

الحق ﴾ الذي ليس وراءه حق ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي لست عليكم بحفيظ .

٦٧ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

لكل نبأ حقيقةٌ ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال ﴿ وسوف تعلمون ﴾ .

٦٨ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها في غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿ لا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد التذكر ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ ولهذا ورد في الحديث « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٦٩ ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي ولكن أمرناكم بالاعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه .

٧٠ ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

أي دعهم وأعرض عنهم ، وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال ﴿ وذكر به ﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أي لئلا تبسل ، أي تسلَّم ، أو تفتضح ، أو تؤاخذ ، وحاصل معنى ﴿ تبسل ﴾ الإسلام للهلكة ، والحبس عن الخير ، والارتهان عن درك المطلوب

كقوله ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ وقوله ﴿ ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ وقوله ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ وقال ههنا ﴿ أولئك الذين أبسلوا . . . ﴾ .

﴿٧١﴾ ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ﴾ أي في الكفر ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ فيكون مثلنا مثل ﴿ الذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ يقول : مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم ، يقولون ائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ، ومحمد ﷺ هو الذي يدعو على الطريق ، والطريق هو الإسلام . ﴿قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ وقوله ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ وقوله ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له .

﴿٧٢﴾ ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أي وأمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي يوم القيامة .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

﴿ بالحق﴾ أي بالعدل، فهو خالق السموات والأرض، ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما ﴿ ويوم يقول كن فيكون﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمر كلمح

البصر، أو هو أقرب. وقوله ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ كقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وكقوله ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً ﴾ والمراد بالصور هنا جمع صورة، أي ينفخ فيها فتحيا، والصحيح أن المراد بالصور القرين الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث « إن اسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » رواه مسلم في صحيحه.

(٧٤) ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أي أتتأله لصنم تعبده من دون الله ؟ ﴿ إني أراك وقومك ﴾ السالكين مسلكك ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي تائهين، لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل. وأمركم في الجهل والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم. وصوَّب ابن جرير أن اسم أبيه آزر، وقيل اسمه تارخ، وآزر اسم صنم، وغلب على أبي آزر لخدمته ذلك الصنم.

(٧٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾

﴿ وكذلك نري إبراهيم . . . ﴾ يحتمل أن يكون كشف له عن بصره وحتى رأى ذلك عيانا، ويحتمل أن تكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة. وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد والترمذي وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام « أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك. . » وقوله ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ قيل: الواو زائدة، تقديره وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين كقوله ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي لتستبين سبيل المجرمين، وقيل: بل هي على بابها، أي نريد ذلك ليكون عالما وموقناً.

(٧٦) ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾

﴿ فلما جن عليه الليل﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رأى كوكباً ﴾ أي نجماً ﴿ قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي غاب، يقال: أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا؟ ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول.

(٧٧) ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

﴿ بازغاً ﴾ أي طالعاً.

(٧٨) ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أي هذا المنير الطالع ربي ﴿ هذا أكبر ﴾ أي جرماً، من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿ فلما أفلت ﴾ أي غابت.

(٧٩) ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حنيفاً ﴾ أي في حال كوني حنيفاً أي مائلا عن الشرك إلى التوحيد، أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء، ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه.

(٨٠) ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله ابراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال ﴿ أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ أي أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟وقوله ﴿ ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها، ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك.
وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ استثناء متقطع، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلاتخفى عليه خافية ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها.

٨١ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ؟ ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ أي حجة. وقوله ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن! إن كنتم تعلمون ﴾ أي فأي طائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له.

٨٢ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

أي هؤلاء الذين أخلصوا لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. روى البخاري عن عبدالله قال: لما نزلت ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزل ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وفي مسند الامام أحمد عن عبدالله قال: لمانزلت هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، أينا لم يظلم نفسه؟ قال: « إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو الشرك. روى الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنامن المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ « كأن هذا الراكب إياكم يريد، فانتهى الينا الرجل فسلم فرددنا عليه، فقال له النبي ﷺ: « من أين أقبلت ؟» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي، قال: « فأين تريد»؟ قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: « فقد أصبته » قال: يا رسول الله، علمني ما الايمان،؟ قال: « تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» قال: قد أقررت ، قال نعـم ، ثم أن بعيره دخلت في حجر جرذان فهوى بعيره، وهوى الرجج فوقع على هامته فمات، فقال رسول الله ﷺ: « علي بالرجل » فوثب عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا: يا رسول الله، قيض الرجل،قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: « أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً » ثم قال رسول الله ﷺ « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾» ثم قال: « دونكم أخاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وخيطناه وكفناه وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال: « الحدوا ولا تشقوا،

فإن اللحد لنا، والشق لغيرنا». وفي الحديث «من أعطي فشكر، ومنع فصبر، وظلم فغفر» وسكت فقالوا يا رسول الله: ماله؟ قال: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه﴾ أي وجهنا حجته عليهم ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله ﴿عليم﴾ أي بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين.

﴿٨٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لابراهيم اسحق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت ﴿يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً! إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأنه له نسلا وعقبا ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ أي ويولد هـذا المولود في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد ولبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لابراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا الى عبادة الله في الأرض فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه كما قال تعالى ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبناله اسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ وقال ههنا: ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا﴾ وقوله ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذريةصالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، اما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل ابراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وقال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ وقوله تعالى ﴿ومن ذريته﴾ أي وهدينا من ذريته.

(٨٥) ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(٨٦) ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول البنات في ذرية الرجل ، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . روى ابن أبي حاتم قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ، تجده في كتاب الله ؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ ومن ذريته داود وسليمان . . . ﴾ حتى بلغ ﴿ ويحيى وعيسى ﴾ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ، فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للحسن : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فسماه ابناً فدل على دخوله في الأبناء ، وقال آخرون : هذا تجوُّز .

(٨٧) ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم .

(٨٨) ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته كقوله تعالى ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وكقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ .

(٨٩) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ، ولطفاً منا بالخليقة ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أي بالنبوة ﴿ هؤلاء ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومكيين

وكتابيين فقد وكلنا بها قوماً آخرين ، أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ ليسوا بها بكافرين ﴾ أي لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردون منها حرفاً واحداً ، بل يؤمنوا بجميعها محكمها ومتشابهها . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .

(٩٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ أولئك ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء ، والذرية والاخوان ، وهم الأشباه ﴿ الذين هدى الله ﴾ أي هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أي اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمراً لرسول الله ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً ، أي أجرة ، ولا أريد منكم شيئاً ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ، فيرشدون من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

(٩١) ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾

يقول الله تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم ، نزلت في قريش ، وقيل : في طائفة من اليهود وقيل : في فنحاص رجل منهم ، وقيل : في مالك بن الصيف ، والأول أصح لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر كما قال ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ وقوله ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم ، وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدىً للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظلم الشبهات . وقوله ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ أي تجعلون جملتها قراطيس ، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرفون منها ما

تحرفون ، وتبدلون وتتأولون وتقولون : هذا من عند الله أي في كتابه المنزل ، وما هو عند الله ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم ، قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب ، وقال مجاهد : هذه للمسلمين . ﴿ قل الله ﴾ عن ابن عباس أي قل الله أنزله : وهذا الذي قال ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿ قل الله ﴾ أي لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة « الله » وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والاتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ، ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين .

﴿٩٢﴾ ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ أم القرى ﴾ يعني مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال في الآية الأخرى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وقال ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » وذكر منهن « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » . ولهذا قال : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي يقومون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها .

﴿٩٣﴾ ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء ، أو ولداً ، أو ادعى أن الله أرسله

إلى الناس ولم يرسله ولهذا قال تعالى ﴿ أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ﴾ قال عكرمة : نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ أي ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول ، كقوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ أي في سكراته وغمراته وكرباته ، وقوله ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ كقوله ﴿ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ﴾ وقوله ﴿ يبسطون إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمٰن الرحيم فتتفرق روحه في جسده ، وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله .

﴿٩٤﴾ ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

أي يقال لهم يوم معادهم ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ كما قال تعالى ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا هو يوم البعث ﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » وقال الحسن البصري : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيقول الله عز وجل : أين ما جمعت ؟ فيقول : يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان ، فيقول له : يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئاً ، وتلا هذه الآية ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ وقوله ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ تقريع وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفع في معاشهم

ومعادهم إن كان ثم معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ ويقال لهم ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل . ﴿ وضل عنكم ﴾ أي ذهب عنكم ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد .

(٩٥) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ أي يشقه في الثرى فتنبت منه الزرع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى . ﴿ يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت وقد عبروا عن هذا وذاك بعبارات متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ، ومنها يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه ، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها . ﴿ ذلكم الله ﴾ أي فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف تصرفون عن الحق ، وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره .

(٩٦) ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ﴾ أي خالق الضياء والظلام ، كما قال في أول السورة ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ أي فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضيء الوجود ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه كقوله ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته ، وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ أي ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ وقال ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ﴾ وقال ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ وقال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة السهر : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة

طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه ، رواه ابن أبي حاتم . ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل ، يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

(٩٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر . وقوله ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي بيناها ووضحناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

(٩٨) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ من نفس واحدة ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ فمستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب أو فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أن يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

(٩٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ أي بقدر مباركاً ، ورزقاً للعباد ، وإحياء وغياثاً للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ كقوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ أي زرعاً وشجراً ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال ﴿ نخرج منه حباً متراكباً ﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان ﴾ أي جمع قنو ، وهي عذق الرطب ﴿ دانية ﴾ أي قريبة من المتناول ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أي ونخرج به جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما

أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده في قوله ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ . وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ وقوله تعالى ﴿ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ متشابه في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً . وقوله تعالى ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ أي نضجه ، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ إن في ذلكم ﴾ أيها الناس ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء ، وحكمته ورحمته ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون به ، ويتبعون رسله :

(١٠٠) ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ قوله ﴿وخلقهم﴾ أي وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟ كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له . ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قال له من اليهود في عزير ، ومن قال من النصارى في عيسى ، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ﴿ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ ومعنى ﴿ خرقوا ﴾ أي اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

(١٠١) ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق ، ومنه سميت البدعة بدعة ، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ أي والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ، لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له . ﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنى يكون له ولد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي الذي خلق كل شيء ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ﴿ لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ أي فاعبدوه وحده لا شريك له ،وأقروا له بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي حفيظ ورقيب ، يدير كل ما سواه ويرزقهم ، ويكلؤهم بالليل والنهار .

(١٠٣) ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

لا تدركه الأبصار في الدنيا ، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن . وقال المعتزلة : لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه الكتاب وسنة رسول الله ﷺ ، أما الكتاب فقوله ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وأما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين . أو ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أي العقول . وقوله ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه خلقها كما قال تعالى ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

(١٠٤) ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ كقوله ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ ولهذا قال ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي إنما يعود وباله عليه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بحافظ ولا رقيب بل إنما أنا مبلغ ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

(١٠٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

أي وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله هكذا نوضح الآيات نفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة المشركين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون درست يا محمد وقرأت وتعلمت من أهل الكتاب ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه ، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ .

(١٠٦) ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ أي اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه ، لأنه لا إله إلا هو ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم ، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لجمعهم على الهدى .

(١٠٧) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ أي بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وقوله ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تحفظ أقوالهم وأفعالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي موكل على أرزاقهم وأمورهم .

(١٠٨) ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله وللمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله

إلا هو ، عن ابن عباس في هذه الآية قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم . ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ملعون من سب والديه » قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ أي وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ أي معادهم ومصيرهم ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ أي يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١٠٩) ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ معجزة وخارق ﴿ ليؤمنن بها ﴾ أي ليصدقنها ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون .

(١١٠) ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أي ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ﴿ ونذرهم ﴾ أي ونتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ في كفرهم ﴿ يعمهون ﴾ يلعبون أو يترددون في كفرهم .

(١١١) ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين ﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم

آية ليؤمنن بها ﴾ فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ من المقابلة والمعاينة ، أو أفواجاً : قبيلاً قبيلاً ، أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبروهم بصدق الرسل فيما جاؤوا به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ أي إن الهداية إليه ، لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته .

(١١٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ، ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي . ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ بدل من ﴿ عدواً ﴾ أي لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء ، قبحهم الله ، ولعنهم . عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ، هل تعوذت من شر شياطين الإنس والجن ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، هل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » - ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره . ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ وذلك كله بقدر الله وقضائه ، وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فذرهم ﴾ أي فدعهم ﴿ وما يفترون ﴾ أي يكذبون ، أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم .

(١١٣) ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

﴿ ولتصغى إليه ﴾ أي ولتميل إليه . ﴿ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم . وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وليرضوه ﴾ أي يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون .

(١١٤) ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي مبيناً ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كقوله ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » .

١١٥ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ صدقاً فيما قال ، وعدلاً فيما حكم ، أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق ، لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ العليم ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

١١٦ ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ فإن الخرص هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر .

١١٧ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ فييسره لذلك ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ فييسرهم لذلك ، وكل ميسر لما خلق له .

(١١٨) ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات ، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها .

(١١٩) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ أي قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أي إلا في حال الاضطرار ، فإنه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

(١٢٠) ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

قال مجاهد ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ : المعصية في السر والعلانية ، وقال قتادة : أي سره وعلانيته ، قليله وكثيره ، وقال السدي : ظاهره الزنا مع البقايا ذوات الرايات ، وباطنه الزنا مع الخليلة والصدائق والاخوان ، وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم ، والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله ، وهي كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي سواءكان ظاهراً أو خفياً ، فإن الله سيجزيهم عليه . روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الاثم فقال : « الاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(١٢١) ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان

الذابح مسلماً ، والأئمة في هذه المسألة على ثلاثة أقوال ، فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، وهو اختيار داود الظاهري ، واحتجوا بهذه الآية ، وبقوله في آية الصيد ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿ وإنه لفسق ﴾ وبمثل حديث : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهو في الصحيح ، ومن الأئمة من قال : لا يشترط التسمية ، بل هي مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله ، وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد ، ورواية عن الإمام مالك ، وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ وهذا المسلك الذي طرق الإمام الشافعي قوي ، ومن الأئمة من ذهب إلى أن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر ، وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه . ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ يوحي الشياطين إلى أوليائهم : تأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون مما قتل الله ؟ ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ في أكل الميتة ﴿ إنكم لمشركون ﴾ حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك ، كقوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ .

١٢٢ ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً ، أي في الضلالة هالكاً ، فأحياه الله ، أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ووفقه لاتباع رسله ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ أي يهتدي كيف يسلك ، وكيف يتصرف به ، والنور هو القرآن أو الإسلام ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ أي الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ ليس بخارج منها ﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » كما قال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك

أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ أي حسنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدراً من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

(١٢٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ وقوله ﴿ ليمكروا فيها ﴾ أي سلطنا شرارهم فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب ، والمراد بالأكابر عظماؤها ، وبالمكر دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كقوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ وقوله ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم كما قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ .

(١٢٤) ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ أي حتى تأتينا الملائكة بالرسالة ، كما تأتي إلى الرسل ، كقوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه ، كقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي البخاري « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » وفي مسند الإمام أحمد عن سلمان قال لي رسول الله ﷺ : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك » قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضني » وقوله ﴿ سيصيب

الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد . . ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله ، والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار ، وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا ﴿ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ، وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

(١٢٥) ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به ، وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ، قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح» ﴿ حرجاً ﴾ أي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد اضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله . والرجس كل ما لا خير فيه ، أو هو العذاب .

(١٢٦) ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو الصراط المستقيم ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿ لقوم يذكرون ﴾ أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله .

(١٢٧) ﴿ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لهم دار السلام ﴾ وهي الجنة ﴿ عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿ وهو وليهم ﴾ أي

حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي جزاءً على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

(١٢٨) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم ، يعني أضللتم منهم كثيراً ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ يعني الموت ﴿ قال النار مثواكم ﴾ أي مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله ، عن ابن عباس قال : ﴿ النار مثواكم خالدين فيها . . . ﴾ قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، وقيل : ﴿ بعض الظالمين بعضاً ﴾ ظالمي الجن ، وظالمي الإنس ، ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس بتلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم .

(١٣٠) ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾

وهذا أيضاً مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم ، وهو أعلم ،

هل بلغتهم الرسل رسالاته ، وهذا استفهام تقريري ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من جملتكم ، والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا ، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ أي في حال الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله عليهم .

(١٣١) ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ذلك أن لم يكن ربك..﴾ أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه الدعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ويحتمل قوله تعالى ﴿ بظلم ﴾ وجهين ، أحدهما ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يأخذهم غفلة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . والوجه الثاني ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ﴾ يقول : لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده .

(١٣٢) ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ويحتمل أن يعود قوله ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي من كافري الجن والإنس ، أي ولكل درجة في النار بحسبه ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

(١٣٣) ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ

قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ الغني ﴾ أي عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وهو مع ذلك رحيم بهم ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي إذا خالفتم أمره ﴿ ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ أي قوماً آخرين يعملون بطاعته ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ أي هو قادر على ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، كما أذهب القرون الأولى ، وأتى بالذي بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والاتيان بآخرين ، قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ والذرية الأصل ، والذرية النسل .

١٣٤ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

أي أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ولا يعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء . روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

١٣٥ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

هذا تهديد ، ووعيد أكيد ، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، كقوله ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾ ﴿ على مكانتكم ﴾ على ناحيتكم ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . . . ﴾ أي أتكون لي أو لكم ؟ وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه ، أي فإنه تعالى مكنه في البلاد ، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد ، وفتح مكة ، وأظهره على من كذبه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وكما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقد فعل ذلك بهذه الأمة المحمدية ، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

﴿١٣٦﴾ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً ، وكفراً ، وشركاً ، وجعلوا لله شركاً وجزءاً من خلقه ، وهو خالق كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ولهذا قال ﴿ وجعلوا لله من ذرأ ﴾ أي مما خلق وبرأ ﴿ من الحرث ﴾ أي من الزرع والثمار ﴿ والأنعام نصيباً ﴾ أي جزءاً وقسماً ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ وقوله ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً، وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله ، جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ، فقال تعالى ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ . . ﴾ قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في الآية : كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء ما يقسمونه ، فإنهم أخطأوا أولاً في القسم ، لأن الله هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها ، بل حاروا فيها ، كقوله ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ .

﴿١٣٧﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما زينت الشياطين لهؤلاء ، أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الاملاق ، ووأد البنات خشية العار ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ وقال ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ أي كل هذا واقع بمشيئة الله وإرادته واختياره ، وله

الحكمة في ذلك ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم .

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

الحجر : الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا ، وهو تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم ، وتغليظ وتشديد ، ولم يكن من الله تعالى ، وقد احتجروها لآلهتهم . ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾ يقولون : حرام أن يطعم إلا من شئنا ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قـل آللّـه أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ وقوله ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ الأنعامُ التي حرمت ظهورها هي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها ، هي طائفة من إبلهم لا يذكرون اسم الله عليها ، ولا في شيء من شأنها ، لا إن ركبوها ، ولا إن صلبوها ، ولا إن حملوا عليها ، ولا إن عملت شيئاً ، ولا إذا ولدوها ، ولا إذا نحروها . ﴿ افتراء عليه ﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ، ولا رضيه منهم ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أي عليه ويسندون إليه .

(١٣٩) ﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ هو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وقال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي قولهم الكذب في ذلك كقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ ﴿ حكيم ﴾ أي في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عليم ﴾ بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

(١٤٠) ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله ، وافترائهم . عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم . . ﴾ رواه البخاري في كتاب مناقب قريش .

(١٤١) ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزؤ وها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً فقال ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ معروشات : ممسوكات ، أو ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم ، أو ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ من رطبه وعنبه . ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة يوم يكال ، ويعلم كيله ، من كل عشرة واحد ، وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة ، فقد كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة ، وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿ ن ﴾ ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ أي كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ قيل : معناه لا تسرفوا في الاعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وفي صحيح البخاري تعليقاً « كلوا واشربوا واكسبوا من غير إسراف ولا مخيلة » .

(١٤٢) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة ، وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل

عليه من الابل ، والفرش الصغار منها . أو الحمولة هي الابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، وأما الفرش فالغنم ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي من الثمار والزروع والانعام ، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿ إنه لكم ﴾ أي إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿ عدو مبين ﴾ أي بين ظاهر العداوة .

١٤٣ ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الاسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً : بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً وغير ذلك من الأنعام التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار ، فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم ، وهو بياض ، وهو الضأن ، وسواد وهو المعز : ذكره وأنثاه ، وإلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ، ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبني آدم : أكلاً وركوباً وحمولةً وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ وقوله تعالى ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ﴾ رد عليهم في قولهم ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ وقوله ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . وقال العوفي عن ابن عباس : قوله ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ يقول : لم أحرم شيئاً من ذلك ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الاثنيين ﴾ يعني هل يشتمل الرحم إلاَّ على ذكر وأنثى ؟ فلم تحرمون بعضاً ، وتحلون بعضاً ؟ ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ يقول تعالى : كله حلال .

١٤٤ ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿ فمن أظلم ممن . . ﴾ أي لا أحد أظلم منه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة ، لأنه أول من غير دين الأنبياء ، وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي ، كما ثبت ذلك في الصحيح .

﴿١٤٥﴾ ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ﴿ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾ أي آكل يأكله ، قيل : معناه لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه ، ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ يعني المهراق ، قال عكرمة في قوله ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ أي فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ أي غفور له ، رحيم به .

﴿١٤٦﴾ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالابل والنعام والأوز والبط ، وعن ابن عباس : هو البعير والنعامة ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ، وفي رواية عنه كل متفرق الأصابع ، ومنه الديك ﴿ حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال السدي : يعني الثرب ، وشحم الكليتين ، وكانت اليهود تقول : إن حرمه اسرائيل على نفسه فنحن نحرمه . ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم ﴿ أو الحوايا ﴾ جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويّة ، وهو ما تحوّى من البطن ، فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى المرابض ، وفيها الأمعاء ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم ، وقال ابن جريج : شحم الالية ما اختلط بالعصعص فهو حلال ، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه . ﴿ ذلك جزيناهم

ببغيهم ﴾ أي هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا . وفي الحديث « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » .

١٤٧ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين ، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

١٤٨ ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم ، وتحريم ما حرموا فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الايمان ، ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ، ورضاه منا بذلك ، ولهذا قالوا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا . . . ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم ﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمر عليهم ، وأدال عليهم رسله الكرام ، وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أي الوهم والخيال ، والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

١٤٩ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى ، وإضلال من ضل ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فكل ذلك بقدرته ،

ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ، ويبغض الكافرين كما قال تعالى ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ .

(١٥٠) ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ قل هلم شهداءكم ﴾ أي أحضروا شهداءكم ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿ والذين هم بربهم يعدلون ﴾ أي يشركون به ويجعلون له عديلاً .

(١٥١) ﴿ * قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ وعن ابن عباس يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ، ثم قرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآيات . وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: « أيكم يبايعني على ثلاث ؟ ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات « فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا تخرصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ أي وأوصاكم ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ ذلكم وصاكم به . . ﴾ وفي الصحيحين : « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن

سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر » وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة : « وإن رغم أنف أبي ذر » فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وإن رغم أنف أبي ذر » وفي الحديث القدسي (يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي ، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً ، وإن أخطأت حتى بلغت خطاياك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك) ولهذا شاهد في القرآن ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ وبالوالدين احساناً ﴾ أي وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم ، ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قال ابن مسعود : حدثني بهن رسول الله ، ولو استزدته لزادني . وفي الحديث : « أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من املاق ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الاحسان إلى الأبناء والأحفاد ، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ثم تلا ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ ﴿ من إملاق ﴾ هو القتر وقوله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وفي الحديث : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » أخرجاه ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وهذا مما نص الله على النهي عنه تأكيداً وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وقد قال عثمان بن عفان وهو محصور بعد أن روى نحو هذا

الحديث ، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله إليه ، ولا قتلت نفساً ، فيم تقتلونني ؟ وفي الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

(١٥٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

لما أنزل الله ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله فأنزل ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ قال فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ حتى يحتلم ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والاعطاء كما توعد على تركه ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل .

(١٥٣) ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ، ونحو هذا قوله تعالى ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وفي مسند الامام أحمد بن حنبل « خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط خطاً عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ووحد سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها .

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

لما أخبر سبحانه عن القرآن بقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ ﴿ تماماً ﴾ كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته وقوله ﴿ على الذي أحسن ﴾ أي جزاء على إحسانه في العمل ، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ وقوله ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه .

(١٥٥) ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ، يرغب سبحانه عباده في كتابه ، ويأمرهم بتدبره ، والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه ، وعمل به في الدنيا والآخرة ، لأنه حبل الله المتين .

(١٥٦) ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ يعني لينقطع عذركم . ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أي وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه .

(١٥٧) ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾

اي وقطعنا تعللكم أن تقولوا : لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم ، فيه بيان

للحلال والحرام ، وهدى لما في قلوبكم ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ، ويقتفون ما فيه . ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره ، بل صدف عن اتباع آيات الله ، أي صرف الناس وصدهم عن ذلك ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن . . . ﴾ أي لا آمن بها ولا عمل بها كقوله ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ .

(١٥٨) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعداً الكافرين به والمخالفين لرسله ، والمكذبين بآياته ، والصادين عن سبيله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك . . . ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من إمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » وفي الحديث « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » رواه ابن جرير والامام أحمد . في الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » وقوله ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذٍ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة لم تقبل منه توبته ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . ﴿ فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ .

(١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . . ﴾ ، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله ، وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد ، لا اختلاف فيه ، ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل ، والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل برآء منها ، كما قال تعالى ﴿ لست منهم في شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنما أمرهم إلى الله . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ .

١٦٠ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى ﴿ من جاء بالحسنة . . ﴾ وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى ، وهي قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « إن ربكم عز وجل رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك » ورواه البخاري ومسلم والنسائي . واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، وفي بعض ألفاظ الحديث الصحيح « فإنما تركها من جرائي » أي من أجلي ، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها ، فهذا لاله ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ، ولا فعل شراً ، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل

والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٦١

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ ديناً قيماً ﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً . . ﴾ كقوله ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً ، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الاطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ١٦٢

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ١٦٣

يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، والنسك: الذبح في الحج والعمرة . وروى ابن أبي حاتم قال : ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ١٦٤

يقول الله تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أغير الله أبغي رباً ﴾ أي أطلب رباً سواه ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أي لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، لأنه رب كل شيء ومليكه ، وله الخلق والأمر ، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً في القرآن

كقوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقوله ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وقوله ﴿ قل هو الرحمٰن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ وقوله ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا . . ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئته أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى كما قال ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقوله ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم . . . ﴾ أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا .

١٦٥ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾

يقول تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي والمناظر والاشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك ، كقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، وامتحنكم به ، ليختبر الغني في غناه ، ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره ، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » وقوله تعالى ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ترغيب وترهيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب . وكثيراً ما يقرن الله في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ وقوله ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب ، سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم

المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة ، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون » ورواه الترمذي .

تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ الٓمٓصٓ ﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف .

(٢) ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك ، أي من ربك ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ شك منه ، أو لا تتحرج به في إبلاغه والانذار به ﴿ لتنذر به ﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ .

(٣) ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾

﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة . ﴿ فجاءها بأسنا بياناً أو هم قائلون ﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتاً ، أي ليلاً ، أو هم قائلون من القيلولة ، وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو .

(٥) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، وفي الحديث عن عبدالملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبدالله بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » قال : قلت لعبدالملك : كيف يكون ذاك قال : فقرأ هذه الآية ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

(٦) ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ فلنسألن الذين . . ﴾ كقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالته ، وفي الحديث « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » .

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

﴿ فلنقصن عليهم . . ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(٨) ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(٩) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ والوزن ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ والذي يوضع في الميزان يوم القيامة ، قيل : الأعمال ، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة أجساداً ، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف » ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من

أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك . وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع في كفه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة ، فيها « لا إله إلا الله » فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول الله ﷺ : «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذي ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وفي مناقب عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم .

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ، ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب . وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ .

(١١) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم ، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منوط عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ، ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم ، وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وعن ابن عباس أنهم خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوروا في أرحام النساء .

(١٢) ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة : ﴿ لا ﴾ هنا في ﴿ ألا تسجد ﴾ زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد . وقول إبليس لعنه الله ﴿ أنا خير منه ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود .

(١٣) ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لابليس بأمر قدري كونيّ ﴿ فاهبط منها ﴾ أي بسبب عصيانك لأمري ، وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، أي في الجنة ، أو في المنزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ أي الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده .

(١٤) ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ .

(١٥) ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾

أجابه تعالى إلى ما سأله ، لما له في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة التي لا تخالف ، ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

(١٦) ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال : ﴿ فبما أغويتني . . . ﴾ أي كما أغويتني ، أي كما أضللتني ، أو أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صراطك المستقيم ﴾ أي طريق الحق ، وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ، ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي ، وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية ، كأنه يقول : فباغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم . وقال محمد بن عون بن عبدالله : يعني طريق مكة ،

والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك لما روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، قعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم » قال : « وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال ، فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ، ويقسم المال ؟ قال : فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

﴿١٧﴾ ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ أي أشككهم في آخرتهم ﴿ ومن خلفهم ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وعن شمائلهم ﴾ أشهي لهم المعاصي . قال ابن عباس : لم يقل : من فوقهم ، لأن الرحمة تنزل من فوقهم ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الانسان من جهاته كلها فقد روى البزار عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي » .

﴿١٨﴾ ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والابعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله ﴿ أخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ المذءوم : المعيب والذأم العيب . والمدحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقوله ﴿ لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ كقوله : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴾ .

(١٩) ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(٢٠) ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وقال ﴾ كذباً وافتراء ﴿ ما نهاكما ربكما . . . ﴾ أي لئلا تكونوا ملكين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ .

(٢١) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾

﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما بالله ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ فإني من قبلكما ها هنا ، وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

(٢٢) ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة ، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة وورق التين ، يلزقان بعضه إلى بعض ، فناداه الله أما كان لك فيما منحتك من الجنة ، وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا ، قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً .

(٢٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

قال الضحاك بن مزاحم في قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا . . . ﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

﴿٢٤﴾ ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾

قيل : المراد بالخطاب في ﴿ اهبطوا ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية ، والله أعلم ، والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال ﴿ اهبطا منها جميعاً ﴾ وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول .

﴿٢٥﴾ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾

﴿ قال فيها تحيون . . ﴾ كقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم ، وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله .

﴿٢٦﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات ، وهي السوآت ، والرياش ، والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب ، وعن ابن عباس الرياش : المال . وفي مسند الإمام أحمد : لبس أبو أمامة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان في ذمة الله وفي جوار الله ، وفي كنف الله حياً وميتاً » ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ قيل : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، وقيل : لباس التقوى والإيمان ، أو السمت الحسن في الوجه ، أو هو خشية الله .

﴿٢٧﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا

سَوْءَ ٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالى ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

٢٨ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

كان العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه ، فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كنت امرأة تطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ‍ ‍ ‍ ‍ وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله عليهم ذلك فقال ﴿ وإذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ فقال تعالى رداً عليهم ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته ؟

٢٩ ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ وأقيموا وجوهكم . . . ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ يحييكم بعد موتكم ،

فكما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ » أخرجاه في الصحيحين . وعن مجاهد ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً .

(٣٠) ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ عن ابن عباس : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً ، ويتأيد هذابحديث البخاري « فوالذي لا إلّه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » والمراد من هذا القول أن الله خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال لأنه قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأن لا إلّه غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك في غرائزهم وفطرهم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفي الحديث يقول الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

(٣١) ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي ، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوأة ، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ﴿ وكلوا واشربوا ولا

تسرفوا ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ورواه النسائي وابن ماجة . وفي الحديث : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » رواه الدارقطني .

﴿٣٢﴾ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿ من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ أي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة على الكافرين .

﴿٣٣﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا أحد أغير من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ﴾ وقوله ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ حاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا . ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ، ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ ولكل أمة ﴾ أي قرن وجيل ﴿ أجل ﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم .

﴿٣٥﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته ، وبشَّر وحذَّر فقال :

﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

٣٦ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿ أولئك أصحاب . . ﴾ أي ماكثون فيها مكثاً مخلداً .

٣٧ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴾

أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله ، أو كذب بآياته المنزلة ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيراً جزي به ، ومن عمل شراً جزي به ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وتقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا ، وتعبدونهم من دون الله ؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا ، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ .

٣٨ ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ أي أمثالكم ، وعلى صفاتكم ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿ من الجن والإنس ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿ في أمم ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم . وقوله ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ وقوله ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً ﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أي أخراهم

دخولاً ، وهم الأتباع لأولاهم ، وهم المتبوعون ، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ أي أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ وقوله ﴿ لكل ضعف ﴾ أي قد فعلنا ذلك ، وجازينا كلا بحسبه .

(٣٩) ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ أي قال المتبوعون للأتباع ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ أي فقد ضللتم كما ضللنا ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

(٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ، أو لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، روى ابن جرير عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء .. ﴾ قال ابن جريج : لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم ، وهذا فيه جمع بين القولين . وقوله تعالى ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ حتى يدخل البعير في خرق الابرة ، وعن ابن عباس أنه كان يقرؤ ها ﴿ يلج الجُمّل ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم يعني الحبل الغليظ في خرق الابرة .

(٤١) ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ فرش ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ لحف .

(٤٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا

الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، هؤلاء ضد ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه تعالى قال ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ أي من حسد وبغض ، روى النسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شكراً ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني فيكون له حسرة ،ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة ﴿ نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » قال قتادة : قال علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل . . . ﴾ رواه ابن جرير .

(٤٤) ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ أي قالوا لهم : ﴿ قد وجدنا ما وعدنا . . . ﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تا الله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ أي ينكر عليه هذه المقالة التي يقولها في الدنيا ، ويقرعه بما صار إليه من العذاب ، والنكال ، وكذلك تقرعهم الملائكة ، يقولون لهم : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ . وكذلك قرَّع رسول الله

قتلى القليب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال عمر : يا رسول الله ، تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا » . ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ أي أعلم معلم ، ونادى مناد ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ أي مستقرة عليهم .

(٤٥) ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾

ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه ، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

(٤٦) ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله فيه : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ، ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ وهم في ذلك يحييون أهل الجنة بالسلام ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله .

(٤٧) ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد قريش وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أي كثرتكم ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ، ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال .

﴿٤٩﴾ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم . . ﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ قال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة فأتوا آدم . فقالوا : يا آدم أنت أبونا ، فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ،ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً ؟ هل تعلمون أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني موسى فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجياً غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك ، فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : أنا حجيج نفسي ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ، ثم أقول : أنا لها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش فآتي ربي عز وجل ، فيفتح لي بالثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسي ثم أثني على ربي عز وجل ، ثم أخر ساجداً ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي

أمتي ، فيقول هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا غبطني بذلك المقام المحمود ، وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون فيه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال : مساكين أهل الجنة » .

(٥٠) ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

(٥١) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار ، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ يعني الطعام ، ينادي الرجل أباه أو أخاه ، فيقول له : قد احترقت ، فأفض عليّ من الماء ، فيقال لهم : أجيبوهم فيقولون : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها . روى ابن أبي حاتم قال : سئل ابن عباس أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة ، قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ، وقوله ﴿ فاليوم ننساهم . . ﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى ﴿ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وعن ابن عباس : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر . وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني .

(٥٢) ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن اعذاره إلى المشركين بارسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ﴿ فصلناه على علم ﴾ للعالمين أي على علم منا بما

فصلناه به كقوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾ .

(٥٣) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار ، وقال الربيع : لا يزال يأتي من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذٍ ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوا العمل به ، وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿ أو نرد ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿ فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ كقوله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ كما قال ههنا ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

(٥٤) ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه ، وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام ، فأما السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه السبت ، وهو القطع ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو

السميع البصير ﴾ ومن شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى . وقوله ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أي سريعاً ، لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه ، كقوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ فقوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ، ولهذا قال : ﴿ يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ، ولهذا قال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً « اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله » .

(٥٥) ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ تذللاً واستكانة ، وخيفة كقوله ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعون سميع قريب » قال ابن جرير : في قوله ﴿تضرعاً وخفية﴾ تضرعاً: تذللاً، واستكانة لطاعته وخفية: يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءة. عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ، وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع

الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره كأن يسأل منازل الأنبياء . سمع عبدالله بن مغفل ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : يا بني ، سل الله الجنة وَعُذْبه من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » .

﴿٥٦﴾ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ينهى تعالى عن الافساد في الأرض ، وما أضره بعد الاصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ، ثم وقع الافساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر ، وأرشد إلى دعائه ، لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرازق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً ﴾ كقوله ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ وقوله ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي المطر ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً ، كقوله ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ و ﴿ والذي

خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ كالسباخ ونحوها ، عن ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وفي الحديث « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٥٩) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك ، وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح بن لامك ، وإنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه . وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم ، وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله ، وأنتم مشركون به .

(٦٠) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿قال الملأ من قومه ﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة .

(٦١) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي ما أنا بضال ، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه .

﴿٦٢﴾ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وهذا شأن الرسول ، أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة أوفر ما كانوا ، وأكثر جمعاً « أيها الناس ، إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد » .

﴿٦٣﴾ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه ﴿ أوعجبتم . . . ﴾ أي لا تعجبوا من هذا ، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم ، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ .

﴿٦٤﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

﴿ فكذبوه ﴾ أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ أي السفينة كما قال ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ اي عن الحق ، لا يبصرونه ، ولا يهتدون له ، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أغرق قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين .

﴿٦٥﴾ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، وهو ابن ارم ، وهم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وقد كانت مساكنهم باليمين بالأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وقد دفن هود باليمن ، وقد كان من أشرف قومه نسباً لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله

وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه .

(٦٦) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام ، والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد ، فقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

(٦٧) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه .

(٦٨) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ أبلغكم رسالات ربي .. ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل : البلاغ والنصح والأمانة .

(٦٩) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذلك ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة ، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي نعمه ومنته عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ والآلاء جمع إلى ، وقيل : ألى .

(٧٠) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿ قالوا أجئتنا

لنعبد الله وحده ﴾ كقول الكفار من قريش ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

(٧١) ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس أي سخط وغضب ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ، ولهذا قال : ﴿ ما نزل الله بها من سلطان . . . ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقبه بقوله :

(٧٢) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه والذين معه . . ﴾ وقد ذكر سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخرى من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم . ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .

(٧٣) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(٧٤) ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(٧٥) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(٧٦) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(٧٧) ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ ٧٨

كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، وفي مسند الإمام أحمد ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ، ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » قوله تعالى ﴿ وإلى ثمود ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ وقوله ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به ، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجر ، يقال لها : الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ، ومن كان معه على أمره ، وامتنع عن الإيمان من امتنع ، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه يوماً لهم ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شربٍ محتضر ﴾ وقال تعالى ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، لأنها كانت تتضلع من الماء ، فلما اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قُدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم ، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ، فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى

وقال : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ ثم عزموا على قتل صالح وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وبعد ثلاثة أيام جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ (٧٩)

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله ، وإبائهم عن قبول الحق ، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى . قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً ، وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يا أبا جهل ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » فقال له عمر: يا رسول الله ، ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وفي السيرة أنه عليه السلام قال لهم : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » . وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه : ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك ، لأنكم لا تحبون الحق ، ولا تتبعون ناصحاً ، ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٨٠)

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ لوطاً ﴾ ، أو تقديره ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم ، وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهدوه ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله ، قال عمرو بن

دينار : ما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ، وقال الوليد بن عبدالملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً ، ولهذا قال لهم لوط ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

(٨١) ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، وهذا إسراف منكم وجهل ، لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ، ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك ، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم قد استغنين بعضهن ببعض ,

(٨٢) ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين . وقوله تعالى ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب .

(٨٣) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى : فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بما يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا قال ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي الباقين وقيل : الهالكين .

(٨٤) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ مفسر بقوله تعالى ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ،

ويكذب رسله . وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن ، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول » وقال آخرون : هو كالزاني فإن كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة ، وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في أدبارهن فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام العلماء ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة .

(٨٥) ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل. ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز ، قال تعالى ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ وهم أصحاب الأيكة ﴿ قال يا قوم اعبدو الله ما لكم من إلَه غيره ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ، ويأخذوها على وجه النخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى ﴿ ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ وهذا التهديد شديد ، ووعيد أكيد . نسأل الله العافية منه .

(٨٦) ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له : خطيب الأنبياء لفصاحة عبادته ، وجزالة موعظته ناهياً إياهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم فقد كانوا عشارين ، وكانوا يتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر ﴿ وتصدون عن سبيل

الله . . ﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة . ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم اعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله .

٨٧ ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ فاصبروا ﴾ أي انتظروا ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ وبينكم أي يفصل ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

٨٨ ﴿ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية ، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول ، والمراد اتباعه الذين كانوا معه على ملته . وقوله ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه ؟ .

٨٩ ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴾

إنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ، وهذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ وهذا رد مستقيم ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي في أمورنا : ما نأتي بها وما نذر ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا ، وانصرنا عليهم ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ أي خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

(٩٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم ، وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فلهذا عقبه بقوله :

(٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك كما أرجفوا شعيباً ، وأصحابه ، وتوعدوهم بالجلاء . وقد أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ، ووهج عظيم ، قال تعالى ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

(٩٢) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

(٩٣) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعاً لهم وموبخاً ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم ، وقد كفرتم بما جئتكم به ، فلهذا قال ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

(٩٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية ـ الذين أرسل إليهم الأنبياء ـ بالبأساء والضراء ، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ ، أي يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله

تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال ليختبرهم فيه ، ولهذا قال :

﴿٩٥﴾ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا . وقوله ﴿ حتى عفوا ﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر . ﴿ وقالوا قد مس آباءنا . . . ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا ، ولا هذا ، ولا انتبهوا لا بهذا ، ولا بهذا ، وقالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما الدهر تارات ، وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين « عجباً للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء الا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء في الحديث « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه » أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة ، على بغتة ، وعدم شعور منهم ، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث « موت الفجاءة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر » .

﴿٩٦﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل فقال ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاءت به الرسل ، وصدقت به ، واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم .

(٩٧) ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾

ثم قال مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أي الكافرة ﴿ أن يأتيهم بأسنا ﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿ بياتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وهم نائمون ﴾

(٩٨) ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

﴿ وهم يلعبون ﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم .

(٩٩) ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم ، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل الطاعات ، وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

(١٠٠) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ قال ابن عباس . أولم يتبين لهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم ﴾ ونختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكيراً .

(١٠١) ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من اهلاكه الكافرين وانجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر اليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى ﴿ تلك القرى نقص عليك ﴾ يا محمد ﴿ من أنبائها ﴾ أي من أخبارها ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن .

ولهذا قال ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ .

(١٠٢) ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾

﴿ وما وجدنا لأكثرهم ﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿ من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إلّه إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا من شرع ، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

(١٠٣) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي بحججنا ودلائلنا البينة ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وملئه ﴾ أي قومه ﴿ فظلموا بها ﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً .

(١٠٤) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه اياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر ، فقال تعالى ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء ، وربه ومليكه .

(١٠٥) ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

قال بعضهم : معناه : حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي جدير بذلك وحريٌّ به ،

قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجاء على حال حسنة ، وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق . ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربك وربهم ، فإنهم من سلالة نبي كريم ، وهو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الرحمن .

(١٠٦) ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

أي قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمطيعك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادَّعيت .

(١٠٧) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ الحية الذكر ، أي تحولت عصاه إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون . فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفه عنه ففعل .

(١٠٨) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾

أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كما قال تعالى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ .

(١٠٩) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

(١١٠) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أي قال الملأ ، وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه ، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ فوافقوه ، وقالوا كمقالته ، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم في اطفاء نوره وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم ، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ فلما تشاوروا في شأنه ، وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله :

١١١ ﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾

١١٢ ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ قالوا أرجه وأخاه . . ﴾ قال ابن عباس ﴿ أرجه ﴾ أخره ، وقال قتادة : احبسه . ﴿ وأرسل ﴾ أي ابعث ﴿ في المدائن ﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حاشرين ﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ، ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ،واعتقد من اعتقد منهم ،وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات .

١١٣ ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾

١١٤ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنَّهم، وليعطينَّهم عطاء جزيلاً ، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :

١١٥ ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

١١٦ ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي . . ﴾ هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ أي قبلك فقال لهم موسى ﴿ ألقوا ﴾ أي أنتم أولاً ، قيل : الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من يهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ، ولهذا قال ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس . . ﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال .

١١٧ ﴿ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

١١٨ ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(١١٩) ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾

(١٢٠) ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

(١٢١) ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(١٢٢) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه ، وهي عصاه ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ أي تأكل ﴿ ما يأفكون ﴾ أي ما يلقونه ، ويوهمون أنه حق ، وهو باطل فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ، ولا من خشبهم الا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ، ليس هذا بسحر فخروا سجداً ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ قال ابن اسحق : جعلت عصا موسى تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل أو كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً قالوا : لو كان هذا ساحراً ما غلبنا . وقال القاسم بن أبي برة : أوحى الله اليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغرفاه ، يبتلع حبالهم وعصيهم ، فألقي السحرة عند ذلك سجداً ، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، وثواب أهلهما .

(١٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون ـ لعنه الله ـ السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه . . ﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ، ورضا منكم لذلك ، كقوله ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهو يعلم ، وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله ، وأظهر المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ، ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضروهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور في مقامهم ذلك ، والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا

يعرف أحداً منهم ، ولا رآه ، ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك ، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم . وقوله ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو ، وتكون لكم دولة وصولة ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء ، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ما أصنع بكم ، ثم فسر هذا الوعيد بقوله :

(١٢٤) ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني قطع يد الرجل اليمنى ، ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ ولأصلبكم أجمعين ﴾ وكان أول من صلب ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف .

(١٢٥) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن على عذابك لنخلص من عذاب الله ، ولهذا قالوا :

(١٢٦) ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه . ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون ﴿ إقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ . فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة .

(١٢٧) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ أي أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي يفسدوا أهل رعيتك ، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، يالله العجب !! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ، ألا إن فرعون وقومه

هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ، ولهذا قال ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبده في السر ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رام وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، أعزهم الله وأذله ، وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده .

(١٢٨) ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم في قوله ﴿ إن الأرض لله يورثها . . . ﴾ .

(١٢٩) ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والاذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر ، وما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم . . . ﴾ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم ، وزوال النقم .

(١٣٠) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنو الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ وهو دون ذلك ، فقد كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ .

(١٣١) ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فإذا جاءتهم حسنة ﴾ من الخصب والرزق ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي جدب وقحط ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ مصائبهم عند الله ، أو من قبل الله .

١٣٢ ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق ، وإصرارهم على الباطل في قولهم ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها . . ﴾ يقولون : أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به .

١٣٣ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ الطوفان ﴾ كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار ، أو هو كثرة الموت أو هو الماء والطاعون على كل حال ، وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الطوفان الموت » وقال ابن عباس في رواية : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ﴿ والجراد ﴾ معروف مشهور ، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال : سألت عبدالله بن أبي أوفى عن الجراد ، فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد » وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه والبغوي عن النبي ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان : الحوت والجراد ، والكبد والطحال » وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ سئل عن الجراد فقال : « أكثر جنود الله ، لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل العنب وأذن فيه » ﴿ والقمل ﴾ فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الدبا ، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وقيل : هو البراغيث . ﴿ والضفادع ﴾ كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ﴿ والدم ﴾ فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً .

١٣٤ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك . . . ﴾ فدعا موسى ربه فكشف

عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا .

١٣٥ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

١٣٦ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها .

١٣٧ ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين ﴿ كانوا يستضعفون ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ كما قال تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وقال تعالى ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ وعن الحسن البصري وقتادة في قوله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ يعني الشام وقوله ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ قال مجاهد وابن جريج : وهي قوله تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ وقوله ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ أي وضربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ يبنون .

١٣٨ ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني اسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فأتوا ﴾ أي فمروا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام

لهم ﴾ كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله ، وما يجب أن يتنزه عنه من الشريك والمثيل .

١٣٩ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ أي هالك ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة ، فقلت : يا نبي الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ـ وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ـ فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هذا ما قالته بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم » .

١٤٠ ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

١٤١ ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره .

١٤٢ ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على بني اسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه التوراة ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجر ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشرٍ أربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ،

وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فلما تم الميقات ، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى على بني اسرائيل أخاه هارون ووصاه بالاصلاح وعدم الافساد ، وهذا تنبيه وتذكير ، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله ، له وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

(١٤٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه ﴿ قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ﴾ وقد أشكل حرف ﴿ لن ﴾ ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة ، والله يقول : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وقيل : إنها ﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية ﴿ لن تراني . . . ﴾ وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة ، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام « يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده » ولهذا قال ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ تراباً ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ مغشياً عليه ! ﴿ فلما أفاق ﴾ والافاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿ قال سبحانك ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات . وقوله ﴿ تبت إليك ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤية ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ من بني اسرائيل ، أو أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال : استب رجلان : رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى ممسك بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل ؟ » أخرجاه في الصحيحين من

حديث الزهري . والكلام في قوله عليه السلام « لا تخيروني على موسى » كالكلام على قوله « لا تفضلوني على الأنبياء ، ولا على يونس بن متى » قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب .

(١٤٤) ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأن اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به .

(١٤٥) ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

ثم أخبرنا تعالى أنه كتب له ﴿ في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة ، وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، وعلى كل حال فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ عن ابن عباس قال : أمر موسى أن يأخذ بأشد ما أمر به قومه ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتبات ، وهذا على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

(١٤٦) ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾

أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ، ويتكبرون على الناس بغير حق أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل

كما قال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ، عن سفيان بن عيينة في قوله ﴿ سأصرف عن آياتي . . . ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي وقوله ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقوله ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً . . . ﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشد ، أي طريق النجاة لا يسلكوه ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي لا يعملون بما فيها .

(١٤٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَـآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ والذين كذبوا بآياتنا . . . ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وكما تدين تدان .

(١٤٨) ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلاً جسداً له خوار ، والخوار صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك ، وهو على الطور حيث قال تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ، ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطى على عين بصائرهم عمى الجهل والضلال ، وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حبك الشيء يعمي ويصم » .

(١٤٩) ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي ندموا على ما فعلوا ، ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾أي من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

(١٥٠) ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى ، وهو غضبان أسف ـ والأسف أشد الغضب ـ ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ يقول : بئسما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم ، وهو مقدر من الله تعالى وقوله ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ في هذا دلالة على ما جاء في الحديث « ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه . وقوله ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم ﴿ قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني من القوم الظالمين ﴾ أي لا تسقني مساقهم ، ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿ ابن أم ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ فعند ذلك ،

(١٥١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ قال ﴾ موسى ﴿ رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح » .

﴿١٥٢﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

أما الغضب الذي نال بني اسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا . وقوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين . وقال أبو قلابة الجرمي في هذه الآية : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة ، وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل .

﴿١٥٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم نبه عباده تعالى وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق فقال ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا﴾ أي يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة ﴿ من بعدها ﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ وقد سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية ﴿ والذين عملوا السيئات . . . ﴾ فتلاها عبدالله بن مسعود عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

﴿ ولما سكت ﴾ أي سكن ﴿ عن موسى الغضب ﴾ أي غضبه على قومه ﴿ أخذ الألواح ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿ وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ قال قتادة : قال موسى : رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، أي آخرون في الخلق ، سابقون في دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة

أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها . . . قال رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر امثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال رب ، إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

(١٥٥) ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا فاختار سبعين رجلاً ، فبرزهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ، ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ، وعن السدي قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبني اسرائيل إذا أتيتهم ، وقد أهلكت خيارهم ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ، يقول : إن الأمر إلا أمرك ، وإن الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، ﴿ تضل من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ﴾ الغفر هو الستر وترك المواخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت .

(١٥٦) ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أي أوجب لنا ، وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ورجعنا ، وأنبنا إليك .

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء . . ﴾ أي أفعل ما أشاء ، وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك ، سبحانه لا إله إلا هو . وقوله ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم ، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حولهم إنهم يقولون ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾ روى الإمام أحمد عن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم علفها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ، ثم ركبها ، ثم نادى اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ، ألم تسمعوا ما قال ؟ » قالوا : بلى ، قال : « لقد حظرت رحمة واسعة ، إن الله خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق : جنها وإنسها وبهائمها ، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » . وقوله ﴿ فسأكتبها ﴾ يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم ، ﴿ للذين يتقون ﴾ أي للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ ﴿ للذين يتقون ﴾ أي الشرك وعظائم الذنوب ، قال تعالى ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وقوله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أي يصدقون .

(١٥٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي . . . ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم . روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي ، قال : حدثني رجل من الأعراب ، قال : جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي ، قلت : لألقين هذا الرجل ، فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل

التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه : هكذا ، أي لا ، فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولى كفنه والصلاة عليه . هذا حديث قوي له شاهد في الصحيح عن أنس . وقوله تعالى ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبدالله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى ، فكل ما أحل الله من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه الله فهو خبيث ضار في البدن والدين ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة ، وفي الحديث « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه : معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » وفي الحديث : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال تعالى ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وقوله ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(١٥٨) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ قل يا أيها الناس ﴾ وهو خطاب للأحمر والأسود ، والعجمي والعربي ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ في البخاري عن أبي الدرداء يقول : كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضباً ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ، فقال أبو الدرداء : ونحن عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « أما صاحبكم هذا فقد غامر » أي غاضب وحاقد ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر ، قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ ! وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله ، لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ » إني قلت : ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » انفرد به البخاري . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ، ولا أقوله فخراً : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً » إسناده جيد ولم يخرجوه . وفي صحيح مسلم : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وقوله ﴿ الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم » ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ النبي الأمي ﴾ أي الذي وعدتم به ، وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال ﴿ النبي الأمي ﴾ وقوله ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ واتبعوه ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

(١٥٩) ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني اسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به ، كما قال تعالى ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ .

(١٦٠) ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(١٦١) ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(١٦٢) ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسيره في سورة البقرة رقم ٥٩ إلى رقم ٦١ .

(١٦٣) ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ واسألهم ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل باخوانهم وسلفهم . وهذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطىء بحر القلزم﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي يعتدون فيه ، ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ﴾ أي ظاهرة على الماء ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ يقول : بفسقهم عن طاعة الله ، وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام . وفي الحديث « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » إسناده جيد .

(١٦٤) ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ أي لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة في نهيكم إياهم . قالت لهم المنكرة ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم ، أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ يقولون : ولعل لهذا الانكار يتقون ما هم فيه ، ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

١٦٥ ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بعذاب بئيس ﴾ فنص على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلفت الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين .

١٦٦ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾

﴿ خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

١٦٧ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ تأذن ﴾ تَفَعَّل من الأذان ، أي أعلم ، أو أمر ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعت باللام في قوله ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي بسبب عصيانهم ، ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم ، ويقال : إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين

والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية ، ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للرجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور رحيم ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً ، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

(١٦٨) ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً ، أي طوائف وفرقاً ﴿ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، كقول الجن ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً ﴾ ﴿ وبلوناهم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ بالحسنات والسيئات ﴾ أي بالرضا والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

(١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ فخلف من بعدهم خلف . . . ﴾ أي فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر ، لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب ، وهو التوراة ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوفون أنفسهم ، ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ، ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب . . . ﴾ يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبيننَّ الحق للناس ولا يكتمونه وقوله تعالى ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ، ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم ، وترك هوى نفسه ، وأقبل على طاعة ربه ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا

بعرض الدنيا عما عندي عقل يردهم عما هم فيه من السفه والتبذير .

(١٧٠) ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أي اعتصموا به ، واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

(١٧١) ﴿ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ رفعناه ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ عن ابن عباس قال : ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿ كأنه ظلة ﴾ رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه .

(١٧٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(١٧٣) ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(١٧٤) ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه ، قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال :

قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما في الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة . فالله سبحانه استخرج من ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم ، ولذلك قال ﴿ من ذرية آدم ﴾ ولم يقل من آدم ، وقال ﴿ من ظهورهم ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأ أنهم قائلون ذلك . فالمراد بهذا الاشهاد أنه إنما فطرهم على التوحيد ، ومما يدل على ذلك أن الله جعل هذا الاشهاد حجة عليهم في الاشراك ، فلو كان قد وقع هذا الاشهاد بالفعل لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول به كان في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أي التوحيد .

(١٧٥) ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

عن عبدالله بن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل ، يقال له : بلعم بن باعوراء ، وعن عبدالله بن عمرو : هو أمية بن أبي الصلت ، وعن ابن عباس : هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ﴿ فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره ، فمهما أمره امتثل وأطاعه ، ولهذا قال : (فكان من الغاوين ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين .

(١٧٦) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿ ولكنه

أخلد إلى الأرض ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعم ، وما جرى له في إضلال الله إياه ، وإبعاده من رحمته ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ ، يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته ، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

١٧٧ ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ساء مثلهم أن شُبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى ، وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه » وقوله ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات ، وموافقة الهوى .

١٧٨ ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى : من هداه الله ، فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر ، وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلٓه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

١٧٩ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم . ﴿ كثيراً من الجن والإنس ﴾ أي هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل

كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال رسول الله ﷺ : « أوغير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم » وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثم يبعث الله إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد » ولما استخرج ذرية آدم من صلبه ، وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال قال : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » وقوله تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها . . . ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية . وقوله ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ، ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا ﴿ بل هم أضل ﴾ أي من الدواب ، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أيس بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر ، فإنه إنما خلق ليعبد الله ، ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ .

(١٨٠) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعاً وتسعين اسماً : مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين . « هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب الواسع

الحكم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » رواه الترمذي وقوله ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله ، اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، قال قتادة يلحدون : يشركون في أسمائه ، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

(١٨١) ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ وممن خلقنا ﴾ أي بعض الأمم ﴿ أمة ﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿ يهدون بالحق ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿ وبه يعدلون ﴾ يعملون ويقصّون ، والأمة هنا هي الأمة المحمدية . وفي الحديث « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

(١٨٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ومعناه أنه يفتح أبواب الرزق ، ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ، ويعتقدوا أنهم على شيء .

(١٨٣) ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

ولهذا قال : ﴿ وأملي لهم ﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي قوي شديد .

(١٨٤) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ أو لم يتفكروا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ ما بصاحبهم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنة ﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً ، دعا إلى حق ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب ، وقلب يعقل به ، ويعي به كما قال تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ قال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل

يفخذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان ، يا بني فلان ، فحذرهم بأس الله ، ووقائع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت إلى الصباح ، أو حتى الصباح فأنزل الله ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ... ﴾ .

(١٨٥) ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض ، وفيما خلق من شيء فيهما فيتدبروا ذلك ، ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ، ولا شبيه ، ومن فعل من لا يبتغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟

(١٨٦) ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ وكما قال تعالى ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾

(١٨٧) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قيل : نزلت في قريش ، وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ، لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوجودها وقوله ﴿ أيان مرساها ﴾ أي متى محطها ومنتهاها ، وآخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد

علمها إلى الله تعالى ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، أو إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم ، أوليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، أو إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قال الله عز وجل ، فذلك ثقلها ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ يبغتهم قيامها ، تأتيهم على غفلة ، وفي الحديث « إن الساعة تهيج بالناس ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقيم سلعته في السوق ، ويخفض ميزانه ويرفعه » . وقوله ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عباس لما سأل الناس النبي ﷺ سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عنده ، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً ، أو كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، إنما علمها عند الله .

١٨٨ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أمره تعالى أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ وقوله ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ أي لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً ، وفي هذا الكلام نظر ، لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبته ، فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس . أي لاستكثرت من المال ، وفي رواية لعلمت إذا اشتريت شيئاً ماذا أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ، ولا يصيبني الفقر ﴿ وما مسني السوء ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ، ثم أخبر أنه نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فلما تغشاها ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله ﴿ فمرت به ﴾ استمرت بحمله ، أو استخفته، أو استبان حملها ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ، أو كبر الولد في بطنها ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سوياً ، أو أشفقا أن يكون بهيمة ، أو أشفقا أن لا يكون إنساناً ، أو لئن آتيتنا غلاماً ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٩٠)

﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا . . . ﴾ وقد جاء عن كثير من التابعين آثار مفادها أن حواء لما حملت أتاهما الشيطان فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني ، أو لأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما ، فسمياه عبدالحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال : صاحبكما الذي فعلت ما فعلت ، لتفعلن أو لأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله تعالى ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ ولكن هذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، وأخبارهم على ثلاثة أقسام ، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله أن المراد به ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، وليس المراد آدم وحواء ، ولهذا قال : قال الله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس .

(١٩١) ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذي عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ، ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل فيها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال ﴿ أيشركون ما لا يخلق . . ﴾ أي أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ، ولا يستطيع ذلك ، بل هم مخلوقون مصنوعون .

(١٩٢) ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ أي لعابديهم ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء .

(١٩٣) ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾

(١٩٤) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها .

(١٩٥) ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الأناس أكمل منها ، لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك . وقوله ﴿ قل ادعوا شركاءكم . . ﴾ أي استنصروا بها علي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم .

(١٩٦) ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب . . . ﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري ، وعليه متكلي ، وإليه ألجأ ، وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي .

(١٩٧) ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

﴿ والذين تدعون من دونه . . . ﴾ هذا مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب ، وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ .

١٩٨ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ وقوله ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ إنما قال : ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة ، كأنها ناظرة ، وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان .

١٩٩ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

﴿ خذ العفو ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه ، وكان هذا قبل أن تنزل « براءة » بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وما انتهت إليه الصدقات ، وقيل : أنفق الفضل ، وقيل : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم . روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ خذ العفو . . . ﴾ قال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » قال البخاري : العرف : المعروف ، وروي عن ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر كهولاً أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . . ﴾ وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتابه عز وجل ، انفرد باخراجه البخاري . قال ابن جرير وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، وبالاعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم ، لا بالاعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله ، وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب .

٢٠٠ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . . ﴾ قال : يا رب كيف بالغضب ؟ فأنزل الله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ . . . ﴾ وقد تساب رجلان بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضباً ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له ، فقال : مالي من جنون . وأصل النزغ الفساد ، إما بالغضب أو غيره . والعياذ : الالتجاء والاستنجاد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير .

(٢٠١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ﴿ إذا مسهم ﴾ أي أصابهم ﴿ طائف ﴾ غضب ، أو مس من الشيطان بالصرع ونحوه ، أو إذا أصابوا ذنباً ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

(٢٠٢) ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الانس ، ولا تسأم من امدادهم في الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية . ﴿ لا يقصرون ﴾ لا تفتر ولا تبطل عنه .

(٢٠٣) ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، والآية المعجزة والخارق كقوله ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية . . . ﴾ ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي ﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء ، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ ، فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم ، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال ﴿ هذا بصائر من . . . ﴾ .

(٢٠٤) ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ وإذا قرىء القرآن . . . ﴾ لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون في قولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ ، ولكن يتأكد ذلك في

الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » وروى ابن جرير قال : صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرؤ ون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ؟ ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله . وهذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام ، لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعية ، وهو القديم كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد من حديث « من كان له إمام فقراءته قراءة له » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً ، وهو في موطأ مالك ، واختار البخاري وجوب القراءة خلف الإمام في السرية ، والجهرية أيضاً . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (٢٠٥)

يأمر تعالى بذكره أول النهار ، وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وهذه الآية مكية ، وقال هنا : ﴿ بالغدو ﴾ وهو أول النهار ﴿ والآصال ﴾ جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين . وأما قوله ﴿ تضرعاً وخيفة﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة ، وبالقول ، لا جهراً ، ولهذا قال ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداء وجهراً بليغاً ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه

الآية أن المشركين إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والاسرار . والمراد من الآية الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين . وليس المراد كما زعم ابن جرير ، وقبله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ، وهذا بعيد مناف للانصات المأمور به . ولذلك مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال :

(٢٠٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾

﴿ إن الذين عند ربك ﴾ إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا ، لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف الأول فالأول ، ويتراصون في الصف » . وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالاجماع .

تفسير سُورَةِ الأنفَال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

الأنفال المغانم . نزلت في بدر ، وعن ابن عباس قال : الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ، ليس لأحد منها شيء ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ، ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي في قسمة نبيكم على ما أراده الله ، فإنما يقسمه كما أمره الله من العدل والانصاف .

(٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين . . . ﴾ عن ابن عباس قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فأدوا فرائضه ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً. وقال مجاهد ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ فرقت ، أي فزعت وخافت . وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أعمال الخير كلها وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال قتادة في قوله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله ، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم ، أوشكت أن تفارقها .

(٤) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان . روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « يا حارث ، عرفت فالزم » ثلاثاً . وقوله ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات ﴿ ومغفرة ﴾ أي يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات . قال الضحاك : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل

عليه أحد ، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء » .

(٥) ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾

كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ، فقسمها على العدل والتسوية فكان هذا هو المصلحة التامة ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم ، وإحراز عيرهم فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم ، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ورشداً ، وهدى ، ونصراً وفتحاً ﴿ لكارهون ﴾ لطلب المشركين .

(٦) ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

﴿ يجادلونك في الحق ﴾ أي كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿ بعدما تبين ﴾ لهم أنك لا تعقل إلا ما أمرك الله به .

(٧) ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(٨) ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم ، وهي العير ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي يريد هو أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفر بهم ، وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

(٩) ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه ازاره ورداؤه ، ثم قال : « اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً » قال : فما زال

يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فرداه ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﴿ إذ تستغيثون ربكم . . ﴾ فلما كان يومئذٍ التقوا فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر سبعون رجلاً ﴿ مردفين ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً متتابعين .

(١٠) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ ، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم. ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك ، قال تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ ولهذا قال ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بالله ورسوله في الدنيا والآخرة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

(١١) ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ وذلك لتكون قلوبهم مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ، ونعمته عليهم ، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلو ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وقوله ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ أمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون ، وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرحل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وقوله ﴿ ليطهركم به ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أي من وسوسته ، أو خاطر سيىء وهو تطهير الباطن ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أي بالصبر والاقدام على مجالدة

الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ وهو شجاعة الظاهر .

(١٢) ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة . . . ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها ، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أن يثبتوا المؤمنين ، أي قاتلوا معهم ، أو كثروا سوادهم ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين ، وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿ فاضربوا فوق الأعناق . . . ﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم ، وهي أيديهم وأرجلهم . وقوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ أي اضربوا الرؤوس ، أو على الأعناق ، وهي الرقاب .

(١٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

أي خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله . . . ﴾ أي وهو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(١٤) ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

هذا خطاب للكفار ، أي ذوقوا هذا العذاب ، والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم .

(١٦) ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه ، فيتبعه ، ثم يكر عليه فلا بأس عليه في ذلك . ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ، ويعاونونه ، فيجوز له ، حتى لو كان في سريته ففر إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ، ثم تبنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة ، وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم » ؟ فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : « بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين » قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . ﴿ فقد باء ﴾ أي رجع ﴿ بغضب من الله ومأواه ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ .

(١٧) ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ولهذا قال ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . . ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم ، وقلة عددكم أي بل هو أظفركم عليهم ، كما قال ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ والله سبحانه يعلم أن النصر ليس على كثرة العدد ، ولا بلبس اللأمة والعدد ، وإنما النصر من عند الله ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ولهذا قال ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك اليهم ، وكبتهم بها ، لا أنت . لما دنا القوم القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب ، فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : « شاهت الوجوه » فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من اظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته . ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب .

(١٨) ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والجنة.

(١٩) ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى للكفار ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ أي إن تستنصروا وتستقضوا الله، وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم، فإن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحاً منه ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة وقوله ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ كقوله ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة، أو وإن تعودوا إلى الاستفتاح نعد إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى ﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

(٢٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره، وترك زواجره ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ أي بعدما علمتم ما دعاكم إليه.

(٢١) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ قيل: المراد المشركون، وقيل: هم المنافقون، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك.

(٢٢) ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن فهمه، ولهذا قال ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا

للعبادة فكفروا . ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ، لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح ، والقصد إلى العمل الصالح .

(٢٣) ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ لأسمعهم ﴾ لأفهمهم ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم ، فلم يفهمهم ، لأنه يعلم أنه ﴿ لو أسمعهم ﴾ أي أفهمهم ﴿ لتولوا ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وهم معرضون ﴾ عنه .

(٢٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال البخاري ﴿ استجيبوا ﴾ أجيبوا ﴿ لما يحييكم ﴾ لما يصلحكم وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . قال ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني . أو ﴿ لما يحييكم ﴾ للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، أو يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل ، أو يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال : فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم » إن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها » .

(٢٥) ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة ، أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع . روى الامام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم

لتدعنه فلا يستجيب لكم » . وروى الامام أحمد عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ « إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه » فقلت : وفيهم أهل طاعة الله قال : « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

(٢٦) ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامتثلوا أمره ، قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل . . ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ،وأجوعه بطوناً وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم روي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله .

(٢٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أنزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك ، فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه ، أي أنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ، ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة ، فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد ، حتى أنزل الله توبته على رسوله ، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ فحله ، فقال : يا رسول الله ، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به » ﴿ أماناتكم ﴾ الأعمال التي ائتمن الله العباد عليها ، يعني الفريضة ، أو ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ بترك سنة ، وارتكاب معصية ، أو لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ، ثم تخالفوه في السر إلى غيره ، فإن ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم .

(٢٨) ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ فتنة ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه ، وتعتاضون بها منه .

(٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ فرقاناً ﴾ مخرجاً في الدنيا والآخرة ، أو نجاة ، أو نصراً ، أو فصلاً بين الحق والباطل ، ومن اتقى الله بفعل أوامره ، وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة ، وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها وسترها عن الناس ، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل .

(٣٠) ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

﴿ ليثبتوك ﴾ ليقيدوك ، أو ليحبسوك ، والاثبات هو الحبس والوثاق . اجتمع نفر من قريش من أشراف كل قبيلة ومعهم ابليس على هيئة رجل نجدي لينظروا في شأن رسول الله ﷺ ، فقال قائل : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما كان قبله من الشعراء ، فقال النجدي ـ إبليس ـ ما هذا لكم برأي ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فقال النجدي ـ إبليس ـ والله ما هذا لكم برأي ، فقال أبو جهل لعنه الله ، والله لأشيرن عليكم برأي ، قالوا : وما هو؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه ، فقال النجدي ـ إبليس ـ هذا هو الرأي ، القول ما قال الفتى ، لا رأي غيره ، فتفرقوا على ذلك وهم مجموعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم ، وهم على بابه ،

وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ ﴿ يس والقرآن الحكيم - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ وأنزل الله في إرادتهم اخراجه قوله ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ . ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

(٣١) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم يقولون ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدوا غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً ، وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله فقد كان ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من اخبار ملوكهم رستم واسفنديار ﴿ أساطير الأولين ﴾ وهو جمع أسطورة ، أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت .

(٣٢) ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

هذا من كثرة جهلهم ، وشدة تكذيبهم ، وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيبوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب .

(٣٣) ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي ﷺ والاستغفار ، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار . روى الامام أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا ازال أغفر لهم ما استغفروني ، ثم قال الحاكم : صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه . .

(٣٤) ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ

إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، وأذن الله في فتح مكة ، وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، أي الذين بمكة يصدون المؤمنين الذين هم اهله عن الصلاة فيه ، والطواف به ، ولهذا قال : ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي ﷺ واصحابه .

٣٥ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، وكانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق .

٣٦ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

لما أصيبت قريش ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أبي أمية ورجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا ، قال ففيهم أنزل الله عز وجل ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم . . . . ﴾ إلى قوله ﴿ هم الخاسرون ﴾ وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأي بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي .

٣٧ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، أو يميز المؤمن من الكافر ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كقوله ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ وقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ وقوله ﴿ يومئذ يصَّدَّعون ﴾ وقوله ﴿ وامتازوا اليوم ـ أيها المجرمون ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ أي يجمعه كله ، وهو جمع الشيء بعضه إلى بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكباً متراكماً ﴿ فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

٣٨ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أي عماهم فيه من الكفر والعناد والمشاقة ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » وقوله ﴿ وإن يعودوا ﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ قال مجاهد أي في قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم .

٣٩ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . . . . ﴾ فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال يا ابن أخي ، أعير بهذه الآية ، ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ قال : فإن الله يقول ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً ، وكان الرجل يفتن في دينه ، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام ، فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في عثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في عثمان وعلي ؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنته وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون ، وفي رواية أن ابن عمر قال : قد قاتلنا حتى لم تكن

فتنة وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ حتى لا يكون شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ أن يقال : لا إله إلا الله فلا يكون مع دينكم كفر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » قوله ﴿ فإن انتهوا ﴾ بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم كقوله تعالى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال : لا إله إلا الله فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله فقال لأسامة : « أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال : هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ .

(٤٠) ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

(٤١) ﴿ * وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة باحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ، ولا إرث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك . هذا مذهب الامام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف . ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط قال تعالى ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ وقوله ﴿فأن لله خمسه ﴾ قال بعضهم : لله نصيب يجعل في الكعبة وقال آخرون : ذكر الله هنا استفتاح كلام للتبرك ، فسهم الله وسهم رسوله واحد ، ففي الحديث « لله خمسها ، وأربعة أخماسها للجيش » وعن أبي بريدة قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول ﷺ لأزواجه

﴿ ولذي القربى ﴾ هم بنو هاشم وبنو المطلب ، وهذا قول جمهور العلماء ، وفي الحديث « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » رواه مسلم وفي بعض روايات هذا الحديث « إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام » ﴿ واليتامى ﴾ أي أيتام المسلمين واختلف العلماء : هل يختص بالأيتام الفقراء ، أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ﴿ والمساكين ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر ، أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك .

﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل الله على رسوله ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ أي في القسمة ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى الفرقان ، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ، ونصر نبيه وحزبه ﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك .

(٤٢) ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أسفل منكم ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ وعن الزبير في هذه الآية قال : لو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم مالقيتموهم ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الاسلام وأهله ، وإذلال الشرك

وأهله من غير ملأ منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه ، ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ قال محمد ابن اسحق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ﴿ وإن الله لسميع ﴾ لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي بكم ، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

(٤٣) ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلاً ، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ، وعن بعضهم رآهم بعينه التي ينام بها ، وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه . وقوله ﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تجنه الضمائر أو تنطوي عليه الأحشاء ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

(٤٤) ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ، ويطمعهم فيهم ، فعن عبدالله بن مسعود قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه ، فقال : كنا ألفاً رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد اتمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى أنه أغرى كلاً من الفريقين بالآخر ، وقلله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفين كما قال تعالى ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلاً منها حق وصدق ، ولله الحمد والمنة .

(٤٥) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(٤٦) ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي ﷺ وقال : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » وروى الطبراني مرفوعاً « إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف وعند الجنازة » أمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء ، والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ، ولا ينسوه بل يستعينوا به ، ويتكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم به الله تعالى ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم ، أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والإئتمار بما أمرهم الله ورسوله به ، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول ﷺ ، وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب ، والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالية والبربر والحبوش وأصناف السودان والقيط وطوائف بني آدم ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم ، إنه كريم وهاب .

(٤٧) ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يقول تعالى بعد أمره للمؤمنين بالاخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً ، أي دفعاً للحق ﴿ ولا تكونوا كالذين

خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم ، كما قال أبو جهل لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً ، فانعكس ذلك عليه أجمع ، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام ، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صعرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ، ولهذا قال ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ أي عالم بما جاؤوا به ، ولهذا جزاهم عليه شر الجزاء .

(٤٨) ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . ﴾ حسن لهم لعنه الله ما جاؤوا له ، وما وهموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر ، فقال : إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم على صورة سراقة بن مالك سيد بني مدلج ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ فلما التقوا ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع مدبراً ، وقال ﴿ إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

(٤٩) ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض . . . ﴾ لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم ، لا يشكون في ذلك ، فقال الله ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ و ﴾ يقولون لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ عن مجاهد ﴿ أدبارهم ﴾ أستاههم . قال ابن عباس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم .. قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ .

٥١ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا : جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور ، تبارك وتعالى ، وتقدس وتنزه الغني الحميد ، وفي الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله عن رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

٥٢ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى : فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد ، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم الله ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ أي لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٥٣ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

٥٤ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ

وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

وقوله ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآيات الله أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين وما ظلمهم الله بل كانوا هم الظالمين .

(٥٥) ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون .

(٥٦) ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ الذين عاهدت منهم .. ﴾ فكلما عاهدوا عهداً نقضوه وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام .

(٥٧) ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ أي نكل بهم ، ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة . ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ لعلهم يحذرون ، فيصنع بهم مثل ذلك .

(٥٨) ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وإما تخافن من قوم ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فانبذ اليهم ﴾ أي عهدهم ﴿ على سواء ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم ، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أي تستوي أنت وهم في ذلك . أو ﴿ على سواء ﴾ على مهل ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ أي ولو حتى في حق الكفار ، لا يحبها . روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للاسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿ إن الله لا يحب

الخائنين ﴾ يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله .

(٥٩) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي فاتونا ، فلا تقدر عليهم ، بل هم تحت قهر قدرتنا ، وفي قبضة مشيئتنا ، فلا يعجزونا ، كقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ .

(٦٠) ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

ثم أمر تعالى باعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة ، فقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ من قوة ومن رباط الخيل ﴾ روى الامام أحمد ومسلم رحمهما الله أن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وهو على المنبر ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال : « ارموا ، واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا » وروى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في حرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك الرجل أجر ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء وعلى ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر الأهلية فقال: «ما أنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم » وقوله ﴿ ترهبون به ﴾ أي تخوفون ﴿ به عدو الله وعدوكم ﴾ أي من الكفار ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ هم المنافقون ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على تمام الكمال .

(٦١) ﴿ * وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ وإن جنحوا ﴾ أي مالوا ﴿ للسلم ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فاجنح لها ﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله ، فإن الله كافيك ، وناصرك .

(٦٢) ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ .

(٦٣) ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الايمان . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً ، قالوا الله ورسوله أحق . ولهذا قال ﴿ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي عزيز الجناب ، فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه .

(٦٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يحرض الله نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران - ويخبرهم أنه حسبهم ، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم ، وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي حسبك الله ، وحسب من شهد معك .

(٦٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن

يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان النبي ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم . « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فقال : بخ بخ ، فقال : « ما يحملك على قولك : بخ بخ » قال : رجاء أن أكون من أهلها قال : « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه . ثم قال تعالى مبشراً المؤمنين ، وآمراً ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين .... ﴾ كل واحد بعشرة ، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة ، وجاء التخفيف .

(٦٦) ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

﴿ الآن خفف الله عنكم ... ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين .

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس : إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ ، فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء .

(٦٨) ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أي لهم بالمغفرة في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿ لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الأسارى ﴿ عذاب عظيم ﴾ .

٦٩ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ أي فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء . في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » . عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي مسلمة بن الأكوع حيث ردهما ، وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

٧٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم . . . ﴾ بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلماً ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم باسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك : نوفل وعقيل وحليفك عتبة بن عمر ، قال : ما ذاك عندي يا رسول الله ، قال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها : إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنته لبَنيَّ : الفضل وعبدالله وقثم » قال : والله يا رسول الله ، إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري ، وغير أم الفضل ، فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه قال

العباس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الاسلام عشرين عبداً ، كلهم في يده مال ، يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

﴿٧١﴾ ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فأمكن منهم ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بفعله ، حكيم فيه .

﴿٧٢﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ذكر الله تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم ، وجاؤوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار ، وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ، ثبت ذلك في صحيح البخاري وقوله ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم ، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب ، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال . وقوله ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر . . . ﴾ وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق ، أي مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، فقد روى الحاكم في مستدركه عن النبي ﷺ قال : « ولا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً » ثم قرأ ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه . . . ﴾ وفي الصحيحين « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » وفي المسند والسنن عن رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » وقوله ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ . أي إن لم تجانبوا المشركين ، وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت فتنة في الناس ، وهو التباس الأمر ، واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿٧٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر . أبداً لا ينقطع ، ولا ينقضي ولا يسأم ، ولا يمل لحسنه وتنوعه .

﴿٧٥﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

ذكر في هذه الآية أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة ، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة « المرء مع من أحب » وفي الحديث الآخر « من أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية « حشر معهم » ﴿ وأولوا الأرحام ﴾ يشمل جميع القرابات ، لا ما يطلقه علماء الفرائض على القرابات من غير ذوي الفروض والعصبات كما قد يزعمه بعضهم ، ويحتج بهذه الآية .

تفسير سورة التوبة

(١) ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الامام ، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك ، وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له فقوله تعالى ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ أي هذه براءة ، أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ .

(٢) ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان ، لقوله تعالى ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ وللحديث « ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته » .

(٣) ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ وإعلام من الله ورسوله ﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُه﴾ أي بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة فقال ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال

﴿ فهو خير لكم وإن توليتم ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ بل هو قادر عليكم ، وأنتم في قبضته ، وتحت قهره ومشيئته ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال . روى البخاري أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

(٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها . ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ أي الموفين بعهدهم .

(٥) ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ المراد بالأشهر الحرم أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم . ﴿ وخذوهم ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً ، وإن شئتم أسراً. وقوله ﴿واحصروهم واقعدوالهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع ، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ، ولهذا قال ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال ما نعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدخول في الإسلام ، والقيام بأداء واجباته . ونبه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين

الصلاةُ التي هي حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة ، وفي الصحيحين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث .

(٦) ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وإن أحد من المشركين ﴾ الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ استجارك ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أي القرآن تقرؤه عليه ، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمانة حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده . ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً ، أو في رسالة .

(٧) ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ما ثقفوا فقال ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ أي أمان ، ويتركون فيما هم فيه ، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه ، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون . استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي العقدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالؤوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح عليه البلد الحرام ، ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره، وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم

هداهم الله بعد ذلك إلى الاسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

(٨) ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلاًّ ولا ذمة (الإلّ) القرابة والذمة والعهد .

(٩) ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ذماً للمشركين ، وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

(١٠) ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾

(١١) ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . ﴾ روى البزار عن أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الاخلاص لله وعبادته ، لا يشرك به ، وأقام الصلاة ، وأتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذي جاءت به الرسل ، وبلغوه عن ربهم ، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله . ﴿ فإن تابوا ﴾ فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ .

(١٢) ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

يقول تعالى : وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي

عهودهم ومواثيقهم ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الاسلام ، أو ذكره بنقص ، ولهذا قال ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . قال قتادة وغيره : ﴿ أئمة الكفر ﴾ كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالاً .

(١٣) ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ وقال ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ وقوله ﴿ وهم بدؤ وكم أول مرة ﴾ قيل : المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال بغياً وتكبراً ، وقيل : المراد نقضهم العهد وقتا لهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح ، فكان ما كان ، ولله الحمد ، وقوله ﴿ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ يقول تعالى : لا تخشوهم واخشون ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر ، وما شئت كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(١٤) ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين ، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي في هذه الآية ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعني خزاعة .

(١٥) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ ذكر ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال : « يا عويش ، قولي : اللهم رب النبي محمد ، اغفر ذنبي ،

وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن » . ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ أي من عباده ﴿ والله عليم ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية ، والشرعية ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً ، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة .

(١٦) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أم حسبتم ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا قال ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي بطانة ودخيلة ، وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عباده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وقضاه .

(١٧) ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى : ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أي بحالهم ومالهم كما قال السدي : لو سألت النصراني : ما دينك ؟ لقال : نصراني ، ولو سألت اليهودي : ما دينك ؟ لقال : يهودي ، والصابىء ، لقال : صابىء ، والمشرك لقال : مشرك . ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بشركهم ﴿ وفي النار هم خالدون ﴾ .

(١٨) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

فشهد تعالى بالايمان لعمار المساجد ، روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه . وروى عبد بن حميد في مسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما عمار المساجد هم أهل الله » وقد روى الدارقطني عن أنس « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » وروى الحافظ البهائي في المستقصي عن أنس يقول الله : وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي ، وإلى المتحابين فيّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم . وقال عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال : أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون : إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره » ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿ وآتى الزكاة ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ أي ولم يخف إلا من الله ، ولم يخش سواه .

(١٩) ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس قال : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم ، فقال ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ وقوله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ... ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك . قال الضحاك : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ... ﴾ .

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

(٢١) ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾

(٢٢) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا
وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ
فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ ﴿٢٤﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم ، ﴿ إن استحبوا ﴾ أي اختاروا الكفر على الايمان وتوعد على ذلك، كقوله تعالى ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم والآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ روى الحافظ البيهقي قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . . ﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . وأموال اقترفتموها ﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿ وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها ، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ، ولهذا قال ﴿ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

روى الامام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر » انفرد باخراجه البخاري . وروى الامام أحمد وأبو داوود واللفظ له عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » .

(٢٥) ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم ، وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى ، وبتأييده وتقديره ، لا بعَددهم ولا بعُددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع ، أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ، وبإمداده ، وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

(٢٦) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ سكينته ﴾ أي وثباته على رسوله . ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ أي الذين معه ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة .

(٢٧) ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك . . ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن ، فأسلموا ، وقدموا عليه ﷺ مسلمين ولحقوه ، وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً .

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك

وحكم به شرعاً وقدراً . وقوله ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة ، وقد روى الامام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » قال عطاء : الحرم كله مسجد . ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . وقوله ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ، ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم . . . ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إن شاء ﴾ إلى قوله ﴿ هم صاغرون ﴾ أي فسوف يغنيكم الله من فضله من وجه آخر غير ذلك وقد عوضهم الله بما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية . ﴿ إن الله عليم ﴾ أي بما يصلحكم ﴿ حكيم ﴾ أي فيما يأمر به ، وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

٢٩ ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . ﴾ فأهل الكتاب في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاؤوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم ، وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ! فلما بعث وكفروا به ، وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ، لأنه من عند الله بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء ، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم . وقد أمر الله بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب ، وكان ذلك سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وكانت غزوة تبوك . ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿ عن يد ﴾ أي قهر لهم وغلبة ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي ذليلون حقيرون

مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ، ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه .

(٣٠) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فقد قال اليهود في العزير : إنه ابن الله ، وقال النصارى في المسيح : إنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وقد أكذب الله الطائفتين فقال ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿ يضاهئون ﴾ أي يشابهون ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ قاتلهم الله ﴾ لعنهم الله ﴿ أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟ .

(٣١) ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

روى الامام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ورسول الله يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ، ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » ثم دعاه إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : « إن اليهود مغضوب

عليهم ، والنصارى ضالون » ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتُّبع ، وما حكم به نفد ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(٣٢) ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أن يطفئوا نور الله ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس ، أو نور القمر بنفخة ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء والزَّرَّاع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال تعالى ﴿ يعجب الكفار نباته ﴾ .

(٣٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى . . . ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الاخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » .

(٣٤) ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . ومقصود الآية التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال . وفي الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفي رواية فارس والروم قال فمن الناس إلا هؤلاء والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم .

ولهذا قال تعالى ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين وقوله تعالى ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير ، وليسوا كما يزعمون ، بل هم دعاة إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون . ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة . . . ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء ، وعلى العبَّاد ، وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها .

والكنز : هو المال الذي لا تؤدى زكاته ، وما أدي زكاته فليس بكنز . روى الإمام أحمد أن شداد بن أوس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » .

(٣٥) ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم . . ﴾ أي يقال لهم : هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً ، كما في قوله ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ، وقد قيل : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذبه به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها ، فلما كانت هذه الأموال أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الآخرة . وروى الحافظ أبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ، ولكن يوسع جلده ، فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

(٣٦) ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ

كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر » ؟ قلنا : بلى ، ثم قال : « أي شهر هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة » ؟ قلنا : بلى ، ثم قال : « أي بلد هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة » ؟ قلنا : بلى ، قال : « فإن دماؤكم وأموالكم ـ وأحسبه ـ قال : وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت » ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى من بعض من سمعه » ورواه البخاري في التفسير ومسلم ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحذو بها على ما سبق في كتاب الله : قال تعالى : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ولهذا تغلظ الدية في الشهر الحرام في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ أي جميعاً ﴿ كما يقاتلونكم كافة ﴾ أي جميعهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ والأشهَرُ أن تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام منسوخ .

٣٧ ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله . وكان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس ، إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل

بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ .

(٣٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر ، وحمارة القيظ فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار . ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ ؟ أي ما لكم فعلتم هكذا رضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغب في الآخرة فقال ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بما ترجع » وأشار بالسبابة، انفرد باخراجه مسلم . وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي عند الله قليل . لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال : ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه ، فلما وضع بين يديه نظر إليه ، فقال : أمالي من كبير ، ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى ، وهو يقول : أف لك من دار ، إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفي غرور .

(٣٩) ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه ، فأمسك الله عنهم القطر ، فكان عذابهم ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ أي لنصرة نبيه ، وإقامة دينه ، كما قال تعالى ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقوله ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

(٤٠) ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ إلا تنصروه ﴾ أي إلا تنصروا رسوله ، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه ، كما تولى نصره ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يسيروا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم أحد ، فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبيه، ويقول: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ﴿فأنزل الله سكينته عليه ﴾ أي تأييده ونصره عليه ، أي على الرسول في أشهر القولين ، وقيل : على أبي بكر ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ أي الملائكة ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ كلمة الذين كفروا هي الشرك ، وكلمة الله هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين ، سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقوله ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب ، لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿ حكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

(٤١) ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أمر الله تعالى بالنفير التام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وقيل : كهولاً وشباناً ، ما سمع الله عذر أحد ، قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً . . ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه . ﴿ خفافاً وثقالاً ﴾ غنياً وفقيراً وقوياً وضعيفاً ﴿ وجاهدوا في سبيل الله . . . ﴾

أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ، لأنكم تفرحون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخره لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ « تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة .

(٤٢) ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ، ولم يكونوا كذلك ، فقال : ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ غنيمة قريبة ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي قريباً أيضاً ﴿ لاتبعوك ﴾ أي لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو لم يكن لدينا أعذار لخرجنا معكم ، قال الله تعالى ﴿ يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

(٤٣) ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قال عون : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة ، فقال : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ قال قتادة : عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل التي في سورة النور ، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء ، فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ وقوله ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو ، وإن لم تأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذن في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال :

(٤٤) ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ لا يستأذنك ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ .

(٤٥) ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

﴿ إنما يستأذنك ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجلاً ، ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ .

(٤٦) ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾

﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿ لأعدوا له عدة ﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً ، ﴿ فثبطهم ﴾ أي أخرهم ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي قدراً ، ثم بين وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال :

(٤٧) ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أي مطيعون لهم ، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين ، وفساد كبير ، أو عيون يسمعون لهم الأخبار ، وينقلونها إليهم ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(٤٨) ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم ، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك

وإخماده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته قال عبدالله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام ، وأهله غاظهم ذلك ، وساءهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ .

(٤٩) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتني ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال الله تعالى ﴿ ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. قال رسول الله ﷺ: وهو في ذات يوم جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك » ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية ، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم : « من سيدكم يا بني سلمة ؟ » قالوا : الجد بن قيس ، على أنا نبخله ، فقال رسول الله ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل ؟ » ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وقوله تعالى ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ، ولا محيص ولا مهرب .

(٥٠) ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له ، لأنه مهما أصابه من حسنة ، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ، ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال :

(٥١) ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قل ﴾ أي لهم ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هو مولانا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٥٢) ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هل تربصون بنا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ شهادة أو ظفر بكم . ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ أي ننتظر بكم هذا ، أو هذا ، بسبي أو بقتل ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ .

(٥٣) ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ .

(٥٤) ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ ولا ينفقون ﴾ نفقة ﴿ إلا وهم كارهون ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا ، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين .

(٥٥) ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقوله ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ هذا من المقدم والمؤخر تقديره :

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويريدون أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذاً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

٥٦ ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿ يحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ يميناً مؤكدة ﴿ وما هم منكم ﴾ أي في نفس الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف .

٥٧ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ﴿ أو مغارات ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿ لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً ، لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم ، لأن الاسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن يخالطوا المؤمنين .

٥٨ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ومنهم ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أي يعيب عليك ﴿ في ﴾ قسم ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم . أتي النبي ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وههنا حتى ذهبت ، قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بعدل ، فنزلت هذه الآية .

٥٩ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك ، فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم

الله ورسوله . . ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره .

(٦٠) ﴿ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين . . ﴿للفقراء﴾ الفقير أسوأ حالاً من المسكين، وقدم الفقراء في الآية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير . وفي الحديث : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والثمرة والثمرتان » قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » رواه الشيخان . والعاملون عليها هم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك . والمؤلفة قلوبهم أقسام ، فمنهم من يعطي ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، وقد كان شهدها مشركاً ، قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ . وقال النبي ﷺ : « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم » ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . والرقاب هم المكاتبون . والغارمون : هم من تحمل حمالة ، أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بما له ، أو غرم في أداء دينه ، أو في معصيته ثم تاب فهؤلاء يدفع لهم . وفي سبيل الله ، منهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان ، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحج من سبيل الله . وابن السبيل هو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده ، وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . ﴿ فريضة من الله ﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ والله عليم ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده

﴿ حكيم ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(٦١) ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿ هو أذن ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ، ومن حدثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ أي هو حجة على الكافرين ، ولهذا قال ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ .

(٦٢) ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ ذكر أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذي قلت ، فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق ، وكذب الكاذب ، فأنزل الله هذه الآية .

(٦٣) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله . . ﴾ أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل ، أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد والله ورسوله في حد ﴿ فأن له نار جهنم خالداً فيها ﴾ أي مهاناً معذباً ﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾ أي هذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

(٦٤) ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ، ثم يقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ﴿ قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي أن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به

ويبين له أمركم ، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين .

(٦٥) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾

قال رجل من المنافقين : ما أرى قرآن هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ فقال ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤ ون ﴾ إلى قوله ﴿ كانوا مجرمين ﴾ وإن رجليه لتسبقان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ .

(٦٦) ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

وقوله ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

(٦٧) ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ﴾ أي عن الانفاق في سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿ فنسيهم ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة .

(٦٨) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها ، مخلدين هم والكفار ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كفايتهم في

العذاب ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ .

(٦٩) ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم . وقوله ﴿ بخلاقهم ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : « فمن » وهذا الحديث له شاهد في الصحيح .

(٧٠) ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قوم نوح ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض ، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿ وعاد ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام ﴿ وثمود ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ، وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في آية أخرى ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ أي الأمة المؤتفكة ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أي بإهلاكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل ، وإزاحة العلل ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أي بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صار إليه من العذاب والدمار .

﴿٧١﴾ ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الصحيح « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ، وفي الصحيح أيضاً « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وقوله ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أي فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ﴿ حكيم ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿٧٢﴾ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي حسنة طيبة القرار ، كما جاء في الصحيحين : عن رسول الله ﷺ « جنتان من ذهب » آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة : آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم ، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في عدن » وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو حبس في أرضه التي ولد فيها » قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمٰن » ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان ، يقال له :

الوسيلة ، لقربه من العرش ، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة . وفي صحيح مسلم « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما روى مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل مس ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » . أخرجاه من حديث مالك .

(٧٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره بأن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة .

(٧٤) ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال قتادة : نزلت في عبدالله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبدالله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قيل : نزلت في الحلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته ، وقيل : في عبدالله بن أبي ، هم بقتل رسول الله ﷺ ، أو في نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال للأنصار : « ألم أجدكم

ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » ثم دعاهم الله إلى التوبة فقال : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ أي وإن استمروا على طريقهم ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ أي بالقتل والهم والغم ، ﴿ والآخرة ﴾ أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً .

(٧٥) ﴿ * وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى .

(٧٦) ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

(٧٧) ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك .

قوله ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

(٧٨) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم ، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها ، وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم وأنه تعالى علام الغيوب ، أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

(٧٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين ، لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ،

حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بيسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . وفي البخاري عن أبي مسعور رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل ـ نؤاجر أنفسنا في الحمل ـ على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مراءٍ ، وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا رواه مسلم . روى الإمام أحمد عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع ، وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال : فمللت من عمامتي لوثاً أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سداداً ، ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل ، فقال : هذا يتصدق بهذه ؟ فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ، بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « ويل لأصحاب المئين من الإبل » ثلاثاً ، قالوا : إلا من يا رسول الله ؟ قال : « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وشماله ، ثم قال : « قد أفلح المزهد المجهد » ثلاثاً . المزهد في العيش ، والمجهد في العبادة . وقوله ﴿ سخر الله منهم ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ، ولأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

(٨٠) ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل : بل لها مفهوم ، كما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لما نزلت هذه الآية ، أسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة ، لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ .

(٨١) ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا ﴾ معه ﴿ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ نار جهنم ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أشد حراً ﴾ فما فررتم منه من الحر ، بل أشد حراً من النار ، روى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال :« نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، فقال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع رسول الله ﷺ ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا .

(٨٢) ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

ثم قال متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ أي فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء ، فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت » ورواه ابن ماجه . وروى ابن أبي الدنيا عن زيد بن رفيع رفعه ، قال : « إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ، ثم بكوا القيح زماناً ، قال : فتقول لهم الخزنة : يا معشر الأشقياء ، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا ، هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ قال : فيرفعون أصواتهم ، يا أهل الجنة ، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد ، خرجنا من القبور عطاشاً ، وكنا طول الموقف عطاشاً ، ونحن اليوم عطاشى ؛ فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة ، لا يجيبهم ، ثم يجيبهم ﴿ إنكم ماكثون ﴾ فييأسون من كل خير » .

(٨٣) ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟

مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ فإن رجعك الله ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ أي تعزيراً لهم ، وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ وهذا كقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فإن جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها . ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي مع الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ، ليستغفر له ، أو يدعو لهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول ، رأس المنافقين ، كما روى البخاري أنه جاء عبدالله بن عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، تصلي عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيرني الله فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين » قال : إنه منافق ، قال : فصل عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم . . . ﴾ تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة عند تفسير الآية رقم (٥٥) من هذه السورة .

(٨٦) ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه مع القدرة عليه ، ووجود السعة والطول ، واستأذنوا الرسول في القعود ، وقالوا ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ .

(٨٧) ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء ، وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً ، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء . وقوله ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

(٨٨) ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(٨٩) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا ﴾ من بيان حالهم ومآلهم . وقوله ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلىٰ .

(٩٠) ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب من حول المدينة ، وهم نفر من بني غفار ، جاؤوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

﴿٩١﴾ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ، ومنه العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به ، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقره ، لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ، ولم يرجفوا بالناس ، ولم يثبطوهم ، وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال : ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ عن أبي تمامة قال : قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن الناصح لله ، قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران ، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ، ثم تفرغ للذي للدنيا . وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة ، فاغفر لنا ، وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا .

﴿٩٢﴾ ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاؤ ون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة فقال ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم ، حبسهم العذر » .

﴿٩٣﴾ ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ .

٩٤ ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ، يجزيكم عليها .

٩٥ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم ، فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ، ﴿ إنهم رجس ﴾ ، أي خبث نجس بواطنهم واعتقادهم ، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون ، أي من الآثام والخطايا .

٩٦ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، فإن الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من حجرها للافساد ، ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

٩٧ ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وفي الحديث « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ، رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي ، ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم

رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ روى مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقوله ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والحكمة والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته .

(٩٨) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وأخبر تعالى أن منهم ﴿ من يتخذ ما ينفق ﴾ أي في سبيل الله ﴿ مغرماً ﴾ أي غرامة وخسارة ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم ، والسوء دائر عليهم ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان .

(٩٩) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

(١٠٠) ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم المقيم . قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار : من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ . فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين

والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم ، أعني الصديق الأكبر ، والخليفة الأعظم : أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم . عياذاً بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون ، لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون .

(١٠١) ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة منافقون ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي مرنوا واستمروا ، ومنه يقال : شيطان مريد ، ومارد ، ويقال : تمرد فلان على الله ، أي عتا وتجبر . وقوله ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ لا ينافي قوله تعالى ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساء ، وقد أعلم ﷺ حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم . والله أعلم . وروى الحافظ ابن عساكر أن رجلاً يقال له حرملة : أتى النبي ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير » فقال : يا رسول الله ، إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستراً » . ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ يعني القتل والسبي ، أو بالجوع وعذاب القبر ، ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من

المنافقين . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة ، فإن صلى عليه ، وإلا تركه ، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشدك الله أمنهم أنا ؟ قال : لا ، ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

١٠٢ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي أقروا بها ، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين . قال ابن عباس : نزلت في أبي لبابة ، وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد ، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ ، وعفا عنهم .

١٠٣ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم . روى مسلم عن عبدالله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ، صل عليّ وعلى زوجي ، فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ رحمة لهم . وقوله ﴿ والله سميع ﴾ أي لدعائك ﴿ عليم ﴾ أي بمن يستحق ذلك منك . ومن هو أهل له . وكان النبي ﷺ إذا دعا لرجل أصابته ، وأصابت ولده ، وولد ولده . رواه الإمام أحمد .

١٠٤ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ، ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب تاب الله عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أُحد .

(١٠٥) ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعيد من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ روىٰ الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان » .

(١٠٦) ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله . . . ﴾ هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، وقعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً ، وميلاً إلى الدعة ، والحفظ ، وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونفاقاً فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار . . ﴾ وقوله ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ والله عليم ﴾ أي بمن بستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إلٰه إلا هو ، ولا رب سواه .

(١٠٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(١٠٨) ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

(١٠٩) ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ

هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿١١٠﴾

سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى مكة من مشركي قريش ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك علينا ، يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته دعوة رسول الله ﷺ ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أمر أحد ، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، فأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك ، وجاؤوا فسألوا رسول الله أن يصلي فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « أنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه

المدينة . ﴿ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلا خيراً ، ورفقاً بالناس وهم كذبة . ﴿ يحبون أن يتطهروا ﴾ كانوا يستنجون بالماء بعد الحجارة . والمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء أو مسجد النبي ﷺ في المدينة ، قولان ولا منافاة لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد النبي ﷺ أولى ، وفي الحديث « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفيه كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً ﴿ ريبة في قلوبهم ﴾ شقاءً ونفاقاً ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أي بموتهم .

﴿١١١﴾ ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه ، وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن : بايعهم والله وأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة ، وفى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية . قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . ﴾ وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله . . . ﴾ أي سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة ، ولهذا جاء في الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله ﴿ وعداً عليه . . . ﴾ تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة على موسى ، والانجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد وهذا كقوله ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ولهذا قال ﴿ فاستبشروا . . . ﴾ أي فالمستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم .

(١١٢) ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

هذا نعت للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة ، والخلال الجليلة ﴿ التائبون ﴾ من الذنوب كلها ، التاركون للفواحش ﴿ العابدون ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ، وهي الأقوال والأفعال . فمن أخص الأقوال الحمد ، فلهذا قال : ﴿ الحامدون ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة ههنا ، ولهذا قال : ﴿ السائحون ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله ﴿ سائحات ﴾ أي صائمات . وكذا الركوع والسجود ، وهي عبارة عن الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ . وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما يبتغي فعله ، ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ وذلك في تحليل ما أحل ، وتحريم ما حرم . ﴿وبشر المؤمنين﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

(١١٣) ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

(١١٤) ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾

روى الإمام أحمد أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية فقال : « أي عم ، قل : « لا إله إلا الله » كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبدالمطلب ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت ﴿ ما كان للنبي . . . ﴾ ونزل ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه . وروى الإمام أحمد عن أبي بردة قال : كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ، ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه ، وعيناه تذرفان ، فقام عمر إليه ، وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ، مالك ؟ قال : « سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من

النار » . قال قتادة : ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا نبي الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا يستغفر لهم ؟ فقال النبي ﷺ : « بلى ، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا . . . ﴾ وروى أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله ، إن عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : « اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني وذكر الحديث » وقوله تعالى ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ أي لما مات تبين له أنه عدو لله . ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ أي لمتضرع ﴿ حليم ﴾ .

﴿١١٥﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، وحكمه العادل : إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه ، فتتركوا . فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ، ولم ينه عنه .

﴿١١٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين ، وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لأولى لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه .

﴿١١٧﴾ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . ﴿ في ساعة العسرة ﴾ أي من النفقة

والظهر والزاد والماء ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ ثم رزقهم الانابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ .

(١١٨) ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . . ﴾ هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أي مع سعتها ، فسدت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون إلى ما يصنعون فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله ، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم ، وتوبة عليهم . ولهذا قال :

(١١٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » أخرجاه في الصحيحين .

(١٢٠) ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ

أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب في رغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ عطش ﴿ ولا نصب ﴾ تعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ مجاعة ﴿ ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ ولا ينالون منه ظفراً وغلبة ﴿ إلا كتب لهم ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .

(١٢١) ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ولم يقل ههنا ﴿ به ﴾ كما قال هناك ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ لأن هذه الأفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة . روى الإمام أحمد عن عبدالرحمٰن بن حباب السلمي قال : خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم حث ، فقال عثمان : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم نزل مرقاه من المنبر ثم حث فقال عثمان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده : هكذا يحركها . وعن عبدالرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ، ويقول : (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) يرددها مراراً . وقوله تعالى ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ قال قتادة : ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا قرباً من الله .

(١٢٢) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ

وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ وقال ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب . . . ﴾ قال فنسخ ذلك بهذه الآية . ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يعني عصبة ، يعني السرايا ، ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ ، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يقول : ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ نزلت هذه الآية في أناس من الصحابة خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ ، فقال الله عز وجل ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبغون الخير ﴿ليتفقهوا في الدين ﴾ وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله ، فعذرهم ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم .

(١٢٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام . وقوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر . ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه .

(١٢٤) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ فمن المنافقين ﴿ من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ذلك فقال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل حكى غير واحد الإجماع على ذلك .

(١٢٥) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض . . . ﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم ، وريباً إلى ريبهم . قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقال ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا من جملة شقائهم ، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيىء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

(١٢٦) ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أولا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي يختبرون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم ، قال مجاهد : يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة : بالغزو في السنة مرة أو مرتين . وفي الحديث عن أنس : « لا يزداد الأمر إلا شدة ، ولا يزداد الناس إلا شحّاً ، وما من عام إلا والذي بعده شر منه » سمعته من نبيكم ﷺ .

(١٢٧) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي تلفتوا ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق ، وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم في الدنيا ، لا يثبتون عند الحق ، ولا يقبلونه ولا يفهمونه ، كقوله تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ .

(١٢٨) ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، أي من جنسهم ،

وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقال ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته . أو ﴿ من أنفسكم ﴾ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولد في أبي وأمي ، ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء » وقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ، ويشق عليها ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » وفي الصحيح « إن هذا الدين يسر ، وشريعته سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه » ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم . وقوله بالمؤمنين ﴿ رؤوف رحيم ﴾ كقوله ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

(١٢٩) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فقل حسبي الله لا إله إلا هو ﴾ أي الله كافي . ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ كما قال تعالى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ﴾ ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .

تفسير سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين .

(٢) ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ أكان للناس عجباً . . . ﴾ يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ، ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية في قولهم ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ ﴿ أَوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : لمّا بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً . . . ﴾ وقوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، أو أجراً حسناً بما قدموا ، أو الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، ومحمد ﷺ يشفع لهم . وقوله ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ، ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك .

(٣) ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : هذه الأيام ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، والعرش أعظم مخلوقاته وسقفها . وقوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ كقوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أيها المشركون في أمركم ، تعبدون مع الله إلّهاً غيره ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ .

(٤) ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم ، وظل من يحموم ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾ ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

(٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوثق ، ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر ، كقوله تعالى ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وقوله تعالى ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وقدره ﴾ أي القمر ﴿ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي لم يخلقه عبثاً ، بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ وقوله ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾

(٦) ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئاً ، كقوله تعالى ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ وقوله ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى ، كقوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ وقال ههنا

﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه .

(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾

(٨) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون في لقائه شيئاً ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

(٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، وامتثلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم . قال ابن جريج : يمثل له عمله في صورة حسنة طيبة ، إذا قام من قبره يعارض صاحبه ، ويبشره بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم . . . ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ، ويلاذه حتى يقذفه في النار .

(١٠) ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ دعواهم فيها سبحانك . . . ﴾ أي هذا حال أهل الجنة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ وقوله ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ وقوله ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء نزوله حيث قال ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ وقال ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس » . وإنما يكون

ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد ، فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١١) ﴿ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم ، والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم ، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ، ولهذا قال ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم . . . ﴾ أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي الاكثار من ذلك ، فقد روى البزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » ورواه أبو داود . وهذا كقوله تعالى ﴿ ويدع الإنسان بالشرِ دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ وذلك كقول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم .

(١٢) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير ، وهما في معنى واحد ، وذلك أنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها ، وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا الله في كشفها ، ورفعها عنه في حال اضطجاعه ، وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرج شدته ، وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ وكقول الرسول ﷺ : « عجباً للمؤمن لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ،

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

(١٣) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(١٤) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم ، وأرسل إليهم رسولاً ، لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله . وفي صحيح مسلم « إن الدنيا حلو خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

(١٥) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله ، وحججه الواضحة قالوا له : ﴿ ائت بقران غير هذا ﴾ أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ، أو بدله إلى وضع آخر ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبد مأمور ، ورسول مبلغ عن الله ﴿ إن اتبع إلا ما يوحى إليّ . . . ﴾ .

(١٦) ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك وإرادته ومشيئته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي ، وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصونني به ، ولهذا قال ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم

عقول تعرفون بها الحق من الباطل ، ولهذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا . وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق . والفضل ما شهدت به الأعداء . فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب على الله .

(١٧) ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ، ولا أشد إجراماً ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحداً أكبر جرماً ، ولا أعظم ظلماً من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأنبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب ، وسجاح ، والأسود العنسي . قال عبدالله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس ، أفشوا السلام . وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

(١٨) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبداً ، ولهذا قال تعالى ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(١٩) ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد ، وهو الإسلام . وقوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك . . ﴾ أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين ، وأعنت الكافرين .

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمد آية من ربه ، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهباً ، أو يزيح عنهم جبال مكة ، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله . ﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ أي الأمر كله لله ، وهو يعلم العواقب في الأمور . ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم . هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين : فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً أو تثبتاً لأجابهم .

(٢١) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ، ونحو ذلك ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سحاء كانت من الليل ، أي مطر ، ثم قال : « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكواكب » وقوله ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه ، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع أفعاله ، ويحصونها عليه ، ثم

يعرضونها على عالم الغيب والشهادة: فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير .

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ أي يحفظكم ، ويكلؤكم بحراسته ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ فبينما هم كذلك ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ريح عاصف ﴾ أي شديدة ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي هلكوا ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً ، بل يفردونه بالدعاء والابتهال ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ أي هذه الحال ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي لا نشرك بك أحداً ، ولنفردنك بالعبادة هناك ، كما أفردناك بالدعاء هنا .

(٢٣) ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فلما أنجاهم ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ، ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء في الحديث «ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » وقوله ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿ فننبئكم ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٢٤) ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضب وغير ذلك ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وازينت ﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي على جذاذها وحصادها . فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابسة بعد الخضرة والنضارة ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . قال تعالى ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ﴾ ثم قال تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ونقلتها عنهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

(٢٥) ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص ، والنكبات ، فقال ﴿ والله يدعو إلى دار السلام . . . ﴾ روى ابن جرير عن جابر بن عبدالله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجليّ ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً فقال : اسمع ، سمعت أذناك ، واعقل ، عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » .

(٢٦) ﴿ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الدار

الآخرة ، كقوله ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله ﴿ وزيادة ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك أيضاً ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم . وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضله وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويحرسنا من النار؟ ـ قال ـ فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة . . وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « النظر إلى وجه الرحمٰن » رواه ابن جرير . وقوله ﴿ ولا ذلة ﴾ أي هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ أي نضرة في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

٢٧ ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك ﴿ وترهقهم ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وقوله ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أي مانع ، ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى ﴿ يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر . كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ وقوله ﴿ كأنما أغشيت وجوههم . . . ﴾ إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

٢٨ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ

شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾

﴿ ويوم نحشرهم ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس ، وبر وفاجر كقوله ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ ﴿ ثم نقول للذين أشركوا . . . ﴾ أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً ، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كقوله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ وقال تعالى في هذه الآية إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم . . . ﴾ أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ﴾ .

(٢٩) ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أي ما كنا نشعر بها ، ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضي به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحرج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه ، وبين أحوالهم ، وأقوالهم ، ورد عليهم فيما هم فيه أتم ردٍّ .

(٣٠) ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ هنا لك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس ، وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وقوله ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ وقوله ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

(٣١) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإلهية فقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها حباً وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً أأله مع الله ؟ فسيقولون الله ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ وقوله ﴿ أمن يملك السمع والأبصار ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ، ولسلبكم إياها . وقوله ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة . وقوله ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فالملك كله : العلوي والسفلي ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم .

(٣٢) ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

﴿ فذلكم الله ربكم الحق . . . ﴾ أي فهذا الذي اعترفتم به بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم ، وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو ، واحد لا شريك له ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء .

(٣٣) ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ كذلك حقت كلمة ربك . . . ﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون ، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

﴿٣٤﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ ؟ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ، ثم ينشيء ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ، ويبدلهما بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿ قل الله ﴾ هو الذي يفعل هذا ، ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الله الرشد إلى الباطل .

﴿٣٥﴾ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق . . . ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارى والضلال ، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿ أفمن يهدي إلى الحق . . ﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه ؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ وقوله ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم ، كيف سويتم بين الله ، وبين خلقه ، وعدلتم بهذا وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده . وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة .

﴿٣٦﴾ ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم ، أي توهم وتخيل ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ تهديد لهم ، ووعيد شديد ، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿٣٧﴾ ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا بيان لاعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ، ولا

بسورة من مثله ، لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ، ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله ﴿ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أي وبينا الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين . فعن علي بن أبي طالب « فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم » أي خبّر عما سلف ، وعما سيأتي ، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه .

٣٨ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

﴿ أم يقولون افتراه . . . ﴾ أي أن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذباً وميناً : إن هذا من عند محمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ، فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالى تحداهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليأتوا بمثله ، وليستعينوا بمن شاؤوا فقال تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام ، وحلاوته وجزالته ، وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له ، وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من عند الله ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك

عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ، ومعالجة المرض فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » .

(٣٩) ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

(٤٠) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي من هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلاّ ما يستحقه . تبارك وتعالى ، وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو .

(٤١) ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ كقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . . . ﴾ وقال إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه لقومهم المشركين ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ، وهو الأطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله .

(٤٣) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي ينظرون إليك ، وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ .

(٤٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً ، وإن كان قد هدى به من هدى ، وبصر به من العمي ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

(٤٥) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار . . . ﴾ كقوله ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ وكقوله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ وهذا كله دليل على استقصار

الحياة الدنيا في الآخرة كقوله ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ وقوله ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف الأبناء والآباء ، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ وقوله ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . . . ﴾ كقوله ﴿ ويل للمكذبين ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة .

(٤٦) ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك . وقد روى الطبراني عن النبي ﷺ قال : « عرضت على أمتي البارحة لدى هذه الحجرة : أولها وآخرها » فقال رجل : يا رسول الله ، عرض عليك من خلق ، فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » .

(٤٧) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً : أمة بعد أمة ، وهذه الأمة ، وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول من يفصل بينهم ويقضى لهم ، وفي الصحيحين « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق » فأمته ﷺ إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته مما لا فائدة لهم فيه كقوله ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها

ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة ، وواقعة ، وإن لم يعلموا وقتها عيناً .

(٤٩) ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا أقول إلا ما علمني ، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة ، وأنها كائنة ، ولم يطلعني على وقتها ، ولكن ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة ، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

(٥٠) ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ؟ ﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ .

(٥١) ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾

﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

(٥٢) ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة ، يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً ، كقوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

(٥٣) ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ويستنبئونك﴾ أي ويستخبرونك ﴿ أحق هو ﴾ أي المعاد والقيامة من

الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً ؟ ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ وفي التغابن ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

(٥٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم أخبرنا تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ .

(٥٥) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(٥٦) ﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

(٥٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ أي من الشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وهدى ورحمة ﴾ للمؤمنين أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقوله ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في

آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

(٥٨) ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

(٥٩) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل ، كقوله تعالى ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ .

(٦٠) ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظنهم أن نصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ؟ وقوله ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم ، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً ، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم . روى ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية قال : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف ، فيؤتى برجل من الصنف الأول ، فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها ، وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، شوقاً إليها ، قال : فيقول الله تعالى : عبدي إنما عملت للجنة ، هذه الجنة فادخلها ، ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار ، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي ، فيدخل هو ومن معه الجنة ، قال : ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني ، فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب ، قد خلقت ناراً ، وخلقت

أغلالها وسعيرها ، وسمومها ويحمومها ، وما أعددت لأعدائك ، وأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري خوفاً منها ، فيقول : عبدي ، إنما عملت ذلك خوفاً من ثأري ، فإني قد أعتقتك من النار ، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي ، فيدخل هو ومن معه الجنة ، ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث ، فيقول : عبدي ، لماذا عملت ؟ فيقول : رب حباً لك ، وشوقاً إليك ، وعزتك لقد أسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري شوقاً إليك ، وحباً لك ، فيقول تبارك وتعالى : عبدي إنما عملت حباً لي ، وشوقاً إليّ ، فيتجلى له الرب جل جلاله ، ويقول : ها أنا ذا ، فانظر إليّ ، ثم يقول : من فضلي عليك أن أعتقك من النار ، وأبيحك جنتي ، وأزيرك ملائكتي ، وأسلم عليك بنفسي ، فيدخل هو ومن معه الجنة .

٦١ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله ، وأحوال أمته ، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء ، نحن مشاهدون لكم وراءون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

٦٢ ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

٦٣ ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا ، وكانوا يتقون ، كما فسرهم به ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً ، وأولياء الله ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلون من أهوال الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما ورائهم في الدنيا . قال عبدالله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : أولياء الله هم الذين إذا رؤ وا ذكر الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع رواه البزار قال : قال رجل : يا رسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رؤ وا ذكر الله » وروى ابن جرير عن أبي هرية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله

عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل : من هم يا رسول الله ، لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

٦٤ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ : في هذه الآية : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » . وفي حديث آخر رواه ابن جرير زيادة « وهي في الآخرة الجنة » ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

٦٥ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ ولا يحزنك ﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ، فإن العزة لله جميعاً ، أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بأحوالهم .

٦٦ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهي لا تملك شيئاً ، ولا ضراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم ، وكذبهم وإفكهم .

٦٧ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل والنهار ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم وحركاتهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدرها ومسيرها .

﴿٦٨﴾ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ ولداً سبحانه هو الغني ﴾ أي تقدس عن ذلك ، هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد كقوله سبحانه ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

﴿٦٩﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه ، المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ .

﴿٧٠﴾ ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

كما قال هنا ﴿ متاع قليل ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الكذب والزور .

﴿٧١﴾ ﴿ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلواته وسلامه عليه ﴿ واتل عليهم ﴾ أي أخبرهم ، واقصص عليهم ، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ، ويخالفونك ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم

من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مقامي ﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿ وتذكيري ﴾ إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي فإني لا أبالي ، ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تنظرون ، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أباليكم ، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء ، كما قال هود لقومه ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ .

(٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ فإن توليتم ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تعددت شرائعهم وتنوعت مناهلهم ، كما قال تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولهذا جاء في الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات » - وهم الأخوة من أمهات شتى ، والأب واحد .

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾ أي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي يا محمد ، كيف أنجينا المؤمنين ، وأهلكنا المكذبين .

(٧٤) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم ﴿فجاءوهم بالبينات﴾، أي بالحجج

والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ، كقوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقوله ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوبهم من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح عليه السلام ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، ولهذا يقول المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . قال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء ، وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟ .

(٧٥) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه ﴿ بآياتنا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق ، والانقياد له ، وكانوا قوماً مجرمين .

(٧٦) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

(٧٧) ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ .

(٧٨) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي الذين كانوا عليه ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ . وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بما جاء به موسى وهارون ، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صيحة واحدة أجمعين ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

أراد فرعون لعنه الله أن يبهرج على الناس ، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلٓهية في ذلك المحفل العام ﴿ وألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ فظن فرعون أن يستنصر بالسحار على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ .

(٨٠) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾

﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا ، وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .

(٨١) ﴿ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

قال موسى لما ألقوا ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ .

(٨٢) ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ والآية الأخرى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

٨٣ ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية ، وهم الشباب على وجل وخوف منه ، ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة ، يخاف رعيته منه خوفاً شديداً . ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف . . . ﴾ .

٨٤ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل ، كقوله تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ﴿ قل هو الرحمٰن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ .

٨٥ ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم بنا ، وتسلطهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك .

٨٦ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك ، وتوكلنا عليك .

٨٧ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ، أي أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أمروا أن يتخذوها مساجد ، أو كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه ، وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وفي الحديث « كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى » ولهذا قال ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾ أي بالثواب والنصر القريب . عن ابن عباس قال : قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم ، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَلَ القبلة ، أو ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي يقابل بعضها بعضاً .

(٨٨) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق ، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً ، قال موسى ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وأموالاً ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها . ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي اطبع عليها ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السلام فقال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .

(٨٩) ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وقد استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ .

(٩٠) ﴿ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ

﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً ، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم ﴿ فأرسل في المدائن حاشرين ﴾ يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة ، وجيوش هائلة ، لما يريده الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر ، وفرعون وراءهم ، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ وتخرّق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب ، وهم بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيبت الدعوة ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم عليها ، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من أمره شيئاً ، فتجلد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم ، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم ، فلما استوثقوا فيه ، وتكاملوا ، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم ، فارتطم عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال : ﴿ آمنت أنه لا إلّه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ .

(٩١) ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ولهذا قال الله في جواب فرعون حين قال ما قال ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ أي أهذا

الوقت تقول آمنت ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ أي في الأرض .

(٩٢) ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ ببدنك ﴾ أي بجسدك ، أي بجسم لا روح فيه ، لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك ، وأن الله القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ أي لا يتعظون بها ، ولا يعتبرون بها . وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء ، روى البخاري قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه » .

(٩٣) ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدنيوية . وقوله ﴿ مبوأ صدق ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله لما أهلك فرعون وجنوده استقرت الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ وقوله ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً . وقوله ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزال عنهم اللبس ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

(٩٤) ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ ﴿٩٥﴾

قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ ﴿٩٧﴾

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . . . . ﴾ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ، بل ، ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه ، أو أكثرهم ، كقوله تعالى ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤ ون ﴾ ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل « نينوى » وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستعانوا به وتضرعوا واستكانوا ، وأحضروا

أطفالهم ، ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب ، وأخروا ، كما قال تعالى ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واختلف المفسرون : هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين ، أرجحهما الأول .

(٩٩) ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، بل الله ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ فالله هو الفعال لما يريد ، الهادي لمن يشاء ، والمضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله .

(١٠٠) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل .

(١٠١) ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه ، وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج ، وهو مع هذا

مسخر مذلل للسالكين يحمل سفنهم ، ويجري بها برفق بتسخير القدير ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وقوله ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ أي ، وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون ، كقوله ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٠٢) ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ .

(١٠٣) ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة ، كقوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش ، « إن رحمتي سبقت غضبي » .

(١٠٤) ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً ، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده ، لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

(١٠٥) ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(١٠٦) ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ وأن أقم وجهك للدين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده ﴿ حنيفاً ﴾ أي منحرفاً عن الشرك ، ولهذا قال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

١٠٧ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . . . ﴾ فيه بيان أن الخير والشر ، والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له . روى الحافظ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب إليه ، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك ، فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه ، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك ، وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

تفسير سورة هود

روى الحافظ أبو يعلى عن عكرمة قال: قال أبو بكر : سألت رسول الله ﷺ : ما شيبك ؟ قال : « شيبتني هود ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة وأما قوله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ أي هي محكمة في لفظها ، مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . وقوله ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله ، وأحكامه ، خبير بعواقب الأمور .

(٢) ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، كقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث الصحيح « يا معشر قريش » أرأيتم لو آخبرتكم أن خيلاً تصحبكم ، ألستم مصدقيّ ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

(٣) ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٍ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ كَبِيرٍ ﴾

﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه . . . ﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ أي في الدنيا ﴿ إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي في الدار

الآخرة ، كقوله ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ وفي الصحيح أن رسول الله قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك » عن ابن مسعود . في قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره وقوله ﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة .

﴿٤﴾ ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ، وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب ، كما أن الأول مقام الترغيب .

﴿٥﴾ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . ﴿ يستغشون ﴾ يغطون رؤوسهم . وللآية تفسير آخر ، وهو أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا : شيئاً ، أو عملوا شيئاً ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ من القول ﴿ وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر .

﴿٦﴾ ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

أخبر تعالى أنه تكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض : صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض ،

وأين تأوي إليه من وكرها ، وهو مستودعها ، أو مستقرها : حيث تأوي ، ومستودعها : حيث تموت ، أو مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك . قال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، وفي صحيح مسلم : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي البخاري في تفسير هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أَنفق أُنفق عليك » وقال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال : أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يمينه وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع » . ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ وقال سبحانه ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ ولم يقل أكثر عملاً ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، وعلى شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل . ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت . . . ﴾ أي ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ وهم مع هذا منكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة . وقولهم ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول .

(٨) ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة . . . ﴾ أي ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود ، وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً : ﴿ ما يحبسه ﴾ أي ما يؤخر هذا العذاب عنا ؟ فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد . (والأمة) تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة ، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله ﴿ وادَّكر بعد أمة ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ وتستعمل في الملة والدين ، كقوله ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ وتستعمل في الجماعة كقوله ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ وقوله ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيها الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار » وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وفي الصحيح، فأقول : « أمتي أمتي » وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

(٩) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾

(١٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيراً ، ولم يرج بعد ذلك فرجاً . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي فرح بما في يده ، فخور على غيره . قال تعالى ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء ، كما جاء في الحديث « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » ولهذا قال

تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبرنا تعالى عنهم ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ فأمر الله رسوله وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ وقال ههنا ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا ﴾ أي لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

(١٣) ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء . تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١٤) ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

(١٥) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴾

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها . . . ﴾ : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا : صوماً أو صلاة ، أو تهجداً بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، أُوَفِّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وقيل : نزلت في اليهود والنصارى ، وقيل : نزلت في أهل الرياء. قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ وقال ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٧

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إن خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً » . ﴿ شاهد منه ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إماماً ورحمةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن. ولهذا قال ﴿أولئك يؤمنون به﴾ ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن، أو بشيء منه ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض : مشركهم وكافرهم ، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن ، كما قال ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وفي صحيح مسلم « والذي نفسي بيده لا

يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » ﴿ فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك . . . ﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى ﴿ ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ .

١٨ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يبين تعالى حال المفترين ، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء ، وسائر البشر والجان . وفي الصحيحين : « إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ؟ ، أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الأشهاد وهؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

١٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ، ويجنبونهم الجنة ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها .

٢٠ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وفي الصحيحين « إن الله ليملي

للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ولهذا قال ﴿ يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، بل كانوا صماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار ، كقوله ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ .

(٢١) ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم . . . ﴾ أي خسروا أنفسهم ، لأنهم أدخلوا ناراً حامية ، فهم معذبون فيها ، لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام ، فلم تجد عنهم شيئاً ، بل ضرتهم كل الضرر .

(٢٢) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمٰن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الاتيان بالطاعات ، وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان والخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، وينامون ولا يتغطون ولا يبصقون ولا يتمخضون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

(٢٤) ﴿ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ مثل الفريقين ﴾ الذين وصفهم أولاً بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة ، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ وأما المؤمن ففطن ذكي ، لبيب بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع الخير ، ويترك الشر ، سميع للحجّة ، يفرق بينها وبين الشبه ، فلا يروح عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟! ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

(٢٦) ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله ، إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ وقوله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة .

(٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ أي لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ، ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ، ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا ﴿ بادىء الرأي ﴾ أي في أول بادىء ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ، ولا رزق ولا حال ، لما دخلتم في دينكم هذا ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح ، والعبادة والسعادة في الدار الآخرة : إذ صرتم إليها . هذا اعتراض

الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف ، أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما قال ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل . وقوله ﴿ بادىء الرأي ﴾ ليس بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لا بد من اتباع الحق ، والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عيي . والرسل صلوات الله عليهم أجمعين . إنما جاؤوا بأمر جلي واضح . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم » أي ما تردد ولا تروَّى ، لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً ، فبادر إليه وسارع . وقوله ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكذابون الأقلون الأرذلون ، وفي الآخرة هم الأخسرون .

(٢٨) ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة ، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فعميت عليكم ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ، ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي نغصبكم بقبولها ، وأنتم لها كارهون .

(٢٩) ﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾

(٣٠) ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً: أي أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم النبيين ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ .

(٣١) ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

يخبرهم أن رسول الله يدعو إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به .

(٣٢) ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أي من النقمة والعذاب، وادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ .

(٣٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء .

(٣٤) ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم . . . ﴾ أي أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم ، وإنذاري إياكم ونصحي ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور ، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق ، وله الأمر ، وهو المبدىء المعيد مالك الدنيا والآخرة .

٣٥ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة ، مؤكد لها ، مقرر لها ، يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون ، افترى هذا وافتعله من عنده ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ أي فإثم ذلك عليّ ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى ، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

٣٦ ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم .

٣٧ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ ووحينا ﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

٣٨ ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ أي يهزؤ ون به ، ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم . . . ﴾ وهذا وعيد شديد ، وتهديد أكيد .

٣٩ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر أبداً .

(٤٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر ، بل هو كما قال تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ وأما قوله ﴿ وفار التنور ﴾ التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء . وهذا قول جمهور السلف ، وعلماء الخلف . وقيل : التنور : فلق الصبح وتنوير الفجر ، وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر . وحين فار التنور أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات ذكراً وأنثى . وقوله ﴿ وأهلك ﴾ أي واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه « يام » الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . وقوله ﴿ ومن آمن ﴾ أي من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(٤١) ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ﴾ أي باسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وباسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رسوُّها ، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة ، وعلى الدابة ، كما قال تعالى ﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وفي الحديث « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : باسم الله الملك » وقوله ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم .

﴿٤٢﴾ ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء ، سائرة بإذن الله ، وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه . وقوله ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل .. ﴾ هذا هو الابن الرابع واسمه « يام » وكان كافراً ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ، ويركب معهم ، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون .

﴿٤٣﴾ ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله . ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

﴿٤٤﴾ ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿ وغيض الماء ﴾ أي شرع في النقص ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله ، لم يبق منهم ديار ﴿ واستوت ﴾ السفينة بمن فيها ﴿ على الجودي ﴾ جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذٍ من الغرق ، وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً . وقوله ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم . وبعداً من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم ، فل يبق لهم بقية .

(٤٥) ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ أي قد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق ابني ؟ وأنت أحكم الحاكمين .

(٤٦) ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

(٤٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي الذين وعدت بإنجائهم ، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام . ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أي الذين وعدتك نجاتهم .

(٤٨) ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه ، وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك . . . ﴾ .

(٤٩) ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها . ﴿ نوحيها إليك ﴾ أي وحياً منا إليك ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على

تكذيب من كذلك من قومك وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك . ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

٥٠ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى عاد أخاهم هوداً ﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها ، واختلقوا لها أسماء الآلهة .

٥١ ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وأخبر هود قومه أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة .

٥٢ ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلونه . ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره ، وحفظ عليه شأنه ، ولهذا قال ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وفي الحديث « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

٥٣ ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ أي بمجرد قولك : اتركوهم نتركهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ بمصدقين .

٥٤ ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك

بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني . . . ﴾ يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام .

﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾

﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي طرفة عين .

٥٦ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم . . . ﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم . وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ، ولا توالي ولا تعادي ، وإنما يستحق إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له الذي بيده الملك ، وله التصرف ، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

٥٧ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

يقول لهم هود عليه السلام : ﴿ فإن تولوا ﴾ عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يعبدونه وحده ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزيهم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٥٨ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه .

٥٩ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم وأحد في وجوب الإيمان ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .

(٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

(٦١) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها : خلق منها أباكم آدم ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ .

(٦٢) ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤ نا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي شك كبير .

(٦٣) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ فيما أرسلني به إليكم ، أي على يقين وبرهان ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق ، وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ، ولما زدتموني ﴿ غير تخسير ﴾ أي خسارة .

٦٤ ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

٦٥ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

٦٦ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾

٦٧ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

٦٨ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

«قال ابن كثير في هذه الآيات التي تشملها هذه الأرقام»: تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا ، وبالله التوفيق .

٦٩ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد جاءت رسلنا ﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى ، قيل : تبشره بإسحق ، وقيل : بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ أي عليكم . قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به ، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة ، وهو عجل : فتى البقرة ، حنيذ : مشوي على الرضف ، وهي الحجارة المحماة . ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة .

(٧٠) ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ أي أنكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾ أي قالوا : لا تخف منا ، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم .

(٧١) ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾

﴿ فضحكت ﴾ أي ضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم . وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الاياس . وقوله ﴿ ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ وقيل : ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة ، وقيل : ضحكت : حاضت ، أي بشرت بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحق .

(٧٢) ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ حكى في هذه الآية قولها ، كما حكى في آية الذاريات فعلها ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب .

(٧٣) ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ أي قالت لها الملائكة : لا تعجبي من أمر الله ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فلا تعجبي من هذا ، وإن كنت عجوزاً عقيماً ، وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله ، محمود ممجد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

(٧٤) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية ، قال : لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ قال لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا ، قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة ، قالوا : لا ، قال : أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ قالوا : ﴿ نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

(٧٥) ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ هذا مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة . وقد تقدم تفسيرها .

(٧٦) ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك . . . ﴾ أي إنه قد نفذ فيهم القضاء ، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

(٧٧) ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه ، وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة ، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم ، وضاقت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ شديد بلاؤه ، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك .

(٧٨) ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ

أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾

﴿ يهرعون إليه ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك. وقوله ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوهم على ذلك الحال ﴿ قال هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، فلم يكن من بناته، ولكن كن من أمته ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ﴾ أي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم. ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي فيه خيِّر يقبل ما آمره به، ويترك ما أنهاه عنه.

٧٩ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا؟ ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إنما نريد الرجال.

٨٠ ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله ﴿ لو أن لي بكم قوة... ﴾ أي لكنت نكلت بكم، وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث « رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه » فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه:

٨١ ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقة لأهله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم. ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. ﴿ إلا امرأتك ﴾ ذكروا أنها خرجت معهم، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له، لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة فقالوا ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب،

وعكوف قد جاؤ وا يهرعون إليه من كل جانب ، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه ، بل يتوعدونه ويتهددونه ، فعند ذلك خرج جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا ، وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ .

﴿٨٢﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿ جعلنا عاليها ﴾ وهي سدوم ﴿ سافلها ﴾ كقوله ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل ، وهي حجارة من طين مستحجرة قوية شديدة ، وقيل : مشوية ﴿ منضود ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء ، أي معدة ، لذلك ، أو يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم .

﴿٨٣﴾ ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

﴿ مسومة ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقيل مسومة : مطوقة ، بها نضج من حمرة ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه . وفي الحديث « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وذهب الإمام الشافعي في قول عنه ، وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث . وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

﴿٨٤﴾ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان ، بلاداً تعرف بهم ، يقال لها مدين ، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٨٥) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾

(٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقيل : وصية الله خير لكم ، أو طاعة الله خير لكم ، أو حظكم من الله خير لكم ، أو ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ وقوله ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل الله عز وجل .

(٨٧) ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

يقولون على سبيل التهكم قبحهم الله ﴿ أصلاتك ﴾ أي قراءتك ﴿ تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ، ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

(٨٨) ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿ على بينة من ربي ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم ، أي لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿ إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم ، إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وما توفيقي ﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري

﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع .

(٨٩) ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾

يقول لهم ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الاصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قيل : المراد في الزمان . قال قتادة : إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران .

(٩٠) ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . وقوله ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب .

(٩١) ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

يقولون ﴿ يا شعيب ما نفقه ﴾ ما نفهم ﴿ كثيراً ﴾ من قولك ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ يعنون ذليلاً ، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ أي لولا معزتهم علينا لرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ليس عندنا لك معزة .

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ أتتركونني لأجل قومي ، ولا تتركونني إعظاماً لجلالة الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة ، وقد اتخذتم كتاب الله ﴿ وراءكم ظهرياً ﴾ أي نبذتموه خلفكم ، لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم .

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال لهم : يا قوم ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إني عامل ﴾ على طريقتي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ﴿ إني معكم رقيب ﴾ .

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾

قوله ﴿ جاثمين ﴾ أي هامدين ، لا حراك بهم . وذكر ههنا أنهم أتتهم الصيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ قال ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً .

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عرباً مثلهم .

(٩٦) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه .

(٩٧) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد .

(٩٨) ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى ﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ وقال تعالى ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » .

(٩٩) ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة الدنيا ﴿ ويوم القيامة ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة ، فتلك لعنتان ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ لعنة الدنيا والآخرة ، وهو كقوله ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ وقال تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

(١٠٠) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي أخبارهم ﴿ نقصه عليك منها قائم ﴾ أي عامر ﴿ وحصيد ﴾ أي هالك .

(١٠١) ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ من دون الله من شيء ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ غير تخسير ، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

(١٠٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... ﴾ .

(١٠٣) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أي أولهم وآخرهم كقوله ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها .

(١٠٤) ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾

﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أي لمدة مؤقتة ، لا يزاد عليها ولا ينتقص منها .

(١٠٥) ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله ﴿ لا يتكلمون إلا من إذن له الرحمٰن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين في حديث الشفاعة (ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ مسلم مسلم) وقوله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ، ومنهم سعيد كما قال ﴿ فريق في الجنة

وفريق في السعير ﴾ روى الحافظ أبو يعلى أن عمر قال سألت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ، فقال : « على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له » .

(١٠٦) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر ، أي تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك .

(١٠٧) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كله : أبداً فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرش الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وقوله ﴿ إلا ما شاء ربك . إن ربك فعال لما يريد ﴾ كقوله ﴿ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ والاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : « لا إلَه إلا الله » كما وردت الأخبار المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها .

(١٠٨) ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ ففي الجنة ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون

النفس . ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ غير مقطوع . وقد جاء في الصحيحين « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » وفي الصحيح أيضاً : « فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » .

(١٠٩) ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾

﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة .

(١١٠) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ، ومن كافر به . فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه كما قال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

(١١١) ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها .

(١١٢) ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن

شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

(١١٣) ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ عن ابن عباس : لا تداهنوا ، وقال العوفي وعن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، وهذا القول حسن ، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

(١١٤) ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(١١٥) ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ عن ابن عباس أي الصبح والمغرب ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ عن الحسن أي المغرب والعشاء . وهذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ في حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه في قوله . والله أعلم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، وفي الحديث « ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ، ألي هذا ؟ قال : « لجميع أمتي كلهم » روى الإمام أحمد « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

(١١٦) ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم

من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض . وقوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه ، وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكركما قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ وفي الحديث « أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » وقوله ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ .

١١٧ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قريةً مصلحةً بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ وقال ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

١١٨ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم وغلهم ومذاهبهم وآرائهم .

١١٩ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ أي وللاختلاف خلقهم ، أو خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام ، وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

(١٢٠) ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

كل ما نقصه عليك من أنباء الرسل المتقدمين مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت به فؤادك ، أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي في هذه السورة ، أو في هذه الدنيا ، والصحيح الأول لأن هذه السورة مشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين وأهلك الكافرين .

(١٢١) ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ونهجكم ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا .

(١٢٢) ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده ، وجعل كلمته هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

(١٢٣) ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه ، وأناب إليه . وقوله ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

* * *

تفسير سُورَةِ يُوسُفَ

روى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا ، لموافقتها ما عندهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ، ويفسرها ويبينها .

(٢) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال:

(٣) ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

قال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن . روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » وفي رواية قال لي رسول الله : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ » قلت : كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة

جامعة ، فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ؟ السلاح السلاح ، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » قال عمر فقمت فقلت : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً . ثم نزل رسول الله ﷺ .

(٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » انفرد بإخراجه البخاري . وفي البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، بن نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ .

(٥) ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا تعبيرها خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له سجداً إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك ، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها . ولهذا ثبتت السنة

عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به » وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لا تضره » وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنة « الرؤ يا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ يعني تعبير الرؤ يا ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال ﴿ كما أتمها على أبويك من قبلُ إبراهيم ﴾ وهو الخليل ﴿ وإسحق ﴾ ولده ، وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى .

(٧) ﴿ * لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع اخوته آيات ، أي عبر ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه .

(٨) ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ؟ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا . واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف . وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم بعدُ ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل .

(٩) ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . . ﴾ يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلو لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب .

(١٠) ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

﴿ قال قائل منهم ﴾ هو أكبرهم : « روبيل » أو يهوذا ، أو شمعون الصفا ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله ، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة « روبيل » فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب ، وهو أسفله . قال قتادة : هي بئر في بيت المقدس ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ، ورقة عظمه ، مع مكانه من الله أحبه طفلاً صغيراً ، وبين ابنه على ضعف قوته ، وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم ، وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً . رواه ابن أبي حاتم .

(١١) ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير « روبيل » جاؤ وا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا ما بالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له .

(١٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿ غداً يرتع ويلعب ﴾ يسعى وينشط ﴿ وإنا له لحافظون ﴾

يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

(١٣) ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُق والخَلْق . صلوات الله وسلامه عليه . وقوله ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ يقولون : وأخشى أن تشغلوا برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله ، وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة :

(١٤) ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة : إنا إذاً لهالكون عاجزون .

(١٥) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيهم بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه إكراماً له وبسطاً ، وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه ، وتثبيتاً له إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ، ويعليك ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي بإيحاء الله إليه .

(١٦) ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾

(١٧) ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف . وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي نترامى ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذي قد كان جزع منه ، وحذر عليه . وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ، والحالة هذه لو كنا صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب . فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا .

(١٨) ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهدو السدي وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال . وعن ابن عباس : لو أكله السبع لخرق القميص . والصبر الجميل : الذي لا جزع فيه، وفي الحديث « هو صبر لا شكوى فيه » قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك .

(١٩) ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته في ذلك الجب وحيداً فريداً ، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش . قال محمد بن إسحق : لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون : ماذا يصنع ، وما يصنع به ؟ فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم ، وهو الذي يتطلب لهم الماء ، فلما جاء ذلك البئرَ وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال ﴿ يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة ﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة ، وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ما قدره وقضاه ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكني سأملي لهم ، ثم أجعل لك العاقبة ، والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم على إخوته .

(٢٠) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . والبخس هو النقص ، كما قال تعالى ﴿ فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن دونٍ قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين ، أي ليس لهم رغبة فيه ، بل ، لو سألوه بلا شيء لأجابوا .

(٢١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير بها ، واسمه اطفير بن روحيب ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذٍ الريان بن الوليد ، اسم امرأته راعيل ، أو زليخا . عن ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يا أبت استأجره ﴾ وأبو بكر

الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ﴿ في الأرض ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ هو تعبير الرؤيا ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي فعال لما يشاء ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد .

٢٢ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ولما بلغ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أي استكمل عقله ، وتم خلقه ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي إنه كان محسناً في عمله ، عاملاً بطاعة الله تعالى . وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده ، فقيل : ثلاث وثلاثون سنة ، أو بضع وثلاثون سنة ، أو عشرون سنة ، أو أربعون سنة ، أو خمس وعشرون سنة ، أو ثلاثون سنة ، أو ثمان عشرة سنة ، أو هو بلوغ الحلم .

٢٣ ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أي حاولته عن نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي ، أي منزلي ، وأحسن إليّ ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ و﴿ هيت لك ﴾ معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، أي هلم لك .

٢٤ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

قيل : المراد بهمه خطرات حديث النفس ، وفي الحديث « إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرائي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . وقيل : هم بضربها ، وقيل : تمناها زوجة . وأما البرهان فقيل : رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه

بفمه : وقيل : فضرب في صدر يوسف . قال ابن جرير : والصواب أنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به . ولا حجة قاطعة على تعيين شيء . ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه ما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أي من المجتهدين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات وسلامه عليه .

٢٥ ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعاً ، يقال إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهي في إثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي فاحشة ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أن يحبس ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً ، .

٢٦ ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدامه ﴿ فصدقت ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها ، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت .

٢٧ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه ، ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ كان صبياً في المهد وفي الحديث « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف ، عن ابن عباس أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت

فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » .

(٢٨) ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب من جملة كيدكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ .

(٢٩) ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي أضرب عن هذا صفحاً ، أي فلا تذكره لأحد ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها ، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك ، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(٣٠) ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة ، وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرون على امرأة العزيز ، وهو الوزير ، ويعبن ذلك عليها ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه ، وتدعوه إلى نفسها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه . ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه .

(٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ قال بعضهم : بقولهن : ذهب الحب بها ، وقيل : بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك ﴿ أرسلت إليهن ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ هو المجلس

المعد فيه مفارش ، ومخاد ، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ وكان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿ فلما ﴾ خرج و﴿ رأينه أكبرنه ﴾ أي أعظمنه أي أعظمن شأنه ، وأجللن قدره ، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته ، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهن حززن أيديهن بها ﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً . . . ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ، ولا قريباً منه ، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح « مر ﷺ بيوسف في السماء الثالثة فقال : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن » ﴿ حاش لله ﴾ معاذ الله .

(٣٢) ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي فامتنع ، ثم قالت تتوعده ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن .

(٣٣) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ أي من الفاحشة ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أي وإن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك ، أنت المستعان ، وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿ أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ .

(٣٤) ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ وذلك أن يوسف عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته ، وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال

والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ، ورجاء ثوابه . ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ،ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

٣٥ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أي إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات ، وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته ، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك خرج ، وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ، ويبرأ عرضه فيفضحها .

٣٦ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ودخل معه السجن فتيان . . . ﴾ قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك ، والآخر خبازه . ثم إنهما رأيا مناماً ، فرأى الساقي أنه يعصر خمراً يعني عنباً ، ورأى الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ﴿ نبئنا بتأويله . . . ﴾ .

٣٧ ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو تعليم الله إياي ، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ، ولا عقاباً في المعاد .

﴿٣٨﴾ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ
مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ... ﴾ يقول : هجرت طريق الشرك والكفر ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد . ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ هذا التوحيد ، وهو الاقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاة إلى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ .

﴿٣٩﴾ ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

﴿٤٠﴾ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه . ثم قال تعالى ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

﴿٤١﴾ ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ

قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾

يقول لهما : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ، ولكنه لم يعنيه لئلا يحزنه ذاك ولهذا أبهم في قوله ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً . ثم أعلمهما أن هذا فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤ يا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

٤٢ ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج قال له يوسف خفية عن الآخر لئلا يشعره أنه مصلوب ، قال له : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان ذلك من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع .

٤٣ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴾

هذه الرؤ يا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤ يا فهالته ، وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها

٤٤ ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾

﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤ ياك هذه ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ أي لو كانت رؤ يا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها ، وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما أوصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك

(٤٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾

تذكر بعد أمة أي بعد مدة ، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فأرسلون ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال :

(٤٦) ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال :

(٤٧) ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ، ليكون أبقى له ، وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه ، لتنفقوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات . وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه من سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ، ولهذا قال :

(٤٨) ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾

(٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ، أي يأتيهم الغيث ، وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً . وعن ابن عباس : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يحلبون .

(٥٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤ ياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤ ياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال ﴿ ائتوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلماً وعدواناً فقال ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة . . . ﴾ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه ، ففي المسند والصحيحين قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

(٥١) ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ هذا إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ما خطبكن﴾ أي ما شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك : حاشا لله أن يكون يوسف متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ أي تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

(٥٢) ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة

فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ .

(٥٣) ﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

﴿وما أبرىء نفسي﴾ تقول المرأة : ولست أبرىء نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ إلا من عصمه الله تعالى ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده في تصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف . يقول ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي﴾ أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿أني لم أخنه﴾ في زوجته ﴿بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وهذا القول الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن حاتم سواه ، والقول الأول أظهر وأقوى ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

(٥٤) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال ﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿فلما كلمه﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكما قال له الملك ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي إنك عندنا بقيت ذا مكانة وأمانة .

(٥٥) ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾

فقال يوسف عليه السلام ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة وذكر أنه ﴿حفيظ﴾ أي خازن أمين ﴿عليم﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه مصالح الناس .

(٥٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي أرض مصر ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي يتصرف فيها كيف يشاء ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كقوله تعالى في حق سليمان ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر فكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام . قاله مجاهد .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

لما باشر يوسف الوزارة بمصر ومضت السبع سنين المخصبة ، ثم تلتها السبع سنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكمالها ، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذٍ احتاط يوسف للناس في غلاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة ، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، وكان رحمة من الله على أهل مصر . والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الطعام للناس بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً وركبوا عشرة . واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ، وكان أحبَّ ولده إليه بعد يوسف فلما دخلوا عليه وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿ وهم له منكرون ﴾ أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم ، وقد شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : يا أيها العزيز إنا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من

بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا نعم : كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية ، وكان أحبنا إلى أبيه وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم .

(٥٩) ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أوفى لهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم قال ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهَّبهم فقال :

(٦٠) ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ ولا تقربونِ ﴾ .

(٦١) ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه .

(٦٢) ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وقال لفتيانه ﴾ أي غلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بها .

(٦٣) ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

يقول تعالى عنهم : إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا « بنيامين » لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي لا تخف عليه ، فإنه سيرجع إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ ولهذا قال لهم :

(٦٤) ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني ، وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين .

(٦٥) ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم فلما وجدوها في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ أي ماذا نريد ؟ ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ ما نبغي وراء هذا ؟ إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا .

(٦٦) ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ، ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكده عليهم فقال ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ وإنما نفعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

(٦٧) ﴿ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام : إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم « بنيامين » إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشي عليهم أن يصيبهم

الناس بعيونهم ، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ .

(٦٨) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ أي لذو عمل بعلمه ، أو لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ، ومعهم أخوه شقيقه « بنيامين » ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والاحسان ، واختلىٰ بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه : وقال له : لا تبتئس ، أي لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

(٧٠) ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾

لما جهزهم وحمل أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهي إناء من فضة ، وقيل : من ذهب كان يشرب فيه ، ويكيل للناس فيه من عزة الطعام . عن ابن عباس : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية ، فوضعها في متاع « بنيامين » من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى مناد بينهم : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ .

(٧١) ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ ماذا تفقدون ﴾ .

(٧٢) ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾

﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل فيه ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ وأنابه زعيم ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

(٧٣) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف ﴿ تالله لقد علمتم ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، أنَّا ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة .

(٧٤) ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

فقال لهم الفتيان ﴿ فما جزاؤه ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ أي أيُّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟

(٧٥) ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . . . ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام .

(٧٦) ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أي فتشها قبله تورية ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم ، والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر . وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أي ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل .

(٧٧) ﴿ * قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع « بنيامين » ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون يوسف عليه السلام ، وقد كان يوسف سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ يعني الكلمة التي بعدها ، وهي قوله ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أي تذكرون ، قال هذا في نفسه ، ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وله شواهد في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها ، ومنه :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزي سنمار

٧٨ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

لما تعين أخذ « بنيامين » وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترقفون له ويعطفونه عليهم ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ يعنون : وهو يحبه حباً شديداً ، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي بدله ، يكون عوضاً عنه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير .

٧٩ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم ، أي بمذنب وجانٍ .

٨٠ ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم « بنيامين » الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نجياً ﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ وهو « روبيل » وقيل : « يهوذا » وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك ، مع ما

تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ .

(٨١) ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ، ويبرؤ وا مما وقع بقولهم . ﴿ يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ . وقوله ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أي ما علمنا أن ابنك سرق ، إنما سألناه ما جزاء السارق ؟

(٨٢) ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾

﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ قيل : المراد مصر ، وقيل : غيرها ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

(٨٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤ وا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ لما جاؤ وا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف ، وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه . ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم ﴾ أي العليم بحالي ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، وقضائه وقدره .

(٨٤) ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ﴾ أي أعرض عن بنيه ، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول فقد جدد له حزن الابنين الحزن الدفين على يوسف . عن سعيد بن جبير أنه

قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ؛ ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، وقال الضحاك ﴿ فهو كظيم ﴾ أي كئيب حزين .

﴿٨٥﴾ ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾

﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف .

﴿٨٦﴾ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ أي أجابهم عما قالوا بهذا أي همي وما أنا فيه ﴿ إلى الله ﴾ وحده ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أرجو منه كل خير ، أو أن رؤيا يوسف صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها .

﴿٨٧﴾ ﴿ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام : إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه « بنيامين » والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهّضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

﴿٨٨﴾ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نختاره ، وهو ثمن قليل . قال الضحاك : مزجاة : كاسدة لا تنفق . وأصل الازجاء الدفع لضعف الشيء . ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ أي أعطنا

بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . قال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا . سئل مجاهد هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق عليّ ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب .

(٨٩) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه ، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامة ، وقال : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، ثم قرأ ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال ، واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق . فعند ذلك قالوا :

(٩٠) ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ أئنك لأنت يوسف ؟ ﴾ والاستفهام يدل على الاستعظام . أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه . فلهذا قالوا على سبيل التعجب ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وقوله ﴿ قد من الله علينا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

(٩١) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾

﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا . . ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة أيضاً على قول من يجعلهم من الأنبياء ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه ، وأخطأوا في حقه .

٩٢ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ قال لا تثريب عليكم ﴾ يقول : أي لا تأنيب عليكم ، ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم ، ولا تأنيب عليكم عندي فيما صنعتم ﴿ يغفر الله لكم ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ .

٩٣ ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب .

٩٤ ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ أي تنسبوني إلى الفند والكبر . عن ابن عباس يقول : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ قال : فوجد ريحه عن مسيرة ثمانية أيام . وقيل : ﴿ تفندون ﴾ تسفهون ، وقيل : تهرمون .

٩٥ ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

وقولهم ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ لفي خطئك القديم أي من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله ﷺ .

٩٦ ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ البشير ﴾ البريد . قال مجاهد والسدي : كان يهوذا ابن يعقوب . قال السدي : إنما جاء لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً وقال لبنيه عند ذلك ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم

من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي وقلت لكم ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له :

٩٧ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾

٩٨ ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي من تاب تاب عليه . قال ابن مسعود : أرجأهم إلى وقت السحر . روى ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود ، فسأل عبدالله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

٩٩ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لاخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضاً لتلقيه ، وهو الأشبه . وقد أشكل قوله ﴿ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر ﴾ على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ، ثم لما وصلوا باب البلد قال ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ وفي هذا نظر أيضاً لأن الإيواء إنما يكون في المنزل كقوله ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . ويقال ـ والله أعلم ـ إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال : « اللهم أعني عليهم بسبع سنين كسبع يوسف » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه دعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه ﷺ .

(١٠٠) ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ يعني السرير أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وخروا له سجداً ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ أي التي قصها على أبيه من قبل ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام . فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى . وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبي ﷺ فقال : « لا تسجد لي يا سلمان ، واسجد للحي الذي لا يموت » . والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤ ياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صحيحة صدقاً ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أي البادية ، فقد كانوا أهل بادية وماشية ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره ﴿ إنه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره وما يريده . قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤ يا يوسف وتأويلها أربعون سنة .

(١٠١) ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به عز وجل لما وتمت نعمة الله عليه باجتماعه

بأبويه ، وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا دعاء يحتمل أن يكون قاله عند احتضاره كما في الصحيحين « اللهم الرفيق الأعلى » ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام ، واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان سائغاً في ملتهم ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا ففي الصحيحين « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولا بد متمنياً الموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » وأما إذا كانت فتنة الدين فيجوز سؤال الموت كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرداهم فرعون عن دينهم ، وتهددهم بالقتل ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ وقالت مريم ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ وفي الحديث المرفوع « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمنين من الفتن ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب » ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة «اللهم خذني إليك»، فقد سئمتهم وسئموني . وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة ، وجرى له مع أمير خراسان ما جرى : اللهم توفني إليك . وفي الحديث : « إن الرجل ليمر بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول : يا ليتني مكانك » .

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

﴿ نوحيه إليك ﴾ نعلمك به لما فيه من العبرة لك ، والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك .

(١٠٣) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

ومع أن الله قد أطلعه على أنباء مما قد سبق فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(١٠٤) ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ، ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً للخلق ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ يتذكرون ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

(١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالبقاء والدوام والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

(١٠٦) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات والأرض ، ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون به . وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وقال الحسن البصري : ذلك المنافق ، يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ذلك . وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه ، أو انتزعه ، ثم قال ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ وفي الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذي وحسنه . وفي الحديث : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال : « ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره ؟ » قال : بلى ، يا رسول الله ، قال : « قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفر لما لا أعلم » .

(١٠٧) ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله . . ﴾ أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف

الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ .

(١٠٨) ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الإنس والجن آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله ، أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي . وقوله ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

(١٠٩) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فينظروا كيف كان . . ﴾ فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

(١١٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال ، وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه ، ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ أي

من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ أي وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا .

(١١١) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ وهي العقول ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي يكذب ويختلق ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء ، وهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير . ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمنجيات والنهي عن الحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والاخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلة ، والاخبار عن الرب بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد .

تفسير سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ المر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وكل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب . ولهذا قال ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات القرآن ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن من أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا تنال، ولا يدرك مداها ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ترونها﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ﴿ثم استوى على العرش﴾ من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل. تعالى الله علواً كبيراً ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وقوله ﴿ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

(٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلي فقال ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ أي جعلها متسعة وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله.

(٤) ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ أي أرض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات،

فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى . فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار . لا إله إلا هو ولا رب سواه . ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل وغير ذلك ، وغير صنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وذا في غاية المرارة ، وذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا جمع هذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى . وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات ، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط . ففي ذلك آيات لمن كان واعياً ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(٥) ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وإن تعجب ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ، ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم ﴿ أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . وأن من بدأ الخلق فالاعادة عليه أسهل . ثم نعت المكذبين بهذا فقال ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

(٦) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ ويستعجلونك ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي بالعقوبة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ أي قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ روى ابن عساكر عن أبي حسان الرماوي أنه رأى رب العزة في النوم ورسول الله واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته ، فقال له : ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال : ثم انتبهت .

(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال تعالى ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، ﴿ وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقوله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أي ولكل قوم داع ونبي .

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ أي ما حملت من ذكر وأنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقي أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ وفي الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، فيؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وعمره وعمله ، وشقي أو سعيد » وفي الحديث الآخر « فيقول الملك : أي رب ، أذكر أم أنثى ؟ أي رب ، أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك » . ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعني السقط ﴿ وما تزداد ﴾ يقول : ما زادت الرحم في الحمل ، ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى ﴿ وكل شيء

عنده بمقدار ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث إليها يقول : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » .

(٩) ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ، ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

(١٠) ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ وقالت عائشة : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ وقوله ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما في علم الله على السواء كقوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

(١١) ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

﴿ له معقبات من بين يديه . . ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ بأمر الله . ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ روى ابن أبي حاتم قال : أوحى الله إلى نبي من الأنبياء من بني إسرائيل أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على

طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوَّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ، وتصديق ذلك هذه الآية .

(١٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق ، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض .

(١٣) ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ كقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان . ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ﴿ وهو شديد المحال ﴾ شديدة مماحلته في عقوبته من طغى عليه وعتا ، وتمادى في كفره .

(١٤) ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

﴿ له دعوة الحق ﴾ التوحيد ، أو لا إلَه إلا الله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، وهو لا يناله أبداً بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ قال مجاهد : ﴿ كباسط كفيه ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

(١٥) ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من الكافرين ﴿ وظلالهم بالغدو ﴾ أي البكر ﴿ والآصال ﴾ وهو جمع أصيل ، وهو آخر النهار .

(١٦) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ
جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربهما ومدبرهما ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ند ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » وكما أخبر الله عنهم في قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأنكر الله عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك ، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

(١٧) ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ
ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا
مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أي مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه ، هذا مثل . وقوله ﴿ ومما يوقدون عليه في النار

ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب وفضة ابتغاء حلية ، أي ليجعل حلية ، أو نحاساً ، أو حديداً ، فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ، ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ، ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر ، وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ كقوله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً في القرآن فلم أفهم بكيت على نفسي ، لأن الله قال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وفي الصحيحين « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فهذا مثل مائي . وفي الصحيحين « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني فتقتحمون فيها » فهذا مثل ناري .

(١٨) ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقوله ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل

منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير « ومن نوقش الحساب عذب » ولهذا قال ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(١٩) ﴿ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿ أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، ولا لبس ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق ويصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي صدقاً في الاخبار ، وعدلاً في الطلب ، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ، ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه ، كقوله ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة . جعلنا الله منهم .

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان .

(٢١) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من صلة الأرحام ، والاحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي فيما يأتون ، وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله في ذلك ، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

(٢٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أي عن المحارم والمآثم . ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته . وجزيل ثوابه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بحدودها ومواقيتها ، وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات ، وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سراً وعلانية ﴾ أي في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار ﴿ ويدرؤ ون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوا بالجميل صبراً ، واحتمالاً وصفحاً وعفواً كقوله تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ .

٢٣ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾

٢٤ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ جنات عدن ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ . وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والاقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجتُه في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من

ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم ، وحاجته في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ـ قال ـ فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر ما لهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ كما ثبت في الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » وفي رواية « وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » ولهذا قال : ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(٢٦) ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرحُ هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً كما قال ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ كما قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد ومسلم في صحيحه « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة .

(٢٧) ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ

إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ كقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والاضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

٢٨ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أي هو حقيق بذلك .

٢٩ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ أي فرح وقرة عين ، وغبطة لهم ، وخير لهم أو « طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » كما جاء في الحديث . وروى البخاري ومسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » .

٣٠ ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لتتلوَ عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك ، فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم . فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿ وهم يكفرون بالرحمٰن ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمٰن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » وقالوا : ما ندري ما الرحمٰن الرحيم . قاله قتادة ، والحديث في صحيح البخاري ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

(٣١) ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فما له من مضل . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه ، انفرد به البخاري . والمراد بالقرآن هو الزبور . ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا ، أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي إلا أوتي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ، معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يعني فتح مكة ، أو يوم القيامة . ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا ينقصه وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

(٣٢) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذه رابية ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم ؟ وفي الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٣٣) ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿ قل سموهم ﴾ أي أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي لا وجود لها ، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ بظن من القول ، أو بباطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال: ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٣٤) ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار ، وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين ، وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ أشق ﴾ أي من هذا بكثير ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

(٣٥) ﴿ * مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، أي يصرفونها كيف شاؤوا ، وأين شاؤوا ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب ، لا انقطاع ولا فناء . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : « إني رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم حبشاء كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » .

(٣٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾

﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن ، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك . قال مجاهد ﴿ ومن الأحزاب ﴾ أي اليهود والنصارى وقوله ﴿ إليه ادعو ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وإليه مآب ﴾ أي مرجعي ومصيري .

(٣٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً ، شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقوله ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعدما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة

بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

(٣٨) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وقد قال الله لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾ وفي الصحيحين « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقوله ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ، ليس ذلك إليه ، بل إلى الله عز وجل ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شيء عنده بمقدار ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

(٣٩) ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ منها ﴿ ويثبت ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه . واختلف في معنى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وروي عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ، وهو يطوف بالبيت ويبكي : اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة . وروي أن كعباً قال لعمر : لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال : وما هي ؟ قال : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ، ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا بما رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ورواه النسائي وابن ماجه . وثبت في الصحيح « أن صلة الرحم تزيد في العمر » وفي حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وروي عن سعيد بن جبير أنها ـ يمحو الله ما يشاء

ويثبت ـ بمعنى ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ الحلال والحرام ، أو جملة الكتاب وأصله ، أو كتاب عند رب العالمين ، أو علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ، أو الذكر ، أقوال .

(٤٠) ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾

﴿ وإما نرينك ﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أو نتوفينك ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله ، وقد فعلت بما أمرت به ﴿ وعلينا الحساب ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم .

(٤١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ، أو ننقصها من أطرافها يعني خرابها ، أو هو ظهور المسلمين على المشركين ، أو نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، أو خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ، والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٤٢) ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ وقوله ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة . ولله الحمد والمنة .

(٤٣) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليَّ وعليكم ، شاهد فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترون من البهتان . وقوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هم من اليهود والنصارى الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به عليهم الصلاة والسلام .

تفسير سُورَةُ ابراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب ، لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد ، كما قال تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وقوله ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وأمره ونهيه الصادق في خبره .

(٢) ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة ، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ

فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

ثم وصفهم بأنهم ﴿ يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ، ولا من خذلها ، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يُرجى لهم والحالةُ هذه صلاح .

(٤) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه » . وقوله ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وقال تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

(٥) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾

وكما أرسلناك يا محمد ، وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم أي تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ، وهي التسع الآيات ﴿ أن أخرج قومك ﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿ أخرج قومك من الظلمات إلى

النور ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره ، وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لَعبرة ﴿ لكل صبار ﴾ أي في الضراء ﴿ شكور ﴾ أي في السراء . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطي شكر . وفي الصحيح « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » .

(٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون ، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة منه عليكم في ذلك وأنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل : وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون هذا وهذا ، والله أعلم ، كقوله تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

(٧) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾

﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم ، وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي كفرتم النعم ، وسترتموها وجحدتموها ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها . وقد جاء في الحديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

(٨) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كقوله ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر » فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

(٩) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ عن عبدالله أنه قال فيها : كذب النسابون . وقال عروة : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان . ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قيل : أشاروا إلى أفواه الرسل ، يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل ، وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم ، وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل ، وقيل : معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به . . . ﴾ فكأن هذا ـ والله أعلم ـ تفسير لمعنى ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ وقيل : معناه عضوا عليها غيظاً ، كقوله ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ .

(١٠) ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له ، قالت الرسل ﴿ أفي الله شك ﴾ وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على

الاقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء ، ومليكه ، والمعنى الثاني في قولهم ﴿ أفي الله شك ﴾ أي في إلهيته ، وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى . ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى ﴾ أي في الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي فكيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أي خارق نقترحه عليكم .

(١١) ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أمورهم .

(١٢) ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

ثم قالت الرسل ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا لأقوم الطرق ، وأوضحها وأبينها ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ أي من الكلام السيىء والأفعال السخيفة ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

(١٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ

رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلَهم من الاخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ وكما قال قوم لوط ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ .

(١٤) ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي ، وهو تخويفي وعذابي .

(١٥) ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

﴿ واستفتحوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها ، أو استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ويحتمل أن يكون هذا مراءاً أو هذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله واستنصر ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ ﴿ وخاب كل جبار ﴾ أي تجبر على نفسه ﴿ عنيد ﴾ معاند للحق . وفي الحديث « إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق فتقول : إني وُكلت بكل جبار عنيد » .

(١٦) ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾

﴿من ورائهم جهنم﴾ «وراء» هنا بمعنى أمام كقوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي في النار ، ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد ، والنتن ، كما قال ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾ .

(١٧) ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

﴿ يتجرعه ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهراً وقسراً ، لا يضعه في فمه حتى

يضربه الملك بمطراق من حديد كما قال تعالى ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي يألم جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال ابن جرير ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده . وعن ابن عباس قال : أنواع العذاب التي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ وقوله ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمر .

(١٨) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء ، فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

(١٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ﴿بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ﴾ ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره .

(٢١) ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ أي برزت الخلائق كلها : برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل ﴿ إنّا كنا لكم تبعاً ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

(٢٢) ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذٍ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم فقال ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً ، وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ ثم قال ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ بمجرد ذلك ، وهذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج ، والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤ وكم به فخالفتموهم به فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تلوموني ﴾ اليوم ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ ما أنا

بمصرخكم ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وما أنتم بمصرخيَّ ﴾ أي بنافعيَّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ بسبب ما أشركتمون من قبل ، أو إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وهذا هو الراجح ، قال تعالى ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله ﴿ إن الظالمين ﴾ أي في إعراضهم عن الحق ، واتباعهم الباطل ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ .

٢٣ ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ﴿ بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾ كما قال تعالى ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ وقال تعالى ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

٢٤ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

٢٥ ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ مثلاً كلمة طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول : لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ، فذلك عبارة عن عمل المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء . وفي البخاري عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم ، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » . قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، قال فما منعك أن تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم ، أو أقول شيئاً ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا .

٢٦ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ هذا مثل كفر الكافر ، لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها : الشريان . ﴿ اجتثت ﴾ أي استؤصلت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر ، لا أصل له ، ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

(٢٧) ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

في البخاري ومسلم وبقية الجماعة أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وأما الكافر فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث إليك ؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليهم شيئاً فهذا معنى ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

(٢٨) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾
(٢٩) ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾

﴿ ألم تر ﴾ ألم تعلم ، كقوله ﴿ ألم تر كيف ﴾ ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا ﴾ ﴿ دار البوار ﴾ الهلاك ، بار يبور بوراً . وقوماً بوراً : هالكين وهم كفار مكة ، والمعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها دخل النار .

(٣٠) ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك . ثم قال مهدداً لهم ، ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مرجعكم ومآلكم إليها كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

(٣١) ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات ، والإحسان إلى الأجانب . والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعال بالإنفـاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية ، وهي الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي ولا يقبل الله من أحد فدية ، بأن تباع نفسه ، كما قال ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ وقوله ﴿ ولا خلال ﴾ يقول : ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هناك العدل والقسط . والخلال مصدر من قول القائل : خاللت فلاناً ، فأنا أخاله مخالّة وخلالاً .

(٣٢) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ما هناك إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع .

(٣٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل

يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ .

٣٤ ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ يقول هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بمالكم وقالكم ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا » .

٣٥ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة يبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ وقال في هذه القصة ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وقوله ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ، ولوالديه وذريته .

٣٦ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله لا تجويز وقوع ذلك ، وعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني . . ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم أمتي اللهم أمتي » وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك .

(٣٧) ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾

وهذا يدل على أن هذا الدعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال ﴿ عندَ بيتك المحرم ﴾ وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال ابن عباس : لو قال : أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ من الناس ﴾ فاختص به المسلمون . وقوله ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام كله شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

(٣٨) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي ، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها . لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء .

(٣٩) ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

ثم حمد إبراهيم ربه عز وجل ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد .

(٤٠) ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أي فيما سألتك فيه كله .

(٤١) ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿ وللمؤمنين ﴾ أي كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٤٢) ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

يقول تعالى : ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون ، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عداً . ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة .

(٤٣) ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ، كما قال تعالى ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ وقوله ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ رافعي رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر ، لا يطرفون لحظة ، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة المخافة لما يحل بهم . عياذاً بالله العظيم من ذلك . ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، أو هي خراب لا تعي شيئاً .

(٤٤) ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ كقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك . قال مجاهد وغيره ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

(45) ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر. ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾.

(46) ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

﴿ وإن كان مكرهم ﴾ أي شركهم، كقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾.

(47) ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحد ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾.

(48) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

ولهذا قال ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة. في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد». وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت: أين الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم منفرداً به دون البخاري والترمذي وابن ماجه ﴿ وبرزوا لله ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

(49) ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾

يقول تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ترى يا محمد يومئذٍ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مقرنين ﴾ أي بعضهم

إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وقال ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ وقال ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ وقال ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ والأصفاد هي القيود .

(٥٠) ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران ، وهو الذي تهنأ به الإبل ، أي تطلى ، قال قتادة : وهو ألصق شيء بالنار . قال ابن عباس : القطران : هو النحاس المذاب ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ كقوله ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة ، وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » انفرد بإخراجه مسلم .

(٥١) ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين . والله أعلم .

(٥٢) ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ كقوله ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ ﴿ ولينذروا به ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ أي ذوو العقول . والحمد لله رب العالمين .

تفسير سُورَةُ الحِجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

(٢) ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين . وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً . وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ .

(٣) ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، كقوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ وقوله ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ ولهذا قال ﴿ ويلههم الأمل ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي عاقبة أمرهم .

(٤) ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

(٥) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها ، وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم . وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الاقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

(٦) ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ أي الذي تدعي ذلك ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

(٧) ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ لو ما ﴾ أي هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فلولا ألقي عليهم أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

(٨) ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

وقال في هذه الآية ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾ وقوله ﴿ بالحق ﴾ بالرسالة والعذاب .

(٩) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل . ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ ، كقوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾

(١١) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به .

(١٢) ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(١٣) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى . وقوله ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

(١٤) ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه ،

(١٥) ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾

لما صدقوا بذلك ، بل ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ سدت أبصارنا ، أو أخذت ، قال ابن عباس : شبه علينا ، وإنما سحرنا .

(١٦) ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها ، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات ، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب ، والآيات الباهرات ما يحار نظره فيه . قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب ، وهذا كقوله تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ ومنهم من قال : البروج هي منازل الشمس والقمر .

(١٧) ﴿ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴾

(١٨) ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ جعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسَّمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذه الآخر ويأتي به إلى وليه كما جاء مصرحاً في الصحيح .

(١٩) ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ، ومده إياها ، وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة ﴿ من كل شيء موزون ﴾ أي معلوم ، أو مقدر بقدر .

(٢٠) ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة . وقوله ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال مجاهد : هي

الدواب والأنعام ، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ، ووجوه الأسباب ، وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم المنفعة ، والرزق على الله .

(٢١) ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه ، يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ كما يشاء ، وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة .

(٢٢) ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً ، يمكنكم أن تشربوا منه ، ﴿ ولو نشاء لجعلناه أجاجاً ﴾ وقوله ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ بمانعين ، أو وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله ، وجعله عذباً ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ، ليبقى لهم طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

(٢٣) ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق ، وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ، ثم يميتهم ، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .

(٢٤) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾

(٢٥) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ ولقد علمنا المستأخرين والمستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون

هو من حيي ومن سيأتي إلى يوم القيامة . روى ابن جرير أنه قد كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل ﴿ ولقد علمنا المستقدمين . . . ﴾ أو هو في الصفوف في الصلاة .

٢٦ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس ، أو المنتن ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين ، والمسنون الأملس ، أو المسنون المصبوب .

٢٧ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

﴿ والجان خلقناه من قبل ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ من نار السموم ﴾ قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار ، ومنهم من قال : السموم بالليل ، والحرور بالنهار . وقدورد في الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة محتده .

٢٨ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

٢٩ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

٣٠ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

٣١ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

٣٢ ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

٣٣ ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ كقوله ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

٣٤ ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾

٣٥ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

٣٦ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

٣٧ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

٣٨ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ، ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به ، لاحقة له ، متواترة عليه إلى يوم القيامة ، ولما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة ، وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له ، وإمهالاً .

٣٩ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب ﴿ بما أغويتني ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام ﴿ في الأرض ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها ، وأزعجهم إليها إزعاجاً ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدرت عليّ بذلك .

٤٠ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ كقوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

٤١ ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ قال ﴾ الله تعالى متهدداً ومتوعداً ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وقيل : طريق الحق مرجعها إلى الله ، وإليه تنتهي كقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

٤٢ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية ، فلا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع .

(٤٣) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

(٤٤) ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه . أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بحسب عمله .

(٤٥) ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة ، وأنهم في جنات وعيون .

(٤٦) ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾

﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي سالمين من الآفات ، مسلم عليكم ﴿ آمنين ﴾ أي من كل خوف وفزع ، لا تخشون من إخراج ولا انقطاع ولا فناء .

(٤٧) ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾

﴿ ونزعنا ما في صدورهم .. ﴾ عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافقوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ ﴿ متقابلين ﴾ لا ينظر بعضهم في قفا بعض قاله مجاهد ، وفيه حديث مرفوع .

(٤٨) ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ يعني المشقة والأذى كما جاء في الصحيحين « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » وقوله ﴿ وما هم منها

بمخرجين﴾ كما جاء في الحديث «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تخوفوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً» وقال تعالى ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ .

٤٩ ﴿ * نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

٥٠ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

﴿أنا الغفور الرحيم . . .﴾ أني ذو الرحمة ، وذو العذاب الأليم . عن قتادة قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لنجع نفسه» .

٥١ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

٥٢ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾

٥٣ ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى : وخبِّرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع ، كالزور والسفر ، وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون . وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ ﴿قالوا لا توجل﴾ أي لا تخف ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ أي إسحق عليه السلام .

٥٤ ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾

ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ .

٥٥ ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾

فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين﴾ .

﴿٥٦﴾ ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر ، وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿٥٧﴾ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿٥٨﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿٥٩﴾ ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿٦٠﴾ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى إنه شرع يسألهم عما جاؤ وا له فقالوا ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين .

﴿٦١﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿٦٢﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

﴿٦٣﴾ ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

﴿٦٤﴾ ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال ﴿ إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ﴿وأتيناك بالحق ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ وقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

﴿٦٥﴾ ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، إنما يكون ساقة ، يزجي الضعيف ، ويحمل المنقطع . وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل .

(٦٦) ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ أي وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

(٦٧) ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(٦٨) ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله .

(٦٩) ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾

(٧٠) ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(٧١) ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

قالوا مجيبين له ﴿ أولم ننهك عن العالمين ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم ، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر ، ولهذا قال الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع ، وجاه عريض . عن ابن عباس قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . يقول الله ، وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي ضلالهم يعمهون أي يلعبون ، أو يترددون .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٢)

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ (٧٣)

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (٧٤)

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٧٥)

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ (٧٦)

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٧)

يقول تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم . وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ أي إن آثار هذه النقم لظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ﴿ للمتوسمين ﴾ المتفرسين، أو للناظرين ، أو للمعتبرين ، أو للمتأملين . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ ورواه الترمذي وابن جرير . وقوله ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أي وإن قرية « سدوم » التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع ، مسالكه مستمرة إلى اليوم ، كقوله ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ . وقوله ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ (٧٨)

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٩)

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب . والأيكة الشجر الملتف ، وكان ظلمهم بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبا من قوم لوط بعدهم ، في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي طريق مبين أي ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذراته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٨٠)

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٨١)

﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (٨٢)

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ (٨٣)

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

أصحاب الحجر ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه ، وأسرع دابته وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » وقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه فما دفعت عنهم تلك الأموال ، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (٨٥)

﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ أي بالعدل ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ثم أخبر الله نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له ، وتكذيبهم ما جاء به ، كقوله ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام ﴾ .

٨٦ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ هذا تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه شيء العليم بما تمزق من الأجساد ، وتفرق في سائر أقطار الأرض ، كقوله ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

٨٧ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ أي ألن لهم جانبك . قال جماعة : السبع المثاني هي السبع الطول ، يعنون البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس . بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام والأمثال والخبر والعبر . وقال جماعة : هي الفاتحة ، هي سبع آيات ، والبسملة هي الآية السابعة . وفي البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال : مر بي النبي ﷺ ، وأنا أصلي فدعاني ، فلم آته حتى صليت فأتيته ، فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » فقلت : كنت أصلي ، فقال : « ألم يقل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : « ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته » وفي البخاري قال رسول الله ﷺ : « أم القرآن هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم » .

٨٨ ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) إلى أنه يستغني به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث . روى ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن

عند النبي ﷺ شيء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود « يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب » قال : لا ، الا برهن ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « أما والله إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ كأنه يعزيه عن الدنيا . عن ابن عباس ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ قال : نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه ، وقال مجاهد : ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء .

٨٩ ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يأمر تعالى نبيه أن يقول للناس ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

٩٠ ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾

﴿ المقتسمين ﴾ أي المتحالفين ، على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم .

٩١ ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ هم أهل الكتاب جزّؤوا كتبهم المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض . أو جعلوا القرآن أصنافاً .

٩٢ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٩٣ ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فوربك لنسألنهم . . . ﴾ يُسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ، وعما إذا أجابوا المرسلين .

٩٤ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به ، وبإنفاذه ، والصدع به ، وهو مواجهة المشركين به . قال مجاهد هو الجهر بالقرآن في الصلاة . عن عبدالله بن مسعود : ما زال

النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه . ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ .

٩٥ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ، ولا تخفهم ، فإن الله كافيك إياهم ، وحافظك منهم ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

٩٦ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

٩٧ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

٩٨ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر وانقباض ، فلا يثنينك ذلك عن إبلاغ رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزَّ به أمر صلى .

٩٩ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ الموت ، وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ، وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » فقالت : بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير » . ويستدل بهذه الآية الكريمة ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه

التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ، ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هنا الموت .

تفسير سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي قرب ما تباعد ، فلا تستعجلوه ، ويحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم . ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(٢) ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ أي الوحي . وقوله ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ هم الأنبياء . وقوله ﴿ أن أنذروا ﴾ أي لينذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

(٣) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي ، وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق ، لا للعبث . ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له .

(٤) ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة ، أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً ، لا ضداً ، قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

(٥) ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها .

(٦) ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾

ويمتن عليهم بما لهم فيها من الجمال وهو الزينة . ولهذا قال ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى ، فإنها تكون أمده خواصر ، وأعظمه ضروعاً ، وأعلاه أسمنة ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى .

(٧) ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج، والعمرة، والغزو، والتجارة، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل . ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام ، وسخرها لكم .

(٨) ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ويمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها . ولما فصلها من الأنعام ، وأفردها بالذكر استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها ، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية ، وذهب إليه أكثر العلماء . عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكان يقول : قال الله تعالى ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ فهذه للأكل ﴿ والخيل

والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فهذه للركوب .

(٩) ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة ، والأسفار الشاقة شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ كقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ قال مجاهد في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال : طريق الحق إلى الله ، وقيل : الإسلام . ﴿ ومنها جائر ﴾ أي حائد مائل زائغ عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية . ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

(١٠) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزاله المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه بلغته ومتاع لهم ولأنعامهم فقال ﴿ لكم منه شراب ﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ، ومنه الإبل السائحة ، والسوم الرعي .

(١١) ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله .

(١٢) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله فيه ، يسير بحركة مقدرة ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره وسلطانه ، وتسخيره وتقديره وتسهيله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة ، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ، ويفهمون حججه .

(١٣) ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

(١٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، واحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والاحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل : تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح وقيل : تمخره بجؤجئها ، وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، وله كان تعليم صنعتها ، ثم أخذها عنه الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، يسيرون من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى ما هنا ، وما هنا إلى ما هناك . ولهذا قال تعالى ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ أي نعمه وإحسانه .

(١٥) ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات ، لتقر الأرض ولا تميد ، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات ، فلا يهنأ عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال ﴿ والجبال أرساها ﴾ وقوله ﴿ وأنهاراً وسبلاً ﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ينبع في موضع ، وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر ، وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً كما قال : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ .

(١٦) ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

﴿ وعلامات ﴾ أي دلائل من جبال كبار ، وآكام صغار ، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق . وقوله ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ أي في ظلام الليل .

(١٧) ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ .

(١٨) ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم فقال ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهــو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازي على اليسير .

(١٩) ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٢٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله ، لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، كما قال الخليل ﴿ أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ أموات غير أحياء ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء ، وهو خالق كل شيء .

(٢٢) ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ﴾ وقوله ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده .

(٢٣) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

(٢٤) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذ من كتب المتقدمين ، كما قال تعالى ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ أي يفترون على الرسول ، ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة ، كلها باطلة .

(٢٥) ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . . ﴾ أي إنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، ليتحملوا أوزارهم ، ومن أوزار الذين يتبعونهم ، ويوافقونهم ، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء في الحديث « من دعا

إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » وقال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ .

٢٦ ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قيل : هو « النمروذ » كان أول جبار في الأرض ، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾، وقيل : بل هو « بختنصر » وقال آخرون : هذا من المثل لابطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله . وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة ، وأمالوهم إلى الشرك بكل وسيلة . وقوله ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم ، كقوله تعالى ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وقوله ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ وقال الله ههنا ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

٢٧ ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية ، كقوله ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي تظهر وتشتهر ، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان » وهكذا يظهر للناس ما كان هؤلاء يسرون من المكر ، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ، ويقول لهم الرب مقرعاً لهم وموبخاً ﴿ أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة ، وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة ، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ، ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم

بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

(٢٨) ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فألقوا السلم ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ .

(٢٩) ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله ، واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها ، وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ وكما قال تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

(٣٠) ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم : ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئاً ، إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا : خيراً ، أي أنزل خيراً ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه ، وآمن به . ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة . ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل

صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ .

(٣١) ﴿ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

﴿ جنات عدن ﴾ بدل من دار المتقين ، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ لهم فيها ما يشاؤ ون ﴾ كقوله تعالى ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به ، واتقاه ، وأحسن عمله .

(٣٢) ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلصون من الشرك والدنس ، وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة التي كانوا يوعدون ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾ .

(٣٣) ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين عن تماديهم في الباطل ، واغترارهم بالدنيا : هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ أي يوم القيامة ، وما يعانونه من الأهوال . وقوله ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤ هم ، وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاؤ وا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك .

(٣٤) ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يسخرون

من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله يقال لهم يوم القيامة : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

(٣٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ، ونهاكم عنه آكد النهي .

(٣٦) ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾

في كل أمة أي في كل قرية وطائفة من الناس رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة ، وحكمة قاطعة . ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة . . . ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ .

(٣٧) ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ وقال نوح لقومه ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ وقال في هذه الآية ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ أي من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

(٣٨) ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم ، أي اجتهدوا في الحلف ، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي استبعدوا ذلك ، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك ، وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم ، وراداً عليهم ﴿ بلى ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ أي لا بد منه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ، ويقعون في الكفر .

(٣٩) ﴿ ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال ﴿ ليبين لهم ﴾ أي للناس ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ أي من كل شيء ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعاً ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

(٤٠) ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له ﴿ كن فيكون ﴾ والمعاد من ذلك إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر ﴾ وقال ﴿ ما

خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ، ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وأما شتمه إياي فقال ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . هكذا ذكره موقوفاً ، وهو في الصحيح مرفوعاً بلفظ آخر .

(٤١) ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والاخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ هي المدينة ، أو الرزق الطيب ، ولا منافاة فقد مكن الله لهم ، وعوضهم ، وجعلهم أمراء حكاماً ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ أي مما أعطاهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون ما ادخر الله لمن هاجر في سبيل الله .

(٤٢) ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ الذين صبروا . . ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم ، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

(٤٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

عن ابن عباس لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ وقال ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ يعني أهل الكتب الماضية ، أبشراً كانت الرسل إليهم ، أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً . والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ .

﴿٤٤﴾ ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب . والزبر جمع زبور ، تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته . ثم قال تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ أي القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين لهم ما أشكل ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون ، فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿٤٥﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ، وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ، ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم ، وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم كقوله تعالى ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ .

﴿٤٦﴾ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ أي في تقلبهم في المعايش ، واشتغالهم بها في الأسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة ﴿ في تقلبهم ﴾ في الليل والنهار كقوله تعالى ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ وقوله ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه .

﴿٤٧﴾ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، كما ثبت في الصحيحين « لا أحد أصبر على أذىً سمعَه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم » وفيهما « إن الله ليملي للظالم حتى

إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٤٨) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر تعالى أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى . ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون .

(٤٩) ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أي تسجد لله ، أي غير مستكبرين عن عبادته .

(٥٠) ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾

﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

(٥١) ﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إلَه إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه .

(٥٢) ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وله الدين واصباً ﴾ دائماً ، أو واجباً ، أي خالصاً ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض . ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ .

(٥٣) ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر ، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله

عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه ، وتسألونه ، وتلمون في الرغبة إليه مستغيثين به كقوله تعالى ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ .

(٥٤) ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

وقال هنا ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ .

(٥٥) ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قيل : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل ، بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم . ثم توعدهم قائلاً ﴿ فتمتعوا ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي عاقبة ذلك .

(٥٦) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله ، وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه ، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال ﴿ تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾ .

(٥٧) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه فأخطأوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ، ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال تعالى ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقوله ههنا ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ أي عن قولهم وإفكهم . وقوله ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى

الله . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . فإنهم كما قال الله عنهم :

(٥٨) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ أي كئيباً من الهم ﴿ وهو كظيم ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن .

(٥٩) ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة ، لا يورثها ، ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي يئدها ، وهو أن يدفنها فيه حية ، كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما قالوا ، وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه .

(٦٠) ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٦١) ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو لا يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لاهلاك بني آدم ، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى ، أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً . عن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم . وقرأ الآية ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فالتفت إليه أبو هريرة فقال : بلى والله حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم .

(٦٢) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات ، ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً ، وهذا مستحيل . قال مجاهد وقتادة : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ الغلمان . ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿ أن لهم النار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ منسيون فيها مضيعون . وهذا كقوله ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ أو ﴿ مفرطون ﴾ معجلون إلى النار ، من الفرط وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار ، وينسون فيها ، أي يخلدون .

(٦٣) ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة ، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك . وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصاً ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم .

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

(٦٥) ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

(٦٦) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾

﴿ وإن لكم ﴾ أيها الناس ﴿ في الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ لعبرة ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ أفرد الضمير هنا عوداً على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات ، أي نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان . وفي الآية الأخرى ﴿ مما في بطونها ﴾ ويجوز هذا وهذا ، كما في قوله تعالى ﴿ كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ﴾ وفي قوله ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان ﴾ أي المال . وقوله ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ، ولا يتغير به . وقوله ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ أي لا يغص به أحد .

(٦٧) ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل ، والمتخذ من العنب ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك .
﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

(٦٨) ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ، ومن الشجر ، ومما يعرشون .

(٦٩) ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم هي محكمة في غاية الاتقان في تسديدها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها ، مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع من أجنحتها ، وتفيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها . روى ابن أبي يعلى عن رسول الله ﷺ : « عمر الذباب أربعون يوماً ، والذباب كله في النار إلا النحل » . وقوله ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها . وقوله ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم . قال بعض من تكلم على الطب النبوي : لو قال : فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ، ولكن قال : فيه شفاء للناس ، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده . وفي صحيح البخاري « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهي أمتي عن الكي » .

(٧٠) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف في الخلقة كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ وعن علي : أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال ﴿ لكيلا يعلم بعد علمه شيئاً ﴾ .

(٧١) ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

بين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبدكم فيما رزقناكم . فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلٓهية والتعظيم ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ كتب عمر إلى أبي موسى : واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلاً ، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله ، وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه .

(٧٢) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، أو هم الولد وولد الولد ، أو الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المطاعم والمشارب . ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ، ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس ذرية ؟ » .

(٧٣) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الرازق وحده ، لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دون الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال مطر ، ولا إثبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، أي ليس لهم ذلك ، ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال :

(٧٤) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أن لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

(٧٥) ﴿ ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر . والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن . عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(٧٦) ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن ، والحق تعالى ، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كلٌّ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ أينما يوجهه ﴾ أي يبعثه ﴿ لا يأت بخير ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هل يستوي ﴾ من هذه صفاته ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أي بالقسط ، فمقاله حق ، وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ .

(٧٧) ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه ، وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب ، فلا اطلاع لأحد على ذلك ، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن فيكون ، كما قال ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين . وهكذا قال ههنا : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

(٧٨) ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات ، والأبصار التي بها يحسون المرئيات ، والأفئدة التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ ، والعقل الذي به يميز بين الأشياء : ضارها ونافعها . وهذه الحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً ، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده ، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً فقد بارزته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبنه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعات صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله ، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله « ورجله التي يمشي بها » « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي » . ولهذا قال تعالى ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

(٧٩) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ، كما قال تعالى ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمٰن إنه بكل شيء بصير ﴾ وقال ههنا ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٨٠) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يذكر تعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً ، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها ﴾ أي الغنم ﴿ وأوبارها ﴾ أي الإبل ﴿ وأشعارها ﴾ أي المعز . والضمير عائد على الأنعام ﴿ أثاثاً ﴾ أي تتخذون منه أثاثاً ، وهو المال ، وقيل : المتاع ، وقيل : الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

(٨١) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

﴿ ظلالاً ﴾ يعني الشجر ﴿ أكناناً ﴾ أي حصوناً ومعاقل ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ .

(٨٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي بعد هذا البيان ، وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وقد أديته إليهم .

(٨٣) ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ .

(٨٤) ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فلهذا قال ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ العذاب فلا يخفف عنهم ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب .

(٨٦) ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة : كذبتم ، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ ذلوا واستسلموا يومئذٍ ، أي استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع . ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

(٨٨) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾

﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ أي عذابا على كفرهم ، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ .

(٨٩) ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبدالله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال له رسول الله ﷺ : « حسبك » فقال ابن مسعود رضي الله عنه : « فالتفت فإذا عيناه تذرفان » وقوله ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، أو كل حلال وحرام ، أو هو أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ، ومعاشهم ومعادهم ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

(٩٠) ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ، أو هو في هذا الموضع : استواء السريرة والعلانية ، من كل عامل لله عملاً ﴿ والإحسان ﴾ أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته . ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فالفواحش والمحرَّمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها . وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وفي الحديث : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ عن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . ﴾ وفي الحديث : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها » .

(٩١) ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي لا يحملنكم قلة أتباع محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. ولا تعارض بين ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ وبين قوله ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ وقوله ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير ، وتحللتها ، وفي رواية وكفرت عن يميني » لأن هذه الأيمان في الآية ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ هي الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع .

(٩٢) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت . . . ﴾ هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . ﴿ أنكاثاً ﴾ أي أنقاضاً ، أو لا تكونوا أنكاثاً جمع نِكث من ناكث ، ولهذا قال ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ أي خديعة ومكراً ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى الله عن ذلك ، لِينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأنه ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وفي الحديث « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها » ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي أكثر . قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك . ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ يعني بالكثرة ، أو بأمره إياكم بالوفاء بالعهد . ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

٩٣ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ أي لوفق بينكم ، ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير .

٩٤ ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿ دخلاً ﴾ أي خديعة ومكراً ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها . هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن فدعاه ، ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ .

٩٥ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خيراً له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ .

٩٦ ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ما عندكم ينفد ﴾ أي يفرغ فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ﴿ وما عند الله باق ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق ، لا انقطاع ولا نفاد له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم . أي ويتجاوز عن سيئها .

٩٧ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . وعن ابن عباس أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة ، وعن ابن عباس أنها هي السعادة ، وعن قتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة . وعن الضحاك : هي العمل بالطاعة والانشراح بها . والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله . وفي الحديث : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم وعنه « قد أفلح من هدي للإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وروى مسلم « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً » .

(٩٨) ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة ، وهذا أمر ندب ليس بواجب .

(٩٩) ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب ، لا يتوبون منه . وقيل: لا حجة له عليهم وقيل : كقوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

(١٠٠) ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يطيعونه ، أو اتخذوه ولياً من دون الله ﴿ وهم مشركون ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنهم أشركوهم في الأموال والأولاد .

(١٠١) ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . قال مجاهد : ﴿ بدلنا آية مكان آية ﴾ رفعناها وأثبتنا غيرها . وقال قتادة : هو كقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

(١٠٢) ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ قل نزله روح القدس ﴾ أي جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخبت له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

(١٠٣) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب ، والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي . كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ أي القرآن ، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل . والذي يشيرون إليه هو غلام أعجمي يقال له : جبر عبد لبعض بني الحضرمي ، أو كان قيناً بمكة اسمه بلعام ، أو هو سلمان الفارسي . وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية ، وسلمان إنما أسلم بالمدينة .

(١٠٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته ، وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة .

(١٠٥) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفتري الكذب على الله ورسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ أصدق الناس وأبرهم ، وأكملهم علماً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

(١٠٦) ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أخبر تعالى عمن كفر بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر ، واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ، ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة .

وأما قوله ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً ، لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وقد اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك .

(١٠٧) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ذلك لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين .

(١٠٨) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم .

(١٠٩) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

(١١٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة ، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور رحيم بهم يوم معادهم .

(١١١) ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل ﴾ أي تحاج ﴿ عن نفسها ﴾ ليس أحد يحاج عنها ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير وشر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيراً .

(١١٢) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

(١١٣) ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ أي هنيئاً سهلاً ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾ أي جحدت آلاء الله ، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ وقوله ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ ، وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز ، وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه . وقوله ﴿ والخوف ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم وامتن به عليهم .

(١١٤) ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

(١١٥) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي ذبح على غير اسم الله. ومع هذا ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ أي احتاج إليه من غير بغي ولا عدوان ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ .

(١١٦) ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

﴿ ولا تقولوا لما تصف . . ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئاً مما حرم الله ، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه . ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة .

١١٧ ﴿ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

١١٨ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة ، وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى ذكر سبحانه ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . . . ﴾ ولهذا قال ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي فاستحقوا ذلك كقوله ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ .

١١٩ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم تاب الله عليه فقال ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

١٢٠ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يمدح تعالى عبده وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ، ومن اليهودية ، والنصرانية فقال ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به . والقانت : هو الخاشع المطيع . والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ .

(١٢١) ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه ، كقوله تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ أي قام بجميع ما أمره الله به ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره واصطفاه .

(١٢٢) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

(١٢٣) ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل ، وسيد الأنبياء ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ كقوله في سورة الأنعام ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

(١٢٤) ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً على اليهود ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه . . ﴾ لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة ، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه ، وتمت النعمة على عباده . ويقال : إن الله شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه ، واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصاهم أن يتمسكوا به ، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى

﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة . وقد ثبت في الصحيحين « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » لفظ البخاري .

(١٢٥) ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة ، وهو ما أنزله الله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى . وقوله ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن ، برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وقوله ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . . ﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات ، فإنه ليس عليك هداهم ، إنما أنت نذير ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

(١٢٦) ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، أي إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله . نزلت السورة كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ فقال رسول الله : « نصبر ولا نعاقب » وفي القرآن ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ وقال ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ وقال هنا ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ ثم قال ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

(١٢٧) ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

وقوله ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على من خالفك منهم ، فإن الله قدر ذلك ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ أي غم ﴿ مما يمكرون ﴾ مما يجهدون أنفسهم في عداوتك ، وإيصال الشر إليك .

(١٢٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه . وهذه معينة خاصة كقوله ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ وقوله لموسى وهارون ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ وقول النبي للصديق « لا تحزن إن الله معنا » ، وأما المعينة العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ . ومعنى ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ والذين هم محسنون ﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ومخالفيهم .

تفسير سُورَةُ الإِسْرَاءِ

في البخاري عن عبدالرحمن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن تلادي . وروى الإمام أحمد عن عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إلّه غيره ، ولا رب سواه . ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ أي في جنح الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصا ﴾ وهو بيت المقدس

الذي « بإيلياء » معدن الأنبياء من لدن إبراهيم عليه السلام . ولهذا جمعوا له هناك كلهم ، فأمَّهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم . صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لنريه ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿ من آياتنا ﴾ أي العظام كما قال تعالى ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة . هذا وحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون .

(٢) ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً ، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الاسراء ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني إسرائيل أن لا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ، ولا معبوداً دوني ، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

(٣) ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

ثم قال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ تقديره : يا ذرية من حملنا مع نوح ، وفيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا في السفينة ، تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ . روى مسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » .

(٤) ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، ويعلون علواً كبيراً ، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

(٥) ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ

وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي أولي الافسادتين ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد ، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة فجاسوا خلال الديار ، أي تملكوا بلادكم ، وسلكوا خلال بيوتكم ، أي بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحداً ، ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ .

(٦) ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

وقد قيل : إن المسلط عليهم هو جالوت الجزري وجنوده سلط عليهم أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ وقيل : إنه ملك الموصل « سنحاريب » وجنوده ، وقيل : هو « بختنصر » ملك بابل . وقد وردت هنا آثار إسرائيلية كثيرة منها ما هو موضوع من بعض زنادقتهم ، ومنها ما يحتمل أن يكون صحيحاً ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

(٧) ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ أي فعليها كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقوله ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي الكرة الآخرة أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أي بيت المقدس ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وليتبروا ﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ ما علوا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تتبيراً ﴾ .

(٨) ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عدنا ﴾ إلى الادالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال . ولهذا قال ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا

محيد لهم عنه . قال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي «محمداً ﷺ وأصحابه» ، يأخذون منهم الجزية عن يدوهم صاغرون .

(٩) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

يمدح الله تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم بأنه يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السبل ، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة .

(١٠) ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً ، أي يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

(١١) ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه وولده ، أو ماله بالشر ، أي بالموت ، أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، وفي الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ، ولهذا قال : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

(١٢) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾

يمتن الله على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات ، والمعاملات والاجارات وغير ذلك . ولهذا قال ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك . ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً ،

وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك .

(١٣) ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان ، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله من خير وشر ، ويلزم به ويجازى عليه . وقوله ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقياً ﴿ منشوراً ﴾ أي مفتوحاً ، يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ ولهذا قال :

(١٤) ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي .

(١٥) ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق ، واقتفى أثر النبوة ، فإنما يحصل على عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه . ثم قال ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده . وكذا قوله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير . فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ .

(١٦) ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

﴿ أمرنا مترفيها ﴾ أمراً قدرياً ففسقوا فيها ، كقوله تعالى ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ ﴿ إن

الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل : معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، أو سلطنا أشرارهم فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ، وهو قوله ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

(١٧) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح . ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل ، وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية . سبحانه وتعالى .

(١٨) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله . و﴿ ما نشاء ﴾ هذه مقيدة لاطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلاها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿ مذموماً ﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي ﴿ مدحوراً ﴾ مبعداً مقصياً ، حقيراً ذليلاً مهاناً . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

(١٩) ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي أراد الدار الآخرة ، وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه ، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن ، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

(٢٠) ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

يقول تعالى ﴿ كلاً ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة ، فلا راد لحكمه ، ولا مانع لما أعطى ، ولا مغير لما أراد ، ولهذا قال : ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي لا يمنعه أحد ، ولا يرده راد ، أو ﴿ محظوراً ﴾ منقوصاً ، أو ممنوعاً .

(٢١) ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء » وفي الطبراني مرفوعاً « ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها » ثم قرأ ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

(٢٢) ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

يقول تعالى ، والمراد المكلفون من الأمة : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب لا ينصرك ، بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له . روى الإمام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً ، وإما عاجلاً » . ورواه أبو داود والترمذي . قال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٢٣) ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً كقوله ﴿ إن اشكر لي ولوالديك ﴾ ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيِّىء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح . ولما نهاه عن القول القبيح ، والفعل القبيح أمر بالقول الحسن والفعل الحسن فقال ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

٢٤ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما . روى الإمام أحمد، قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده الكبر فلم يدخلاه الجنة » .

٢٥ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه ، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ للمطيعين أهل الصلاة ، أو للذين يصلون الضحىٰ ، أو للذين يصيبون الذنب ، ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون . عن عبيد بن عمير : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . قال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه . وهذا هو الصواب لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله كان إذا رجع من سفره قال : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ .

٢٦ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث « أمك وأباك ، ثم أدناك أدناك » وفي رواية « ثم الأقرب فالأقرب » . وفي الحديث « من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أجله فليصل رحمه » ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطاً ، كما قال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم

يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ .

٣٧ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي أشباههم في ذلك . قال ابن مسعود : التبذير الإنفاق في غير حق . وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً . وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى ، وفي غير الحق والفساد . ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ أي جحوداً ، لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته .

٣٨ ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك . . ﴾ أي إذا سألك أقاربك ، ومن أمرناك بإعطائهم ، وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين ، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

٣٩ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل ، ناهياً عن السرف ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً ، لا تعطي أحداً شيئاً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ﴿ فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ وهذا من باب اللف والنشر ، أي فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ، ويذمونك ويستغنون عنك ، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً ، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال كما قال تعالى ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ وفي الحديث « إن الله قال لي : أنفق أُنفق عليك » وفي الحديث « ما عال من اقتصد » .

٣٠ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرازق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لما له في ذلك

من الحكمة ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ، ويستحق الفقر كما جاء في الحديث « إن من عبادي لَمن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لَمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة . عياذاً بالله من هذا وهذا .

(٣١) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عليه عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ « قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قلت : ثم أي ؟ « قال : أن تزاني بحليلة جارك » .

(٣٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً .

(٣٣) ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

في الصحيحين أن رسول الله قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفي السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله ﴿ إنه كان

منصوراً ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدراً .

(٣٤) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم » وقوله ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إن العهد كان مسؤ ولاً ﴾ .

(٣٥) ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ أي من غير تطفيف ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ وهو الميزان ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ﴿ ذلك خير ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم . ولهذا قال ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم . عن ابن عباس : يا معشر الموالي ، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم ، هذا المكيال ، وهذا الميزان ، وفي الحديث : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » .

(٣٦) ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

﴿ ولا تقف ﴾ لا تقل ، أو لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم ، أو هو شهادة الزور ، أو لا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله . ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ وفي الحديث «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بئس مطية الرجل زعموا » وفي الحديث الآخر « إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا » ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤ ولا ﴾

أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه ، وعما عمل فيها .

(٣٧) ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾

(٣٨) ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي بتمايلك وفخرك ، وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في الصحيح « بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم ، وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن الله خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث « من تواضع لله رفعه ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله ، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ .

(٣٩) ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿ ولا تجعل مع الله إلٓهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً ﴾ أي تلومك نفسك ، ويلومك الله والخلق ﴿ مدحوراً ﴾ أي مبعداً من كل خير . والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

(٤٠) ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين ، عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل المقامات الثلاث خطأ عظيماً فقال تعالى منكراً عليهم ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على

زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم فقال ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ، ثم جعلكم ولده الاناث التي تأنفون أن يكنَّ لكم ، وربما قتلتموهن بالوأد ، فتلك إذاً قسمة ضيزى .

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي عن الحق ، وبعداً منه .

(٤٢) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله ، وأنبيائه .

(٤٣) ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون ﴾ أي هؤلاء المشركون المتعدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿ علواً كبيراً ﴾ أي تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(٤٤) ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن ، أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته ، كما قال تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً . أن دعوا للرحمٰن ولداً ﴾ وقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ أي وما من شيء من

المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام ، وهو يؤكل . وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل . ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما جاء في الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً ، هو الأكنة على قلوبهم ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ بمعنى ساتر ، كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم ، وقيل : مستوراً عن الأبصار ، فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى .

﴿٤٦﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ أي وحدت الله في تلاوتك وقلت : لا إله إلا الله ﴿ ولَّوا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾ ونفور جمع نافر ، كقعود جمع قاعد ، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل . والله أعلم .

﴿٤٧﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السِّحْر على المشهور ، أو من

السَّحَر ، وهو الرئة ، إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يغذَّى وفيه نظر ، لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رِئيّ يأتيهِ بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر .

(٤٨) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

ولهذا قال : ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصاً .

(٤٩) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي تراباً ، أو غباراً ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً كما أخبر عنهم في الموضع الآخر . ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ .

(٥٠) ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾

إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات .

(٥١) ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ هو الموت ، أي لو كنتم موتى لأحييتكم . ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء ، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده . أو ﴿ خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ يعني السماء والأرض والجبال ، أو ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم صرتم بشراً تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ، ولو صرتم إلى أي حال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ يحركونها استهزاء، والانغضاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغض ، لأنه

إذا مشى عجل بمشيته ، وحرك رأسه ﴿ ويقولون متى هو ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم ، سيأتيكم لا محالة ، فكل ما هو آت آت .

﴿٥٢﴾ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ أي تقولون كلكم : إجابة لأمره وطاعة لارادته ، أو ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ أي بأمره أو وله الحمد في كل حال . وفي الحديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون : « لا إله إلا الله » وفي رواية يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ ﴿ وتظنون ﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ وكقوله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

﴿٥٣﴾ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر ، والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، وعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار » أخرجاه من حديث عبدالرزاق . وعند الإمام أحمد « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، التقوى ههنا » قال حماد : وأشار بيده إلى صدره . وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما ، والمحدِث شر ، والمحدَث شر ، والمحدث شر » .

﴿٥٤﴾ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار .

(٥٥) ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾

﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ، ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين « ولا تفضلوا بين الأنبياء » فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل دليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد ﷺ ، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم نوح على المشهور ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . في البخاري عن النبي ﷺ : « خفف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ » يعني القرآن .

(٥٦) ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ، فارغبوا إليهم ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية ﴿ ولا تحويلاً ﴾ بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر .

(٥٧) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية . والوسيلة هي القربة ، ولهذا قال : ﴿ أيهم أقرب ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف ينكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات . وقوله ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويخاف من وقوعه ، وحصوله . عياذاً بالله منه .

(٥٨) ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي

ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضية ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

(٥٩) ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

قال المشركون يا محمد ، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء ، فمنهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ، ونصدقك ، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً ، فأوحى الله إليه : إني قد سمعت الذي قالوا ، فإن شئت أن تفعل الذي قالوا ، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب ، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة ، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنيت بهم ، قال : « يا رب استأن بهم » ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ، ومنعوا شربها ، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون . ذكر أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله ، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وفي الحديث المتفق عليه « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ، ثم قال : يا أمة محمد ، والله ما أحد أغير من الله ، أن يزني عبده ، أو تزني أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » .

(٦٠) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته ، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس ، فإنه القادر عليهم ، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي عصمك منهم ﴿ وما جعلنا الرؤ يا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : هي رؤ يا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ شجرة الزقوم ﴿ إلا فتنة للناس ﴾ أي اختباراً وامتحاناً فرجع ناس عن دينهم بعدما كانوا على الحق ، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين. وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله : هاتوا لنا تمراً وزبداً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ، ويقول : تزقموا ، فلا نعلم الزقوم غير هذا ﴿ ونخوفهم ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال ، وذلك من خذلان الله لهم .

(٦١) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

يذكرَ تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له ، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ .

(٦٢) ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ قال : أرأيتك ﴾ يقول هذا للرب جراءة وكفراً ، والرب يحلم ويُنظر ﴿ هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته . . ﴾ يقول : لأستولين على ذريته ﴿ إلا قليلاً ﴾ . وقال مجاهد : لأحتوين ، وقال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة . والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفتَه وعظمتَه عليّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

(٦٣) ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿ إذهب ﴾ فقد أنظرتك ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاء موفوراً ﴾ وافراً ، لا ينقص لكم منه شيء .

(٦٤) ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قيل : هو الغناء ، أي استخفهم باللهو والغناء ، أو هو كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل ، كما أن الركب جمع راكب ، والصحب جمع صاحب ، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدري كقوله تعالى ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً ، وتسوقهم إليها سوقاً ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى ، أو هو الربا ، أو هو جمعها من خبيث ، وإنفاقها في حرام ، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم ، يعني من البحائر والسوائب ونحوها ، والآية أعم ﴿ والأولاد ﴾ هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم ، أو معنى المشاركة أن كل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه ، أو به فهو مشاركة ، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كقوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ .

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم ، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » - ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره - .

(٦٦) ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ أي

إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

(٦٧) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هارباً فركب البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه ، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

(٦٨) ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصباً ، وهو المطر الذي فيه حجارة ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم ، وينقذكم منه .

(٦٩) ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر ، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ، أي يقصف الصواري ، ويغرق المراكب ، قال ابن عباس وغيره : القاصف : ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها . وقوله ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ نصيراً ، أو نصيراً ثائراً ، أي يأخذ

بثأركم بعدكم . قال قتادة : ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك .

(٧٠) ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم ، وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، كقوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أن يمشي منتصباً على رجليه ، ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات بمشي على أربع ، ويأكل بفمه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ، وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ، ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ، ﴿ وحملناهم في البر ﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال ، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ أي من سائر الحيوانات ، وأصناف المخلوقات . وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة . روى الطبراني ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل : يا رسول الله ، ولا الملائكة ؟ قال : « ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » وهذا حديث غريب جداً .

(٧١) ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، أي نبيهم . وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ ، وقيل : بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع ، أو بكتاب أعمالهم ، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ ويحتمل أن يكون المراد ﴿ بإمامهم ﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤ ون كتابهم ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح ، يقرؤه ويحب قراءته

﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ والفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة .

(٧٢) ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ في هذه ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي وأضل منه ، كما كان في الدنيا . عياذاً بالله من ذلك .

(٧٣) ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾

(٧٤) ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

(٧٥) ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله ﷺ ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصره ومؤيده ، ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها . صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

(٧٦) ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

نزلت في كفار قريش ، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع ، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم ، وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم ، وسبى ذراريهم ، ولهذا قال :

(٧٧) ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

﴿سنة من قد أرسلنا﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

(٧٨) ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قيل : لغروبها ، وقيل : دلوكها زوالها ، ويشهد لهذا ما ورد عن جابر قال : دعوت رسول الله ﷺ ، ومن شاء من أصحابه ، فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر ، فهذا حين دلكت الشمس » ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ تشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار . في البخاري أن النبي ﷺ قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : اقرؤ وا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل » ولهذا أمر الله رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ﴿ نافلة لك ﴾ قيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فقيام الليل واجب في حقه دون الأمة ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى . قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

(٨٠) ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾

روى الإمام أحمد قال : كان النبي ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة فأنزل الله ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق . . . ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يطردوه ، أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله عز وجل ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني مكة ، ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ حجة بينة ، ولا بد معها من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا قال ﴿ لقد أرسلنا رسلنا

بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ وفي الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أي ليمتنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد . وهذا هو الواقع .

(٨١) ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل . . ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ، ولا قِبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، وزهق باطلهم ، أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء .

(٨٢) ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمته ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

(٨٣) ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ، ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونآى بجانبه . قال مجاهد : بعد عنا ، وهذا كقوله تعالى ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ وقوله ﴿ كان يـؤساً ﴾ أي قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير .

(٨٤) ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ على ناحيته ، أو على حدته وطبيعته ، أو على نيته . وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم ، كقوله تعالى ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾ ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾

أي منا ومنكم ، وسيجزي كل عامل بعمله ، فإنه لا تخفى عليه خافية .

(٨٥) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث المدينة، وهو متوكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، قال : فسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه فقال ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم : لا تسألوه ، وهكذا رواه البخاري ومسلم . عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود ، وقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك ؟ فقال : « كلاً قد عنيت » فقالوا : إنك تتلوا أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « هي في علم الله قليل ، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ والمراد بالروح أرواح بني آدم .

(٨٦) ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

(٨٧) ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

(٨٨) ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . قال ابن مسعود يطرق الناس ريح حمراء ، يعني في آخر الزمان من قبل الشام ، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك . . . ﴾ . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ، ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا

نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له .

(٨٩) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

﴿ ولقد صرفنا للناس . . ﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق ، وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً للحق ، ورداً للصواب .

(٩٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾

(٩١) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾

﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الينبوع : العين الجارية ، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا ، وذلك سهل على الله يسير ، لو شاء فعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(٩٢) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾

﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، وتدلّى أطرافها فعجل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفاً أي قطعاً ، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبي الرحمة ، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع فإن منهم من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبدالله بن أبي أمية الذي قال للنبي ﷺ ، فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك ، حتى هذا أسلم إسلاماً تاماً ، وأناب إلى الله عز وجل .

(٩٣) ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ هو الذهب ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ قال مجاهد : أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة : هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان تصبح موضوعة عند رأسه . ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل . في مسند الإمام أحمد « عرض عليَّ ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً ـ أو نحو ذلك ـ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » ورواه الترمذي في الزهد ، وقال : هذا حديث حسن .

(٩٤) ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل الا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً إلا أن قالوا ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ .

(٩٥) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث اليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ، ويفهموا منه ، ليمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث الى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى ﴿ لقدمن الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ ولهذا قال ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم ، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة .

(٩٦) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به : إنه شاهد عليَّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام كما قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وقوله ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي عليماً بهم ،

بمن يستحق الانعام والاحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والاضلال والازاغة .

٩٧ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وانه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، أي يهدونهم ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ روى الامام احمد قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » وأخرجاه في الصحيح . ﴿ عمياً ﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكماً ﴾ يعني لا ينطقون ﴿ وصماً ﴾ لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أخرج ما يحتاجون اليه . ﴿ مأواه جهنم ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم جهنم ﴿ كلما خبت ﴾ سكنت ، أو طفئت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ أي لهباً ووهجاً وحجراً كما قال ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً ﴾ .

٩٨ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه ، لأنهم كذبوا ﴿ بآياتنا ﴾ أي بأولتنا وصحبتنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ .

٩٩ ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على اعادتهم أسهل من ذلك ، كما قال ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ وقوله قادر ﴿ على أن يخلق مثلهم ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ﴿ وجعل لهم أجلاً

لا ريب فيه ﴾ أي جعل لاعادتهم واقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ، ومدة مقدرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالى ﴿ وما نؤخره الا لأجل معدود ﴾ وقوله ﴿ فأبى الظالمون ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم .

(١٠٠) ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : قل لهم يا محمد ، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله ﴿ لأمسكتم خشية الانفاق ﴾ أي الفقر ، أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ، ولا تنفد أبداً ، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ، ولهذا قال ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً منوعاً . وقال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ ويدل هذا على كرمه وجوده واحسانه سبحانه وتعالى ، وقد جاء في الصحيحين « يد الله ملأى ، لا يفيضها نفقة ، سماء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يفض ما في يمينه » .

(١٠١) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي العصا واليد ، والسنين والبحر ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات . ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ وما نجعت فيهم ، فكذالك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . . ﴾ لما استجابوا ولا آمنو إلا أن يشاء الله كما قال فرعون لموسى ، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قيل : بمعنى ساحر ، والله أعلم .

(١٠٢) ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

﴿ بصائر ﴾ أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي هالكاً ، أو ملعوناً ، أو مغلوباً .

(١٠٣) ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ .

(١٠٤) ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة همُّوا باخراج الرسول منها ، كما قال تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ ولهذا أورث الله رسوله مكة ، فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلماً وكرماً ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال ﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ .

(١٠٥) ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وهو القرآن المجيد : إنه بالحق نزل ، أي متضمناً للحق كما قال تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه . وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل اليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغير ، ولا زيد فيه ، ولا نقص منه ، بل وصل اليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي يا محمد ﴿ إلا مبشراً ونذيراً ﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين .

(١٠٦) ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي لتبلغه الناس ، وتتلوه عليهم أي ﴿ على مكث ﴾ أي مهل . ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء .

(١٠٧) ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لا ، فهو حق في نفسه ، أنزله الله ، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله ، ولهذا قال ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ، وأقاموه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرُّون للأذقان ﴾ جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه ﴿ سجداً ﴾ أي لله عز وجل شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون :

(١٠٨) ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثته محمد ﷺ ، ولهذا قالوا ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ .

(١٠٩) ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾

﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ أي خضوعاً لله عز وجل ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي إيماناً وتسليماً ، كما قال ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

(١١٠) ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنىٰ . روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ ، وهو يقول في سجوده « يا رحمٰن يا رحيم » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية . وقوله ﴿ ولا تجهر بصلاتك . . . ﴾ روى الامام أحمد قال : نزلت هذه الآية ، ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله لنبيه ﷺ ﴿ ولا تجهر

بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أخرجاه في الصحيحين .

(١١١) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً . . . ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي ، أو وزير ، أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها ، ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً . وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز .

تفسير سُورَةُ الكَهفِ

روى الامام أحمد : قرأ رجل الكهف ، وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر ، فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقرأ فلان ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن » أخرجاه في الصحيحين . وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير رضي الله عنه . وفي الحديث « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » رواه مسلم . وفيه « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » رواه مسلم . وفي الحديث « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين » أخرجه الحاكم وقال : حديث صحيح الاسناد .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾

﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً ، بل جعله معتدلاً مستقيماً يهدي إلى صراط مستقيم .

﴿٢﴾ ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾

﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الأخرى ﴿ من لدنه ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة .

﴿٣﴾ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾

﴿ ماكثين فيه ﴾ أي في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيها ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء .

﴿٤﴾ ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾

﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ وهم مشركو العرب في قولهم : نحن نعبد الملائكة ، وهم بنات الله .

﴿٥﴾ ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمة ﴾ نصب على التمييز ، تقديره : كبرت كلمتهم هذه ، وقيل : على التعجب ، تقديره : أعظم بكلمتهم كلمة ، كما تقول : أكرم بزيد رجلاً ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

﴿٦﴾ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الايمان وبعدهم عنه كما قال تعالى ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ وقال ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ باخع نفسك أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أسفاً ﴾ يقول : لا تهلك نفسك اسفاً ، والمعنى لا تأسف لا

تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

(٧) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية ، مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار ، لا دار قرار فقال ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » .

(٨) ﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيداً جرزاً ، لا ينبت ولا ينتفع به . قال مجاهد : صعيداً جرزاً : بلقعاً . وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات .

(٩) ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الاجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك فقال ﴿ أم حسبت ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف ، إذ أن من آياتنا ما هو أعجب من ذلك . والكهف : الغار في الجبل ، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والرقيم هو واد قريب من أيلة ، أو هو اسم الوادي ، أو كتاب بنيانهم ، أو هو الوادي الذي فيه كهفهم ، أو القربة ، أو الكتاب ، أو هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف . قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم : الكتاب ، ثم قرأ ﴿ كتاب مرقوم ﴾ . وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير .

(١٠) ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منه

فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين رحمة الله ولطفه بهم ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً ، أي اجعل عاقبتنا رشداً وفي الحديث « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(١١) ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة .

(١٢) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه . ﴿ أي الحزبين﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ قيل : عدداً ، وقيل : غاية ، فإن الأمد الغاية .

(١٣) ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها فذكر تعالى أنهم فتية ، وهم الشباب ، وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل وقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الايمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص .

(١٤) ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾

﴿ لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ « لن » لنفي التأبيد ، أي لا يقع هذا منا أبداً ، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ، ولهذا قال عنهم : ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً .

(١٥) ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ يقولون ، بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك . فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد خوفاً على دينه ، كما جاء في الحديث « يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع .

(١٦) ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴾

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتكم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يبسط لكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ ويهيء لكم من أمركم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف ، فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك ، فيقال إنه لم يظفر بهم ، وعمى الله عليه خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجآ إلى غارثور ، وجاء المشركون من قريش في الطلب ، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه ، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جذع الصديق في قوله : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ . وقد قال الله ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم من قصة أصحاب الكهف .

(١٧) ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ

لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذات اليمين ﴾ أي يتقلص الفيء يمنة . ﴿ تزاور ﴾ أي تميل ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، ولهذا قال ﴿ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بأبه، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين عن تأمله . ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم ، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم .﴿ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقي أبدانهم . ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ ثم قال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد . . . ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿١٨﴾ ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم ، لئلا يسرع إليها البلى ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ وقوله تعالى ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض . وقوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ بالوصيد : بالفناء ، أو بالباب ، أو بالصعيد وهو التراب ، والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة . قال ابن جرير : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربص ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كما ورد في الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر ، كما ورد به الحديث الحسن . وشملت كلبهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع بصر أحد عليهم إلا هابهم ، لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقض رقدتهم التي شاء تبارك

وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .

(١٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿ كم لبثتم ﴾ ؟ أي كم رقدتم ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا ﴿ أو بعض يوم ﴾ ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي الله أعلم بأمركم ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ أي فضتكم هذه ﴿ إلى المدينة ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ﴿ فلينظرا أيُّها ازكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً ، أو أكثر طعاماً . ﴿ وليتلطف ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه ، وإيابه ، يقولون : وليختف كل ما يقدر عليه . ﴿ ولا يشعرنَّ ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ﴾ .

(٢٠) ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿ يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانكم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها ، أو يموتوا ، وإن وافقتموهم على العود في الدين ، فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ .

(٢١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث ، وفي أمر القيامة . قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وقوله ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي كما

أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ، ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم عليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ﴾ أي سدوا عليهم باب الكهف ، وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ أي قال ذلك : المسلمون منهم ، أو أهل الشرك منهم والظاهران الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ، لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

٢٢ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكي ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه ، أو قرره بقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر . وقوله ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذ أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا وقفنا . وقوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي من الناس . عن ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة . وقيل : إنهم ثمانية وهم ملسلمينا وكان أكبرهم ، ويمليخا ومرطونس ، وكسطونس ، وبيرونس ، ودينموس ، ويطبونس ، وقالوش . وكلبهم اسمه قطمير أو حمران . والصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو ظاهر الآية . وفي تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم نظر في صحته . والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي سهلاً ليناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، أي من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد

بالحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

(٢٣) ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

هذا ارشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ إنه قال « قال سليمان بن داود : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً ، يقاتل في سبيل الله ، فقيل له ، وفي رواية قال له الملك : قل إن شاء الله فلم يقل ، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف انسان » . فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دراكاً لحاجته ، وفي رواية « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢٤) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

﴿ واذكر ربك اذا نسيت ﴾ إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له ، أو أن تقول : إن شاء الله ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

(٢٥) ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلثمائة : وازدادوا تسعاً .

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك ، وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء ، بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب

السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير ، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم . ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ أي إنه لبصير بهم ، سميع لهم ، وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فلا أحد أبصر من الله ، ولا أسمع منه ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مشير . تعالى وتقدس .

(٢٧) ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز ، وإبلاغه إلى الناس ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لها ، ولا محرف ولا مزيل ، وقوله ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ ملجأ ، أو ولياً ، ولا مولىً قال ابن جرير : يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى اليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

(٢٨) ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويهللونه ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله ، سواء كانوا فقراء أم أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه ، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . . ﴾ روى الامام أحمد عن أبي أمامة قال : خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك ، فقال رسول الله ﷺ : « قص فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب » وروى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم

اجتمعوا يذكرون الله ، لا يريدون بذلك الا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات » . وقوله ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال ﴿ ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

٢٩ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : وقل يا محمد للناس : هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي سورها . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لسرادق النار اربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة » وأخرجه الترمذي في صفة النار . وقوله ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ المهل : الماء الغليظ مثل وردي الزيت ، أو هو كالدم والقيح . ﴿ يشوي الوجوه ﴾ أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ﴿ بئس الشراب ﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم ﴾ ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق ، كما قال ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

٣٠ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة .

٣١ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا

خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾

فلهم جنات عدن ، والعدن الاقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم . قال فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ﴿ يحلون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصله ههنا فقال ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج ، وفيه بريق . وقوله ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع في الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا ، ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئاً » فيه القولان . والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، وقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ، وحسنت مرتفقاً أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .

٣٢ ﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما ، وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة .

٣٣ ﴿ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴾

ولهذا قال : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ أي والأنهار متفرقة فيما ههنا وههنا .

٣٤ ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾

﴿ وكان له ثمر ﴾ قيل : المراد به المال ، وقيل : الثمار ، وهو أظهر ههنا ﴿ فقال ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر : كثرة المال ، وعزة النفر .

﴿٣٥﴾ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وذلك اعتزاز منه ، لما رأى فيها من الزروع والثمار ، والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفرغ ولا تفنى ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا ، وزينتها ، وكفره بالآخرة .

﴿٣٦﴾ ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ .

﴿٣٧﴾ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب . . . ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه ، وابتدأ خلق الانسان من طين ، وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

﴿٣٨﴾ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي بل هو المعبود وحده لا شريك له .

﴿٣٩﴾ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

ثم قال ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت . . . ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ولهذا قال بعض السلف . من أعجبه شيء من حاله أو ماله فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . أخرج الحافظ أبو ليلى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ . « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل

أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » .

﴿٤٠﴾ ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾

﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها تبيد ولا تفنى ﴿ حسباناً من السماء ﴾ أي عذاباً من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ، ولهذا قال ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم ، قال ابن عباس : كالجرز الذي لا ينبت شيئاً .

﴿٤١﴾ ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض ، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي جار وسائح .

﴿٤٢﴾ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

يقول ﴿ وأحيط بثمره ﴾ بأمواله ، أو بثماره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عز وجل ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ قال قتادة : يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ .

﴿٤٣﴾ ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ .

﴿٤٤﴾ ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ أي هنالك الموالاة لله ، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر

يرجع إلى الله ، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ وخير عقباً ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

(٤٥) ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

يقول تعالى ﴿ واضرب لهم ﴾ يا محمد للناس ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وانقضائها ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي ما فيها فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ، ثم بعد هذا كله ﴿ أصبح هشيماً ﴾ يابساً ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كقوله ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ .

(٤٦) ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ ولهذا قال ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ الباقيات الصالحات : الصلوات الخمس ، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أو هي الأعمال الصالحة أو هي الكلام الطيب .

(٤٧) ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى ﴿ يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يواري أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم ، لا تخفى عليه منهم خافية . ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ أي وجمعناهم : الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحداً صغيراً ولا كبيراً ، كما قال ﴿ قل إن الأولين

والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

(٤٨) ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً كما قال تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً كما قال ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وقوله ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

(٤٩) ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ، ولا كبيراً ، ولا عملاً ، وإن صغر ﴿ إلا أحصاها ﴾ أي ضبطها وحفظها . روى الطبراني عن سعد بن جنادة قال : « لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجمعوا ، من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً فليأت به ، أو شيئاً فليأت به » قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنها محصاة عليه » وقوله ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير وشر ، كقوله ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ، ولا يظلم أحداً من خلقه ، بل يغفر ويصلح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله .

(٥٠) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتدأه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس ، وعادى الله فقال تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميع الملائكة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم . وقوله ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة . ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن ، أي على أنه خلق من نار ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من حجرها إذا خرجت منه للعبث والفساد . ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني . . . ﴾ أي بدلاً عني ، ولهذا قال : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

(٥١) ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ ولهذا قال ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ أعواناً .

(٥٢) ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿ نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وقوله ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما قال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ مهلكاً ، أو هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة . والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

٥٣ ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

﴿ ورأى المجرمون النار . . ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فإذا رآها المجرمون تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بد لهم منها . روى ابن جرير عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة » .

٥٤ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فالانسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل الا من هداه الله وبصره لطريق النجاة . عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ألا تصليان » ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته ، وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول ﴿ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً ﴾ . أخرجاه في الصحيحين .

٥٥ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب واخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة .

٥٦ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾

﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم ، وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذبهم ، وخالفهم . ثم أخبر عن الكفار فقال ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم في ذلك ، وهو أشد التكذيب .

٥٧ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾

يقول تعالى : وأي عباد الله اظلم ممن ذكر بآيات الله ﴿ فأعرض عنها ﴾ أي تناساها ، وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ، ولا ألقى اليها بالاً ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿ أكنة ﴾ أي أغطية وغشاوة ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾ .

٥٨ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ كما قال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على

ظهرها من دابة ﴾ ثم أخبر تعالى أنه عليم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل .

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ، ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون ، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول ، وأعظم نبيٍّ ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

(٦٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾

سبب قول موسى لفتاه ، وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين . قال قتادة وغيره : هما بحر فارس مما يلي المشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب . وقال محمد بن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة في أقصى بلاد المغرب ، فالله أعلم . وقوله ﴿ و أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان ، أي دهراً .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها : عين الحياة ، فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان في المكتل مع يوشع عليه السلام ، وطفر من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فظل يسير في الماء ، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ، ولهذا قال ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

(٦٢) ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾

﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان اليهما ، وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من المالح . فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصباً ﴾ يعني تعباً .

(٦٣) ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

﴿ فاتخذ سبيله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر عجباً ﴾ .

(٦٤) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان آثار مشيهما ، ويغفوان أثرهما .

(٦٥) ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا . . . ﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه ، إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب ، وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ، ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي

أمره الله به ، قال له فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت . . . ﴾ قال فكان للحوت سرباً ، ولموسى وفتاه عجباً فقال ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى فقال موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم الخ ما جاء في حديث البخاري .

٦٦ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى عليه السلام كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطف ، لا على وجه الالزام والاجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله ﴿ أتبعك ﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح .

٦٧ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك لأني على علم من علم الله ما علمكه الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله .

٦٨ ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك .

٦٩ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ أي على ما أرى من أمورك ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ أي ولا أخالفك في شيء ، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام .

٧٠ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ أي ابتداء ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

(٧١) ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه ، وهو الخضر : إنهما انطلقا لما توافقوا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا في السفينة ، وقد جاء في حديث البخاري كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، يعني بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجت أي دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ، ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ وهذه لام العاقبة ، لا لام التعليل ﴿ لقد جئت شيئاً امراً ﴾ منكراً ، أو عجباً .

(٧٢) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يعني ، وهذا الصنيع فعلته قصداً وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها لأنك لم تحط بها خبراً ، ولها مصلحة لم تعلمها أنت .

(٧٣) ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد علي ، ولهذا تقدم في حديث البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » .

(٧٤) ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾

يقول تعالى ﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ وقد كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى اسمه حيثور ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ، وروي أنه احتز رأسه ، وقيل : رضخه بحجر ، وفي رواية اقتلعه بيده . والله أعلم فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثماً بعد فقتلته

﴿ بغير نفس ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ أي ظاهر النكارة .

٧٥ ﴿ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ فأكد أيضاً التذكار بالشرط الأول، فلهذا

٧٦ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

قال له موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . روى ابن جرير قال كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ .

٧٧ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ هي الأيلة ، وفي الحديث « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً » أي بخلاء ﴿ فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ إسناد الارادة إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الارادة في المحدثات بمعنى الميل . والانقضاض هو السقوط . وقوله ﴿ فأقامه ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة . وفي حديث البخاري أنه رده بيديه ، ودعمه حتى رد ميله وهذا خارق ، قال له موسى ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً .

٧٨ ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

٧٩ ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة ، فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة ، أي جيدة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها فأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل : إنهم أيتام .

﴿٨٠﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾

في الحديث عن النبي ﷺ قال : « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » رواه ابن جرير . ولهذا قال ﴿ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر . قال قتادة : قد فرح به ابواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح في الحديث « لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ .

﴿٨١﴾ ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

أي ولداً أزكى من هذا ، وهما أرحم به منه .

﴿٨٢﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

في هذه الآية دليل على اطلاق القرية على المدينة ، لأنه قال أولاً ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال ههنا ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، أي كان تحته مال مدفون لهما . وقوله ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم . وكان الأب السابع . وقوله ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما

ويستخرجا كنزهما ﴾ ههنا أسند الارادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه الا الله وقال في الغلام ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ وقال في السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ فالله اعلم . وقوله تعالى ﴿ رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدي الغلام ، وولدي الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمري لكني أمرت به ووقفت عليه . وقد ذهب كثيرون إلى أن الخضر كان ولياً ولم يكن نبياً . وقوله ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى اخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال ﴿ تسطع ﴾ وقبل ذلك كان الاشكال قوياً ثقيلاً فقال ﴿ تستطع ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف كما قال ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى .

(٨٣) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره . وقد بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح فنزلت سورة الكهف .

(٨٤) ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾

﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتي الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس : مشرقها ومغربها . ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ يعني علماً ، أو منازل الأرض وأعلامها .

(٨٥) ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

﴿ فأتبع سبباً ﴾ يعني بالسبب المنزل ، أو منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب ، أو طرفي الأرض .

﴿٨٦﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴾

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه . والحمأة الطين الأسود . ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي أمة من الأمم . ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب . . ﴾ معنى هذا أن الله مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيَّره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منَّ أوفدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه .

﴿٨٧﴾ ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾

﴿ قال أما من ظلم ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل ﴿ ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً ، وفي هذا اثبات المعاد والجزاء .

﴿٨٨﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴾

﴿ وأما من آمن ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ معروفاً .

﴿٨٩﴾ ﴿ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾

﴿٩٠﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة غلبهم وقهرهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم ، وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم ، وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الاقليم المتاخم لهم . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم ، وتسترهم من حر الشمس ، وقيل : هم الزنج .

(٩١) ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ أي علماً ، أي نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم ، وتقطعت بهم الأرض ، فإنه تعالى ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

(٩٢) ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض .

(٩٣) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

حتى بلغ بين السدين ، وهما جبلان متناوحان ، بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين « إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج وقوله ﴿ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ أي لاستعجام كلامهم ، وبعدهم عن الناس .

(٩٤) ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أجراً عظيماً ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً .

(٩٥) ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

﴿ قال ﴾ ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي أن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه ، كما قال سليمان بن داود ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه

خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ .

٩٦ ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ والزبر جمع زبرة ، وهي القطعة منه ، وهي كاللبنة . ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿ قال انفخوا ﴾ أي أجج عليه النار ، حتى صار كله ناراً ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ هو النحاس ، زاد بعضهم المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

٩٧ ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال ﴿ فما اسطـاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ وفي الحديث « فتح اليوم من روم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد التسعين . أخرجه البخاري ومسلم .

٩٨ ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾

﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين قال هذا رحمة بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي مساوياً للأرض . ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة .

٩٩ ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴾

﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس يومئذٍ ، أي يوم يدك هذا السد ، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم ، وذلك كله قبل يوم القيامة ، وبعد الدجال . ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك . والصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . وفي الحديث « كيف أنعم وصاحب القرن

قد التقم القرن وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟ » قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . قوله ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ . ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

(١٠٠) ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة إنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ، ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » .

(١٠١) ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾

ثم قال مخبراً عنهم ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال ﴿ ومن يغشى عن ذكر الرحمٰن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

(١٠٢) ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ، وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ .

(١٠٣) ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾

في البخاري عن مصعب قال : سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحروبة ؟ قال : هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد يسميهم الفاسقين . ﴿ ننبئكم ﴾ أي نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ ؟

١٠٤ ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

ثم فسرهم فقال ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة . ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون .

١٠٥ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقامها على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا تثقل موازينهم لأنها خالية من كل خير . في البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال « ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

١٠٦ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾

﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً ، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب .

١٠٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به أن لهم جنات الفردوس والفردوس هو البستان الذي فيه شجر الأعناب . قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها ، وأفضلها . وقد روي هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ « الفردوس ربوة الجنة ، أوسطها وأحسنها » . وفي الصحيحين « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة ، فإن النزل الضيافة .

١٠٨ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين فيها ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدا ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

١٠٩ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

يقول تعالى : قل : يا محمد ، لو كان البحر مداداً للقلم الذي يكتب كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جراً بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ يقول : لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه .

﴿١١٠﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي بما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وإنما أخبركم ﴿ أنما إلهكم ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿ إله واحد ﴾ لا شريك له ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ هو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

* * *

فهرس الجزء الأول
من مختصر تفسير ابن كثير

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٨٢٠٥٢٩/٨٣٥٥٤٨ ـ بيروت، لبنان